

أَفِيئِي

مقارنة بين
ماضيها و حاضرها

الجزء الرابع

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

© عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر، ١٤١٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخويطر، عبدالعزيز بن عبدالله .

أي بني.. مقارنة بين ماضينا وحاضرنا . - الرياض .

٤١٦ ص : ١٦ × ٢٣ سم (الجزء الرابع)

ردمك : ٦ - ٠ - ٩٠٤٨ - ٩٩٦٠

١- السعودية - العادات والتقاليد

٢- السعودية - المأثورات الشعبية.

٣- السعودية - الأدب الشعبي

١- العنوان

١٦/٢٣٢١

ديوي ٣٩٠,٠٩٥٣١

رقم الإيداع: ١٦/٢٣٢١

ردمك: ٦ - ٠ - ٩٠٤٨ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الرياض - الطبعة الثانية

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

يطلب من مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سيرة

مقارنة بين
ماضينا وحاضرنا

الجزء الرابع

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الرياض: المنظمة الوطنية





مقدمة

في الأجزاء الثلاثة السابقة من «أي بني» سعت - ما أمكن - أن استوعب إظهار الأمور الرئيسية في حياة مجتمعا الماضي ، وشرحت ما كانت عليه مما أعرفه ، وعلّلت ما استطعت تعليله ، وحاولت أن أغوص على ما في باطن بعض الظواهر ، وقارنت ما كان في الماضي بما صار عليه في الحاضر ، وبينت ما قد يكون من اختلاف أو تشابه ، وما طرأ من تطور نتيجة الاتصال الخارجي والتقدم التقني . وجاء بعض ذلك مطولاً ، وبعضه مختصراً ، وجاء بعضه عن جميع المناطق ، وبعضه عما أعرفه عن بعض المناطق .

ثم وجدت بعد ذلك أنه قد غاب عن ذهني بعض صور وظواهر ، أو أنها لم تغب ولكن طبيعتها تجعلها منفردة لا تلتحم مع بعض ما سبق ، أو أنها إضافة عنّت لاحقة لما سبق ولم يُتنبّه لها إلا فيما بعد ، أو أنها تفصيل رُئي فيما بعد وجوبه ، أو زاوية



برزت أهميتها مع استمرار الاجزاء ، وهي كلها - في نظري - صور مضيئة رغم صغرها ، أو انزوائها . واشعاعها بعيد الدوائر ، واسع الاندياح . شغلت هذه التنف ، وهذه الاضافات ذهني ، وأخذت أقلب الأمر حياها ، وأجيل النظر فيها ، وأبحث عن خير الطرق لسبكها ، فوجدت أن أفضل طريق لا برازها ، واعطائها حقها ، والاستفادة منها ، حتى لا يكون هناك نقص فيما قلناه عن الماضي ، أن أجعلها ضمن اطار يحويها ، وداخل حضان خطة دافئ يحتضنها ، فلا تبدو شريذة نافرة ، ولا سلعة بائرة ، ولا ذخيرة ضائعة ، واهتديت إلى بعض الأمثال العامة فاخترتها وعاء لها ، وعرضتها ضمن ما تحويه ، من حكم ، وعصيرة تجارب ، وصور صادقة ، ووجدت في هذا مرتعاً خصباً ، بعضه خيره طافح على السطح ، وبعضه في القاع ويحتاج إلى غوص وتعمق ؛ فالحقت بكل مثل مظهراً أو أكثر ، وجاء ذلك استطراداً عفويّاً في بعض الأحيان ، ليساعد على لمس جوانب عديدة ، وما كان بالامكان



لمسها لولا أعمدة المثل ، وركونها عليها ، واعتمادها على صلتها بها .

وبجانب ما تحقق من جمع شتات هذه المتفرقات من الصور ، والمبعر من الرسوم ، والمترك من المظاهر ، فإنّ ايراد الأمثلة نفسه كشف أنواعاً مختلفة من جوانب تفكير الناس في ذلك الزمن ، ومسارب أذهانهم ، واتجاه تفكيرهم .

وحدّدت هذه الأمثال في بعض جوانبها ما كان شغل الناس الشاغل ، أو ما كان في تفكيرهم على الهامش أو في الحاشية . وأبرزت بعض المعلومات المهمة عن تاريخ الفترة ، ومدى تأثير الحوادث على تصرفات الناس ، ومعيشتهم . وجاءت أساساً يمكن أن نصله بأسبابه بزمنا ، ونعرف مدى تلون زمننا به ، وتأثيره عليه .

وليست هذه هي المهمة الوحيدة التي أدتها هذه الأمثلة وإنما كان فيها اشارات واضحة عن أخلاق الناس ، وسيرهم ، وعلاقة بعضهم ببعض ، ونوع

هذه العلاقة ، سواء كانت دراسية ، أو زراعية ، أو تجارية ، أو عائلية ، أو كانت بين رئيس ومرؤوس ، أو بين رجل وامرأة ، أو بين عامل ورب عمل ، أو بين أب وابنه ، أو جار وجاره ، وغير ذلك من الروابط والصلات .

وهذا كله ، سواء منه ما جاء في هذا الجزء أو في الأجزاء السابقة ، يؤكد - خلاف ما توهمه بعض القراء - من أنى لم أعط الجانب الأخلاقي والمعنوي ما يستحقانه من التفاتة في الأجزاء السابقة ، مع أن كل بحث سابق ، في الحقيقة ، كان يلمس جانباً من جوانب الخلق في مظهر من مظاهره ، وكان المرمى لكل بحث هو عرض الخلل في حياة الناس حينئذ وطلب تجنبه ، وإيضاح الصواب وتحسين التمسك به . ومن أهم مظاهر الاهتمام بهذا الجانب إبراز المشقة والعنت التي كان يقابلها أبائنا وأجدادنا في الزمن الماضي ، ثم ما تبع ذلك في زمننا من ارتفاع هذا الشقاء كله أو في معظمه ، وحلول الوجد والرخاء بعد العدم والجذب ، وزيادة المردود بدل



قلته ، مما أوجب التنبيه إلى الشكر على هذا ،
والمحافظة بالشكر على المكسب العظيم الذي ننعم
به .

ولم يخل بحث من الأبحاث السابقة من حديث
عن الأمانة ، أو الصدق ، أو الوفاء ، أو الكرم ، أو
عزة النفس ، أو الطموح ، أو التسامح ، أو
التواضع ، أو اللين ، أو الرأفة بالصغير والضعيف
والمريض ، أو العلم ، أو العقل ، أو رعاية الجار ،
أو المودة ، أو الاخاء ، أو الحياء ، أو بر الوالدين ،
أو الحلم ، أو الصبر ، أو المشورة ، أو المروءة ، أو
كتمان السر ، إلا وصف ما عليه الآباء فيه ،
وتمسكهم به . وتلى ذلك بطريق غير مباشر ، أو
مباشر أحياناً ، حث الجيل الحاضر من الشباب على
السير على هذا المنهاج الحسن .

ومثل هذا أحاديث عن بعض الرذائل مثل :
الغيبة ، أو النميمة أو التجسس ، أو الظن السيئ ،
أو تتبع الشبهات ، أو الكبر ، أو القسوة ، أو
البخل ، أو التقاعس ، أو الخيانة ، أو الجهل ، أو



الحق ، أو الظلم ، أو أذى الجار ، أو الغضب ، أو الحسد ، أو الجزع ، أو إفشاء السر ، وتنفير الشباب من كل هذا ، ومدح الآباء على الحرص على الابتعاد بأبنائهم عن ما يشين من هذا كله .

وهذه الأمور كلها جاءت في تلك الأحاديث مجللة بجلال من السُّرِّ الرقيقة ، حتى لا يمل القارئ من تكرارها وتردادها ، ولا يجفل من إسداء النصيحة ، مع محاذرة جلب الملل ، وتجنب أسباب النفور . وهذان الأمران من الأهداف التي كانت في الذهن دائماً . ولقد تبين أن تجنب الملل أحد أسباب القبول عند بعض محسني الظن من القراء .

في هذا الجزء - مثل الأجزاء السابقة - تركيزٌ على المثل العليا ، واطهارُ لها ، وما كانت عليه في تلك المجتمعات . وسوف يبرز عملاقاً من بينها ، في هذا الجزء ، جانب الكد والكدح في أعمال أهل زمن هذه الأمثال ، وحرصهم على الوقت حرصاً يجعلهم ينافسون ، في حدود مقدرتهم ، آلات اليوم ،



ومعدات العلم الحديث . هذا إلى ما تخلل هذا الجزء مما هو ضمن الهدف له ، وهو شرح بعض مظاهر حياتهم التي لم ترد في الأجزاء الثلاثة من قبل ، أو وردت ولكنها - كما قلنا - احتاجت إلى تفصيل أو إضافة .

والمتعمّن سوف يجد أن هناك تركيزاً على بعض الأمثلة ، وهذا أمر ، في حد ذاته ، يبين اهتمام المجتمع بجانب من الجوانب ؛ فالزراعة ، مثلاً ، استأثرت بعدد غير قليل مما ورد من الأمثلة ، لأن حياة الناس في الحضارة عمادها الزراعة ، ثم التجارة . والبادية كذلك جزء من اهتمامها ينصب على ما تنبته الأرض وقت الربيع ، أو ما تشح به ، فلا يأتي منها .

هذه لمحة سريعة عن هذا الجزء لمّست بعض الجوانب منه ، وهي مدخل إلى بقية ما جاء فيه مما سيجده القارئ فيه .



obeikandi.com



تمهيد

أي بني !

دعنا أولاً - يا بني - نخطط في حديثنا منهجاً نأخذ به ، ونسير في حدوده ؛ يحكمنا ولا نحيد عنه ، ما دما قد حددنا الهدف ، ونريد أن نصل إليه ؛ ومن المفيد أن يختار الانسان القيد الذي يرتضيه ، حتى لا تتشعب به الطرق ، وتتعدد المسالك ، وتطول الجادة التي أراد أن يسلكها فلا يصل في أقرب وقت ، ولا في أقل جهد ، إلى ما يريد .

في الماضي - يا بني - كنا نتحدث أنا وأنت ، في استعراض حياة آبائنا وأجدادنا ، حسب ما يعنّ لنا ، ننتقل من روضة إلى روضة ، ومن زهرة إلى زهرة ، لا يقيدنا إلا حبل رفيع ليس فيه إلا « بت » : « فتلة » واحدة ، وعنوان واحد ، وهو مسلك ارتضيناه لما نتحدث عنه ، ونخوض فيه ، فنسبر غوره ، ونجوس خلال دياره ، أما فيما ننويه اليوم ، وربما بعض أيام آخر ، بعد اليوم ، فسيكون له عناوين



فرعية متعددة . أما منهجنا الذي ارتضيناه هنا هو أننا نأخذ بعض الأمثال منطلقاً للحديث عن الحياة الماضية ، ومقارنتها بعصرنا الحاضر ، وسنحاول في بعض الحالات اعطاء ملامح من الزمنين ، كما فعلنا في ثلاثة الأجزاء السابقة .

وفي هذا - بجانب الميزة التي ذكرناها - ميزات أخرى ، أحدها أننا سوف ندخل إلى الجانب الذهني في حياة الجيل الماضي ، ونتعرف على طرق تفكيره ، ونظراته إلى الأمور ، وما يهيمه منها ، وما لا يهيمه ، ما يشغله مما يفرحه أو يحزنه ، ما يطمئنه أو يقلقه ، ما يحركه أو لا يحركه . سوف نرى ملامح من إيمان الناس حينئذ وعاداتهم ، وتصرفاتهم أمام ما يقابلهم من عقبات ، وما يعترضهم من ضيق عيش ، وما يعترضهم من أمراض ، وما يمر بهم من دهور وقحط وجذب ، وما ينعم الله به عليهم من أمطار وسيول ، وما تجود به أرضهم من زروع ونخيل وفواكه وخضروات . وما يزاولونه من أعمال وحرف ، وما



هو رائج منها ، وما هو راكد . وسوف نفتح نوافذ
نرى منها حربهم وسلمهم ، ورحلاتهم وإقامتهم .

وسوف نرى تأثير المحيط على تفكيرهم وحركة
أذهانهم ، ونظرتهم إلى الحياة في محيطهم الزراعي ،
أو الرعوي ، أو التجاري . سواء كانت الحياة في
المدينة أو القرية ، أو في البادية . وسواء كانت في
سهل أو جبل ، مجاورة للبحر أو بعيدة عنه . وسوف
نرى انتظام مجرى تفكيرهم العام في اطار واحد
يحكمه الدين الإسلامي ، والعادات العربية
الحميدة ، والتقاليد الحسنة .

وكثرة الأمثال ، وتعدددها ، يجعل هذا الحقل
-يا بني- واسعا ، ولا نهاية له . ولهذا سوف نجتزئ
-يا بني- أمثلة ، تمثل ما قصدناه ، وترسم ما هدفنا
إليه ، إلا ما قد يوجبه الاستطراد المريح ، أو تؤدي
إليه فائدة ، أو يقود إليه مغزى . وقد تعودنا ، كما
لعلك تذكر -يا بني- أن نستطرد ، أنا وأنت ،
فأشملنا بعد أن كنا مشرقين ، وشرقنا بعد أن كنا
مجنبيين ، وغربنا بعد أن كنا مُشمِلين ، ولكننا لا



نطيل الخروج عن الجادة ، بل نعود إليها سريعين ،
ولم نكن نندم على هذا ، بل كنا - على ما أظن - نحمد
هذا الازورار ، والخروج والاستطراد ، فهو يريحنا
من القيد الذي أخذنا أنفسنا به ، وارتضيناه منهجاً
لنا . فكان خروجنا مثل الاستراحة للمسافر في
طريق طويل ، يُلقى فيها رحله ، ويلتقط نفسه
الشائر ، ويريح دابّته ، وقد يكون فعله هذا على
حافة روضة ، أو بجوار غدير .

والأمثال - يا بني - ميراث ، يتسلل من الأب إلى
الابن ، يفرح به الوارث ، ويستبشر به المتلقي ،
لأنه مع ما فيه من غنى فكري ، فهو يأتيه دون
تعب ، ودون مؤونة ، وبدون مقابل . وفائدته
كبرى فيما يقابله في حياته من مواقف ، فهذا الميراث
يعلمه الحكمة ، ويجعل عنده ملكة لصياغة
الأمثال ، التي تدخله دائرة المفكرين . والمثل
- يا بني - يأتي في أغلب الأحيان بالصدفة ، وتحكمه
اللحظة . وهذا - يا بني - يعطيك الأمل في أن تصبح



من المفكرين الذين تُلْتَقَطُ أفكارهم ، ويستفاد منها . فاسْعَ إلى هذا بعد أن تتوكل على الله ، وترجو توفيقه ، وتعمل لرضاه .



الأمثال صور من الحياة

أي بني !

« أنت تريد ، وأنا أريد ، والله يفعل ما يريد » .
أنت تريد قصصاً ، وأموراً مسلية ، وتريد أن يبعد
عنك ما هو ثقیل من النصائح ، والحقائق المجردة ،
وأنا أريد لك شيئاً نافعاً في كل جانب من جوانبه ،
لا هزل فيه ، ولا بعد عن الجد ، وينتهي الأمر إلى
ما يريده الله ، فأحياناً أغلبك ، وآتي لك بالأمر ثقیلاً
كالجبل ، وأحياناً خفيفاً كالريشة ، وأحياناً قاسياً
كالصخر ، وأحياناً ليناً كالعجينة ، وأحياناً مرّاً
كالعلقم ، وأحياناً حلواً كالشهد ، وأحياناً مظلماً في
نظرك كحلقة الليل ، وأحياناً منيراً كرابعة النهار .
تقبل المزج منه إرضاء لي ، وتقبل المبهج فرحة به .

والدنيا - يا بني - هكذا ، لا تأتي دائماً على ما
يشتهي المرء ، تأتي على هوانا حيناً ، ونأتي على هواها
حيناً آخر ، ولعل لذة الحياة في هذا : استقبال ما لا
يُحب ، والسعي لتطويعه إلى ما يُحب ، إخفاق معه



كسب درس ، أو نجاح معه حلاوة نصر . نشاط يعارضه نشاط ، أو نشاط يواكبه ويعضده نشاط . وفي هذا كله حركة ، والحركة بركة ، ولو ركدت الحياة لحدث الموت ، فالحياة في الحركة .

لاحظ - يا بني - أنني بدأت قولي معك بمثل . والأمثال لها موقع لامع في اللغات والآداب ، فهي مظهر جمال لغوي ، وهي وعاء حكمة ، وهي قِمة في اختصار الأفكار في كلمات معدودة ، لمعانٍ لا تحدد ، وهي صلة لغوية بين القرون ، وسجل لتاريخ يرثه اللاحقون عن السابقين ، وديوان لصور لحياة الناس في كل جوانبها ، فإن كانت البيئة بيئة رعي مثلت الأمثال بيئة الرعي ، وعكست ما هي عليه وما يجري فيها ، وإن كانت بيئة جبلية فالأمثال تأتي جبلية ، وإن كانت زراعية سيطرت صور الزراعة وأمورها عليها ، وإن كانت ساحلية حكمت ما عليه الساحل وأهله ، وإن كانت بيئة صحراوية حكمت عن الصحراء وساكنيها وحيوانها ونباتها .



والأمثال تُري حالة قائلها من فقر أو غنى ، أو علم أو جهل ، رزانة أو طيش ، شجاعة أو جبن ، تجعل المتبع لها يغوص إلى أعماق المجتمع الذي قالها ، أو قيلت عنه ، لأنها لبنة من طيبته ، وريشة من جناحه ، ومعدن من منجمه ، وغرفة ماء من نهره ، ونفس من رثته ، ونغمة من صوته ، فيها ما فيه من طبيعة وحياة .

ويحسن - يا بني - أن نقوم معا بجولة على بعض الأمثال العامة ، التي توضح ما ذكرناه ، وتكشف عن جوانب المجتمع الماضي ، وما كان يدور فيه ، وما يحول بخواطر أهله ، وكيف يقابلون أمورهم ، ويعالجون مشاكلهم ، وما هي نفثات صدورهم . وسترى أنها تكاد تكون جزءاً مما يُعرّف بتاريخهم ، وما مرّ عليهم من فرح أو ترح ، أو سعادة أو شقاء ، سلم أو حرب ، خصب أو قحط ، وتكشف عما كانت عليه أنفسهم ، وهم يلفظون المثل .

وستجد - يا بني - أننا ونحن نتحدث عن الأمثال - قارئاً - تصرّيحاً أو تلميحاً - بين الماضي والحاضر ،



وأنا لم نخرج عن الخط الذي رسمناه ، ولم نخلف
الوعد الذي على أنفسنا قطعناه . وستجد أن هذا
الحقل - حقل الأمثال - ممدّ لنا مدداً لا ينتهي
لغرضنا ، وأن مثل هذا النهج في تتبع الأمثال لو
أرخيننا لنفسنا العنان فيه ، وأمتعناها بهواها في
مجاله ، لجاء منه كتاب متكامل ، وليس جزءاً من
كتاب . ولكن يجب أن لا ننسى ما وضعناه نصب
أعيننا في منهجنا الذي أرتضيناه ، وهو أن نحاذر
الملل ، ونفرّ منه فرارنا من الأسد .

[٧]

يقول أحد الأمثال التي صاغها آباؤنا بوحى من
بيئتهم ، ونسق حياتهم فيها ، مما يعكس إحدى
مهنهم :

« مَحَشٍ مَجْرَدَةٍ ^(١) »

هذا مثل يضرب لمن له فوائد عديدة ، ويقوم
مقام عمل عدد من الناس . والمحش والمجردة
ألتان ، إحداهما وهي المحش للحصد ، والأخرى ،
وهي المجردة ، لقطع صغار أغصان الأشجار ، أو
تهذيبها وتشذيبها ^(٢) ، وهما متقاربتان في شكلهما إلا
أن المجردة أدق في أسنانها ، وأحد في قطعها ، ولها
تركيب يناسب طبيعة عملها .

والمثل مأخوذ من البيئة حيث كانت الزراعة هي
عماد اقتصاد الناس ، وفي نطق المثل ما يدل على أنه
محّ الاقتصاد وبؤرته ، لأن الفلاح سوف يستعمل

(١) الأمثال الشعبية ، الجهيمان ٨ / ٣٥ .

(٢) وتختص المجردة باستئصال الشوك من النخيل ، والأخذ من
الشماريخ ، للتخفيف عن القنو .



آلة واحدة لعملين ، ويؤدي بها غرضين جرت العادة أن تؤديه آلتان . وفي هذا اقتصاد وأي اقتصاد ، حسب معنى الكلمة .

وهو يمثل البيئة الفقيرة التي كان أغلب الناس يعيشون فيها ويكتفون بما يُجْزى ، لأنهم لا يستطيعون توفير ما يشتهون ، ولا إدراك ما تطمح إليه أنفسهم ، أو ما يتطلع إليه طموحهم ، ولا أن يحققوا كل ما يحتاجون إليه مما هو ضروري لرفع جودة العمل ، فأقل درجات الانجاز تكفيهم ، وأبسط الوسائل تغنيهم عن غيرها مما هو فوق متناول أيديهم .

ولأن المثل يضرب للشخص الذي يسدّ نقصاً لا يسدّه إلاّ أكثر من واحد ، فهو يدل على الكفاية المتناهية ، والقوم مولعون بأمثال ذلك ، لأنه يصور حياتهم في تقدير المُجِدِّين الذين تقوم عليهم حياة المجتمع .

وهناك مثل يعضد هذا في اتجاهه ، ويؤكد نظرته إلى الكفء المُجَدِّ ، وهو من يحمل العبء



بجدارة، يقولون :

« فلان حق قرقوش منظره »

أي أن المضروب له يؤدي عدداً من الأعمال .
«والحقّ» هنا علبة تضع فيها المرأة زيتها ، أو طيبها
أو عطرها ، و«تُدَلِّه» بها ابنها ، أي تشغله وتسليه ،
بالاصوات التي يحدثها تحريك الحقّ ، وحركة ما
بداخله ، وتستعمله المرأة أيضاً مرآة ، تتطلع إلى
وجهها فيه . فهذه العدة الصغيرة قامت مقام ثلاث
آلات .

وإذا كان المثل الأول من الحقل الزراعي ،
ويلمس حياة الناس حينئذ عندما كانوا يعتمدون
على الآلات البدائية ، واستعمالها يعكس حياة
الشظف في العيش ، والعناء والكد لتأمين الرزق ،
فإن المثل الثاني يمثل الحياة داخل المنزل ، ويُري
صورة مما كانت عليه حالة البيت والمرأة فيه ،
ومستوى المعيشة التي كانت تعيشها .

والمحش والمجردة لهما أهمية خاصة لدى الفلاح



في ضوء ما شرحناه -يا بُني- لأنه لا يفتأ يأتي بهما مرة أخرى في مثل آخر من محيطه ، وفي حدود استعماله لهما فيقول :

« ما حشّ المحشّ وجابت المجردة^(١) »

(جابت : أي جاءت به) .

وهو مثل كما نرى يدل على الاحاطة والشمول . فهو يعني كل ما حُصد أو جُني من لين وقاسٍ ، أو هو الغلة بأنواعها .

ولا تعجب - يا بني - أن يلتفت صائغوا المثل إلى الأداة التي تجمع عدة أعمال ، وتقوم بما تقوم به عدة آلات ، فخيال الشعراء هو الذي يوجب العدد ، عندما يقول أحدهم : «ويجمع الله العالم في واحد» . حقيقة إن هذا هو الخيال المجنح ، أوحى به المغالاة في المدح ، واختلف فيه مقوموه ، فمن معجب بالخيال وسعته ، ومن ماج له لأنه تعدى الحدود المقبولة في المدح .

(١) الجهميان ٥٤ / ٧ .

وقبل أن نختم كلامنا عن المحش والمجردة، نود أن ننبه - يا بني - إلى أخت لهما ثالثة هي «الحاسونة»، وتختلف عنهما في أن لها يداً أطول منهما منحنية، تمكن الفلاح من قصر ما بعد عنه، وعسر الوصول إليه، أو دخل في مكان يصعب قطع ما يراد قطعه منه.



[٦]

والحديث عن الزراعة ، وما كان يجري فيها ،
وما كانت عليه صورتها ، يمكن أن تؤخذ كاملة من
الأمثال . وقد أتمكن - يا بني - من اعطائك فكرة عن
بعض الجوانب منها باختيار بعض الأمثال التي تأتي
من قلب الزراعة ، وبيئة النبات ، أو تحوم حول
حماها .

يقولون في أحد أمثالهم :

« إحصد هوا غمّر ماش ^(١) »

(ماش : أي ما شيء أو لا شيء) .

هذا مثل يضرب - يا بني - لمن يبذل جهداً ضائعاً
لا يأتي بنتيجة . وكلمة : «إحصد» ترتبط بالزراعة في
ذهن القائل لهذا المثل ؛ فالمثل على هذا منتزع من
بيئة زراعية ، سواء كان ذلك في مزرعة ، أو في
تبغيل سقيه من المطر الموسمي ، أو في روضة من

(١) العبودي ، الأمثال العامة في نجد ، ٦٠ / ١ .



رياض الصحراء في الربيع . وما دام الحصاد هواء ،
فما هناك حمل يحمل على الدابة كالمعتاد في حمل
الاثقال . والمثل يضرب كبد الحقيقة ، فمن يسير في
فراغ فإنه لا يصل إلى غاية ، ومن يصبو سهامه إلى
الفضاء الخالي فإنها لا تأتيه بطير ؛ فهو مثل صادق
على من تعب ضائع ، وجهده مهدر ؛ فالهواء لا شيء
في وزنه ، فإذا كان هو ما حصد ، فليس هناك غمر
أو حمل يُحمل . وإنما جهد مهدر ، وتعب غير
مخلف ، وغاية لا يوصل إليها ، والهدف مهدوم .

فهو لهذا مثل صائب في صورته ، ومنتزع من
البيئة ، ويعرفون مدلوله ، ويقدرّون وقعه ،
وتأثيره .

ولا تعجب - يا بني - من اهتمامهم بالوقت
والجهد ، فهم أناس قد خبروا الحياة ، ذاقوا مرّها
وحلوها ، السار منها والمؤلم ، النافع والضار ،
ووجدوا في نهاية الأمر أن العمل الذي يأتي
بنتيجة ، ويعود بالنفع على الفرد والمجتمع ، هو



الذي يعوض عن الجهد والتعب، وهو الذي يدفع قيمة ما ينفق من العمر فيه، وساعات العمر هي أغلى ما يمكن أن يقدره الانسان، لأن حصيلته تنفع إما دنيا حسنة، أو آخرة حميدة.

وكانت امكاناتهم المادية في أي مهنة تصدوا لها محدودة، ومقدرتهم محكومة بهذه الامكانيات، ولهذا فالمرء في أغلب الاحيان يكون شحيحاً، ويقتصر على ما يقيت، ويغطي الاحتياج الضروري، ولا يفكرون البتة في الأمور غير الضرورية، بل إن الأمور الضرورية عندهم لها أولويات يترتب الحصول عليها على تنظيم قاس يأخذون به أنفسهم.

لهذا تحس في هذا المثل بمرارة يشعرون بها تجاه من لا يحصد شيئاً يفيد في هذه الحياة القاسية، ولا ينجي ما يساعده على تحمل ثقلها الراجح، ومجاهدة عبثها المضني، ولا يناله من جهده إلا التعب الذي لا يعوض، والعناء الضائع. ولأن



حالة إضاعة الجهد والوقت أمر نادر عندهم جاؤا به مثلاً، ويوحى بشبهة الاستحالة .

حياتهم - يا بني - كانت نمطاً فريداً من الدأب والنشاط، وتوخي المصلحة . ولم يكن أحدهم ينظر لمصلحته وحده؛ وإنما كان يحسب حساب الآخرين، لأن أغلب الأمور تتم عن طريق مجهود الجماعة . ورغم أنه يقوم بذلك مختاراً طائعاً، إلا أنه يدرك أنه ينشئ بمشاركة آخرين ديناً عليهم، يؤدونه له عندما تأتي حاجته إلى أيدٍ متعددة قوية تحمل معه العبء، الذي ينوء به ظهره، وليس لديه من المال ما يقابل به استئجار عمال، لأن النقود شحيحة، والمجتمع وجد - في ظل اقتصادهم القائم - أنه أفضل لهم أن يتعاونوا، في أوقات المواسم . وكانت خطة محمودة تستوعب الأيدي العاملة المتوفرة في المجتمع . وكانوا قنوعين يقبل الفقير منهم أن يعمل بأكل يوم، وقد لا يزيد الأمر عن وجبة واحدة في أغلب الأحيان، ومعها منة كبرى، وحمد لله وشكر له على ما تفضل به .



لهذا يجب أن ينظر لهذا المثل بعمق، ويجب أن
يغوص سامعه على ما في أعماق بحاره من صور
صادقة دقيقة، وبدون الالمام بها لا يفهم ابن اليوم
زمانهم، أو يتصور حياتهم.

[٣]

ومثل آخر مأخوذ من الزراعة، ومن حقل فيه
نخل منضود:

« بشر النخل بفلاح جديد^(١) »

ونبت هذا المثل من بيئته، ويكاد يحدّد المناطق
التي جاء منها، وهي المناطق التي يغرس فيها
النخل، فيزهو وينتج، وهي مناطق معروفة في
الجزيرة، وطبيعة الأرض الصالحة لمثل هذا النبات
تحددها.

والنخلة، وما يدور حولها، أخذ من أمثال القوم
شيئاً كثيراً، ولا عجب، فالنخلة عزيزة عليهم،
وهي عمّتنا وعمّتهم - كما جاء في الحديث الشريف -
وكانت مصدر رزق وكسب للفلاح، ورزق
وكسب لعائلته، ومصدر غذاء متكامل مفضل لهم
ولغيرهم من أفراد المجتمع. والنخلة رأس مال
زراعي متميز جداً في زمن مضى، فمن يزرع حباً

(١) العبودي ١/ ٢٦٥ .



ولا يغرس نخلاً لا يعد مزارعاً أو فلاحاً؛ فالأرض قد تكون أرض «تبطيخ» أي تزرع فقط خضرة الصيف وفاكهته، من بطيخ وغيره، كالقثاء والخيار والحبوب والخربز والطماطم والبيدجان الأسود والقرع. ولكن هذا كله مؤقت. وقد تزرع هذه الأرض هذه السنة، ولا تزرع السنة الثانية. أما إذا كان هناك نخل مغروس فالمزرعة ثابتة ودائمة، وعطاؤها متواصل، ومعروف مقدار غلته بالدقة أو بالتقريب.

والفلاح المزمّن في مزرعة من المزارع قد يملّ فيتراخى، أو يصبح عمله رتيباً مثل ما هو معروف عن طبيعة الانسان في كل أمر يطول مكثه فيه، ويستمر في مزاولته مدة طويلة، فيتوقف الابداع عنده، وينعدم التجديد، فإذا ما وكل أمر النخل إلى فلاح جديد، فإن الأمر يختلف. يأتي المزارع الجديد نشيطاً، مقبلاً على العمل برغبة وهمة، مستعداً لبذل الجهد. وقد ألبس صاحب المثل النخل لباس الانسان؛ فهو يريد أن يبشره ليفرح بالفلاح الجديد



الذي سيوليه عناية يستحقها ، وأنها تختلف عما تعود عليه من الفلاح السابق .

وهو مثل يسعف المتمثل به ، ليعبر به عن أمر كان خاملاً فدبّ فيه النشاط الذي يتوقع له بعد مدة أن يفتر؛ فقائله ينبه بهذه العبارة الموجزة إلى أنه على المتابع ألا يُصدم إذا تغيّر النشاط هذا إلى تهاون ، وهذا الاقبال إلى فتور .

وأنت - يا بني - خير بالمثل ، فأنت تقبل على الشيء إقبالاً ملحوظاً ، تنسى معه أي أمر آخر ، وتبدي نشاطاً قبل أن تحتازه ، ولا تستريح حتى يكون في يدك ، ثم هي أيام أو ساعات فتصد عنه ، وتركه يندب حظه معك ؛ لأنك تعلقت بأمر آخر ، وشغفت بشيء جديد رأيته عند أحد ، أو سمعت به ، أو هو تطوير لآلة عندك ، مما يدخل كثيراً على الآلات في هذه الأيام . وهذا المثل ينطبق عليك ، ولا تحتاج في وصفك إلى أن تنجر مثلاً جديداً ، أو ننحت قولاً حكياً .



[٤]

والأمثال - يا بني عن النخلة كثيرة، لأهميتها،
وتقدير الناس لها، وتعلقهم بها، لجودها معهم،
ولادراكهم لمصلحتهم فيها ومن الأمثلة عنها قولهم:
« مثل النخلة العوجا بطاطها في غير حوضها^(١) »

وهو مثل يشرح نفسه، ويضرب لمن يستفيد من
القريب، ولا ينفع إلا البعيد، وفي هذا المثل تشعر
بالحرقة تلهب قلب قائله - يا بني - فهو يسقي
النخلة، ويُسَمِّدها، ويتعب عليها في تشذيبها
وتكريبها، وتلقيحها وتشويفها (تشويكها)
وتعديلها، وفي النهاية عندما تأتي الثمرة يقع - خير
النخلة، في أرض الجيران، بسبب ميلان النخلة
لاعوجاجها. ألا يدفع هذا صاحبها إلى الأسى
والحسرة؟

وقد يربي الأهل ابنهم - يا بني - أو ابنتهم،
ويعلمونها حتى تكبر هي أو أخوها، فيتزوجان، فلا

(١) الجهيمان ٨ / ٢٤ .

يرى والداهما منها نفعاً، ويكون النفع لمن تزوجوا منهم، هل تظن أن المثل ينطبق على مثل هؤلاء؟

وحديثهم عن النخلة يكاد لا يحصى^(١) : من أمثال وحكم وقصص، وليس هذا مجال حصرها، أو الاتيان بنماذج منها. وما يمكن قوله هنا هو أنهم لتعلقهم بها، وبثمرتها دخلت حياتهم طولاً وعرضاً، ولو سمعتهم يعددون نفعها، ونفع ثمرتها، لسمعت غزلاً يطرب. هم لا يلامون - يا بني - فالنخلة، كما سبق أن حدثتك^(٢)، كان لا يُستغنى عن أي جزء منها. كل شيء فيها صالح عندهم لشيء يناسبه، فمنها ما يفيد في البناء، ومنها ما يفيد للوقود، ومنها ما ينفع للجلوس عليه، ومنها ما يستعمل للكنس والتنظيف، ومنها ما كان يحل محل المكيف، ومنها ما يستعمل حبالاً، ومنها ما يفيد جسوراً فوق مجاري المياه. واسأل الأطفال - يا بني -

(١) من أمثالهم عن التمر والنوى: «ناس يأكلو التمر، وناس يتراموا بنواه»، السباعي، الأمثال الشعبية في مدن الحجاز، ٨٩.

(٢) أي بني ١٣/٢ .



عن جُمارها، واسأل الطيور وما تتركه من «نقادة» عليها. أما ثمرتها فللإنسان غذاء كامل ورئيسي، ويلمزون إلى التمر بأنه «مسامير الركب» لأنه يشد أزهرهم في عملهم. والحيوان - يا بني - له حصة وافية في نوى التمر. ما قد لا تقبله من المتحمسين للتمر قولهم: إن المصاب بالسكر لا يضره التمر مثل غيره من الحلويات، وهي دعوى عليك أن تحذر من قبولها من معه «مرض السكرى».

وحتى الصغار - يا بني - للنخلة عندهم مقام، وإذا كان اعزازها، ومعرفة قدرها تجعل الكبار ينحتون منها مثلاً، فمن هم في مثل سنك في الماضي كان لهم مثلٌ حول النخلة وطولها: إذا تخاصم اثنان، أحدهما قصير والآخر طويل، قال الطويل للقصير: «كل قصير نقمة» فيقول القصير، رداً عليه: «يا نخلة رابغ»^(١). ولعل نخلة رابغ هذه «عيدانة» قد طالت، ولم تعد تجود بما يناسب ما يصرف عليها، أو ما يساوي المكان الذي هي عليه،

(١) «أطول من نخلة رابغ»، دياب، الأمثال العامة، ١٠٢.



وصعودها فيه من الخطر ما فيه ، هذا زيادة على لعب
الريح بها يمينة ويسرة كأنها «نخلة في مهبّ الريح» !
لهذا يرى من قال هذا القول أنّه تشفّى من زميله
الطويل . هذا سلاح أعطيك إياه - يا بني - ان جاءك
من هو أقصر منك ، أو أطول منك ، فعندك لكل
واحد منهما ما ترد به عليه .



[٥]

ومن أمثالهم التي تتصل بالزراعة وحيوانها المثل
الآتي :

« تجرّ رشاك ، وتدهن عشاك ^(١) »

هذا مثل ينجد الممثل به عندما يريد أن يعدد
فوائد شيء من الأشياء ، وقائله استقاه من بيئته ،
ومن استعماله لأدواتها ووسائلها ، ومنها البقرة ، وهي
عضد للفلاح ، يسني عليها ، فتمتص له الماء من
البئر ، تجرّ الرشاء الذي يُنزل « الغرب » أو يُخرجه ،
آتية ذاهبة في « المنحاة » ، وفوق هذا كما يقول المثل
تعطيه الحليب الذي فيه غذاؤه ، ومنه الزبدة ، التي
هي مصدر سمنه الذي يودم به طعامه .

وهذا المثل يسير على نسق القول الذي مرّ قبله
في جمع الفوائد في أداة واحدة ، وهو مظهر من
مظاهر البيئة في البحث عن وسائل تحقيق
الاقتصاد ، والحرص عليه وتقديره ، والابتعاد عن

(١) العبودي ٣٠١/١ .

التبذير، وتجنب ما يؤدي إليه، لأن رقة حالهم وضعف امكاناتهم، تتطلب ذاك، ولا تتحمل هذا، فجاءت أمثالهم صورة صادقة لما عليه دخيلتهم، ولما يحكمهم من طباعٍ قوالبها ظروفيهم.

وحياة الفلاح - يا بني - محدودة بزعره، وبسقي أرضه، وحيواناته وآلاته، والبقرة حيوان يقوم بالحرث والمتح، ويعطي بعض الغذاء، ولهذا لا عجب أن كانت أقرب شيء إلى ذهنه، ليصوغ فيها أمثاله، و«أم العوف» تستحق ذلك كما استحقت النخلة «العمة» قبلها.

ولك أن تدرك - يا بني - مدى أهمية البقرة عند الفلاح، خاصة إذا كانت موقوفة على السواني والحرث، عندما تسمع المثل الذي يقول:

« بقره آل فلان لم تجد وقتاً لتلد »

فهي من السواني إلى الحراثة ومن الحراثة إلى السواني، فلم تجد وقتاً تستريح فيه، لتتمكن من ولادة حملها، وهو مثل يصدق حتى على نساء



الفلاح في الماضي ، فأحداهن تعمل ليل نهار ، لا تستريح ، فالمرأة كانت استثماراً مربحاً ، وربما أن هذا كان أحد أسباب كثرة تعداد الزوجات في بعض البيئات الريفية .

أي بني !

ماذا يمكن فلاح اليوم أن يقول لو أراد أن يصنع من بيئته مثلاً يتناسب معها ، مثل فلاح الماضي ، ويوحي بالقيام بعدة أعمال عن طريق آلة واحدة؟ لا أظن أن هذا يعسر عليه . تصور حقلاً حديثاً يذهب مدّ البصر ، يحتاج إلى حرث وزرع وحصد وتلين تبين ما يحصد . لا أظن الأمر يحوج إلى تصور بعيد ، فالآلة التي تقوم بهذا متوافرة في كثير من الحقول ، ولم توجد لأنها أرخص أو أقل مؤونة في المدى الطويل فقط ، ولكن لأنها توفر مكاناً في التخزين أيضاً ، فهي آلة واحدة ، ولها قطع غيار يركب منها ما حان وقته ، فيركّب المحراث على الآلة لتحراث ، ثم يزال ليركّب ما يقوم بالبذر ، ثم ينحى ليركّب ما يقوم بالحصد والتلين معاً . ما عليك إلا أن تعرف اسم



الشركة الصانعة أو الآلة فتقول مثل آلة كذا تحرث وتبذر وتحصد وتُلبَن، وتسوق المثل على ما تريد من حالة ينطبق عليها هذا .

والبقرة في البيت مثلها في المزرعة مهمة، ولا يقتنيها إلا الأثرياء، وهم قلة في الماضي . والبقرة سعرها عال، وتغذيتها غالية، وتحتاج إلى مكان أو مكانين، أحدهما مسقوف، والآخر غير مسقوف، فالمسقوف يستفاد منه في الصيف لها، لتستظل به عن الشمس، وفي الشتاء لتنام فيه في الليل .

ومقابل السعر العالي، والغذاء مرتفع القيمة، فإنه يأتي منها مردود يستحق ما صرف عليها، ووفر لها . فهي تلد وتتكاثر، وهي تعطي حليباً، يصنع منه اللبن، وتستخرج الزبدة، ومن فوائدها ما يأتي منها من سجاد، يفرح الفلاح به، ويقبل على تسقط مظانه في البيوت، ويشتريه، إما بهال أو بمقابل عيني .

وأسوأ جزء في حياة البقرة في الماضي، داخل البيوت هو عندما «تعطي» أي تطلب الثور، فخوارها



مزعج ، ويأتي متواصلاً ، وإذا صادف وبدأت نوبة الخوار في أول الليل ، فأعان الله أصحابها هم وجيرانهم ، فلن يهدأ بالهم ، ولن يقر قرارهم ، ولن تغمض جفونهم ، حتى الصباح . حينئذ يسارع أصحابها بأخذها للثور ، ولو لم يأخذوها لتبرع جيرانهم بأخذها . وفي كل بلد - يا بني - ثور موقوف «لشبيّة» الأبقار ، أي ليلقحها . وغالباً ما يكون ملحقاً بإحدى المزارع ، لإمكان تغذيته بما تيسر من غلة المزرعة . والذي سبّله فعل هذا ابتغاء الثواب ، وأشهد - يا بني - أن عمله هذا فيه خير كثير ، ولو عانيت مرة واحدة من خوار بقرة «مُعطٍ» لوافقتني على ما قلت .

وليس الثور هو الذكر الوحيد في الحيوانات ، الذي يوقف سبيلاً لغرض التلقيح ، فهناك التيس ، ولعلك قد سمعت في مكة عن «تيس القرارة» ، فهو أشهر شخصية حيوانية في مكة شرفها الله ، ومكة في الماضي كانت أسواقها وشوارعها وأزقتها تعج بالأغنام ، ولهذا فالتيس له دور مهم في تلقيح هذه



الأغنام. ولهذا التيس، زيادة عن أي تيس، رائحة كريهة، تصرع الطير في أجواء السماء، ولعل الأغنام تشم رائحته من الحارات البعيدة. وسُمي تيس القرارة لوجوده في «حارة القرارة»، وهو حي معروف مكة.

وللفلاح القديم مثل آخر يأخذه من بيئته، ينقل فيه بايجازٍ ودقةٍ رأيه في أحد جوانب الحياة :

« صكّته الجيلان^(١) »

و «صكّته» أي ضربته بقوة، و «الجيلان» جمع «جال»، وهو جانب البئر، وإذا وقع شخص في البئر فانه يضربه جانب ثم يسلمه إلى جانب آخر، وهكذا تتناوله الجيلان حتى يصل إلى قاع البئر مهشماً. وكم وقع هذا لأناس ! وهؤلاء الناس إما أن يكونوا أرادوا أن يقفزوا في البئر فخانتهم أقدامهم، فزلت بهم فسقطوا، فتولتهم جوانب البئر، أو أن أحدهم كان يقوم بخدمة ما لعدة السواني، فزلت قدمه فسقط في البئر.

وهو مثل يضرب لمن تتقاذفه الحياة بعنف، فلا يخرج من أذى إلا إلى أذى، ولا تتركه عسرة إلا إلى أخرى مثلها، ولا يحيف به زمان إلا انتقل منه إلى

(١) العبودي ٢ / ٧٣٢ .

حيف زمن آخر . فالمثل وصف دقيق لهذه الحالات ، ومنبعه من بيئة الفلاح ، وهو صورة صادقة ، يعبر تعبيراً دقيقاً مما أخذ منه ، ولما أخذ له .

والمثل يعطي صورة من الماضي قد لا تكون موجودة الآن ، وإن وجدت في بعض القرى النائية فهي إلى زوال . ترى ما هو المثل الذي يمكن أن يتدعه فلاح اليوم من آلاته التي تُخرج له الماء ! والبئر الحديثة لا يرى منها إلا فوهتها الضيقة المستورة . لعله يجد في دوران آلتها ، أو في صوتها المكتوم ، ما يعبر به عن مصائب الزمان المتوالية . ترى هل يقاوم المثل القديم الزمن ويبقى ، حتى لو أصبح بالنسبة لأبناء الغد لغزاً إلا لمن يتتبع منهم التراث ، والمثل جيء به ليفصح لا ليلغز ، فإذا ألغز واستبهم مات .

وحياة الفلاح في الماضي تعثرها المصائب والنكبات ، لأن أغلب الفلاحين يصارف مزرعته عن طريق الدّين ، يأخذه قبل بدء البذر والغرس ، ويسدده من حصد المحصول ، أو طرح الثمرة .



والدائن متنبّه يقظ يتابع مراحل نمو الزرع والنبات، فإذا جاء وقت السداد، وقد يكون عينا، أو نسبة من المحصول، تجده في المزرعة يراقب، ويُثَمِّن ويقدّر، ومنظره عند الفلاح منظر مزعج ومؤلم، فالفلاح لا يستطيع أن يستفيد بأقل القليل من كده وكدحه، إلا بعد أن يوفّي الدائن دينه. ويرز الهمّ بأشع صورة عندما يقل المحصول عن قيمة الدّين، لمرض أصاب الزرع، أو عواصف اجتاحتها، أو لسبب عارض طرأ. هذا يجعل الدّين يتضاعف مع السنوات، وقد يضطر هذا الفلاح إلى بيع مزرعته، وقد لا تفي بالمطلوب. فهو من «جال» دائن إلى «جال» دائن آخر. ومن «جال» مصيبة تحلّ بزعه إلى «جال» مصيبة أخرى.

وهوموه أحيانا تأتي من أمور غير هذا، وقد لا تبدو في أول الأمر مهمّة، ولكنها في نهاية الأمر، خاصة إذا أسلمته مصيبة إلى أخرى، تكون كارثة تقضي عليه، قضاء جيلان البئر على من سقط فيها؛ فقد تموت الأبقار أو الجمال، وقد تنضب الآبار على



غير ما هو متوقع . وقد يداهمه سيل جارف ، يجتث
ما يمر به ، ويكتسح ما يأتي في طريقه .
على هذا - يا بني - يأتي المثل صادقاً فيما قيل من
أجله .



[♥]

وللفلاح مثل آخر من بيئته، نسجه من محيطه،
من شيء يراه كل يوم:

« دخل الذرة^(١) »

حقل الذرة من بيئة الفلاح، والذرة نبات
يطول، ويمكن للمرء أن يجد فيه ملاذاً ومخبأً،
خاصة إذا كان مطارداً. وقد سمعت - يا بني - أن
الجرائم الريفية تكثر في مصر في وقت ارتفاع أقصاب
الذرة وسموقها، يكثر أخذ الثأر، والقضاء على
المنافسين. وينزل ليلاً من الجبل من كان مختبئاً فيه
من المجرمين، ليضرب ضربته في النهار، منطلقاً من
وسط الذرة، ولا يعود إلى الجبل إلا بعد أن يستره
الليل.

أرأيت - يا بني - كيف يقلب الاجرام وسائل
الخير إلى أدوات شر، والشر لا يأتي منه إلا الشر،
فالذرة نعمة أنعم الله بها على الفلاح، وعلى من
يشترى منه. وفي بعض المناطق الخصبة في بلادنا،

(١) العبودي ٢/ ٥٠٥ .



خاصة في الجنوب تحصد الذرة ثلاث مرات في السنة، مما يجعلها مبروكة على الفلاح، وتستحق تعبها وتعوض جهده.

والمثل - يا بني - يعني الذلة والخوف، والتراجع عن أمر لا يحسن التراجع فيه في أصول الشجاعة، ولكن الحكمة، ووزن الأمور بميزان العقل تحتّمه. يجد من يقدم على «دخول الذرة» أن المكسب من التراجع أوفى من الاقدام على العمل، ومناطحة الخطر، وأن السلامة في التراجع، فلا تأخذ المرء العزة بالاثم، ولا يدفعه الحماس، فيقدم على عمل ضرره أكبر من نفعه، ويمكنك أن تتصور النفع والضرر في مثل هذا المثل وممره في مثل آخر، مما يجلو الأمر أكثر.

يقول المثل الثاني :

« الذلة به طولة عمر^(١) »

(أي الخوف والنكوص فيهما اطالة للعمر).

(١) هناك مثل يقول: «من ذلّ سلم»، الألمعي، الأمثال الشعبية في المنطقة الجنوبية، ٢٣٨، وفي بعض اللهجات: «من خاف سلم».



أرأيت - يا بني - هو لم يتأخر ويتقهقر إلا ليطول عمره، ولعله يفكر في فرصة أخرى ينقض فيها على غريمه، فينال مطلوبه، دون أن ينهي حياته هو، أو لعل المكسب يأتي بطريق آخر دون هذه النتيجة. المهم أنه قرر وتأكد أن تقهقره يطيل عمره، وهذا مكسب. ولم يغتر بحماس المحمسين له، الذين يقفون أمامه في الظل، ويوقفونه في الشمس، وفي العراء، ويكونون - أو بعضهم - من أول الشامتين به عندما يقدم على العمل الظاهر الفائدة، الباطن الضرر، وهؤلاء المحمسون له - ورجلهم في الماء، ورجله في النار - يتلذذون بألمه، وتعرضه للأذى، فإذا انتهت المتعة أداروا ظهورهم له، وتركوه لشقائه، وحينئذ يأتي مثل آخر يقول:

« راحت السكرة وجات الفكرة ^(١) »

والسكرة يوجبها الحماس العاطفي، وتطيشها الكلمات الجوفاء العامة، وهي أمور تغطي على

(١) السباعي ٣٥، وفي بعض اللهجات: «... وجت الفكرة».



صفاء العقل ، مثل ما يغطي الغبار صفاء البلور ،
وإذا احتجب العقل تساوى الانسان والحيوان ، بل
قد يكون الانسان أسوأ تصرفاً من الحيوان ، لأن
للحيوان فطرة قوية ، جعلها الله فيه لتحميه ،
والانسان هذب الله فطرته بالعقل ، فإذا غاب
العقل ، - والفطرة مضعفة من قبل - وقع المحذور .

وعندما تهدأ العاصفة ، - والغضب عاطفة ، وقد
قيل فيه - :

« الغضب ريح تهب على سراج العقل فتطفئه »

يندم الانسان ولات حين ندامة ، والأسى لا
يفيد ، وكما يقول مثل آخر :

« إذا قطعت راسي بالجهل وش لون تركبه »

أي كيف تعيده إلى مكانه ، أي إذا قطعت رأساً
دون أن تتحرى أنه يستحق القتل ، ودون أن تثبت
مما اهتمته أنت أو غيرك به ، ثم تبين لك خطئ
رأيك ، وخطأ فعلك ، فما هي الفائدة حينئذ :

« لقد وقعت الفأس بالرأس »



ولم يعد بإمكانك أن :

« تعيد عقارب الساعة »

وأن تعيد الرأس إلى كتفيها، والروح إلى الجسد البارد، فإذا ما عضضت أصبع الندم، أو عضضت اليد كلها، فأنت لا تزيد عن أن تؤكد أن السكره راحت، وحلت محلها الفكرة، مع الألم والحسرة.

لهذا - يا بني - أمر الدين الغاضب أن يقوم فيتوضأ، قبل أن ينساق وراء غضبه، والوضوء شافٍ ومُجرب، فأنت بقيامك وبوضوئك عزلت الغضب عزلاً تاماً، وركنته في ركن قصي، وسلسلته بسلاسل من فولاذ، وربطته برباط متين، وحبسته في ركن مكين، وأول خطوة اتخذتها عندما فكرت في اتباع الدين، هي انصراف من الدنيا إلى الدين، وهي خطوة تباركها النية، ويُربّيها حسن القصد، ثم أشركت جوارحك فيما عزمت عليه، وهذا يساعد الذهن على الانصراف عن التفكير فيما هو فيه إلى خدمة هذه الجوارح، وما ستقوم به من



عمل، ثم ابتدأت القسم الثاني، وهو أهم الأقسام حتى الآن، فأنت تبدأ ملامسة الماء الذي يطفئ النار، ثم تعممه على الأجزاء المهمة من الجسم، فما تنتهي إلا وقد تخلصت من سورة الغضب، وثورة المكابرة، وتغلبت على نفسك، لأن الماء جاء عليك ببرد وسلام، وأنزل بك الهدوء والسكينة، فإذا وفقك الله بعد هذا، وزدت فصليت ركعتين، فقد تعود إلى خصمك، ولا تكتفي بمسامحته، وإنما تحسن إليه، فتكسب ديناً ودنياً، في الدرجات العليا منهما. هل سمعت بدواء يعفيك من المرض، ويجلب لك العافية، ويريك طريق الجنة؟ هذا هو الدواء لمثل هذا الداء.

ولهذا فلا عجب - يا بني - أن يكون في أذهانهم، وعلى ألسنتهم حديث عن الخوف، وبشاعته، وما يكمن وراءه من رعب، مبني على صور ضياع الأموال والأنفس، وحديث عن الحياة وطولها، والرغبة في إبقائها بأي طريق، حتى لو كان بطريق لا يرفع شأن صاحبه، حتى لو كان طلب الحياة عن



طريق الذلّة والخنوع ، فألمها مؤقت ، ولا تعدم أن
تجد عاذراً ، أو من سبق أن أحرقت يده نار الشجاعة
التي في غير محلها ، أما الموت فهو فقد لأمر غالٍ ،
وهو ليس فقداً مؤقتاً ، يعود المرء منه بعد أن تتغير
الأحوال .

هذه هي رسالة الأمثال - يا بني - تعطيك في عدم
قولها ، وفي ما صمتت عنه أكثر مما قالت في كلماتها
وفي نطقها . عليك أن تلبس ، عندما تسمع مثلاً من
هذه الأمثال ، ثياب الغوص ، وتنزل إلى الأعماق ،
وتجوب بحارها يمناً ويسرة ، حتى تعرف ما لا يحيط
به إلا الملاح المصمم المتتبع .

والمثل : « دخل الذرة » يقال في الأمر العظيم ،
وفي الأمر الحقير ، يقال عن قائد تقاعس عن
الهجوم ، أو تاجر تراجع عن صفقة تجارية ، أو جار
نكس عن معاقبة جار على أمر لم يرتضه ، أو أب
لتلميذ كان ينوي محاسبة المدرسة عن شيء يخص
ابنه ، وجد أن المكسب ألا يفعل ، أو أي شخص
أقدم على عمل ، وتراجع عنه لحكمة ، أو خوفاً منه ،

ومن عواقبه، فنكص، وأثر أن يتراجع، ويصبر على الملامة في عودته عما صرح بالاقدام عليه. وقد يقال في هزل بين اثنين، كأن يطلب أحدهما من الثاني أن يقبل الرهان، فلا يقبل بعد أن بدا منه عزم على ذلك. وبهذا يتهم بأنه دخل الذرة.

والخوف أو الذلة في زمن مضى - يا بني - لم يكن غريباً على مجتمع اتسم بالحروب والغزوات والغارات والنهب والسلب والاعتداء على الحقوق. والفئات فيه يتراوح عددها من كبير أو صغير، وفي مواقع تحصينها أو عدمه. فهذا قوي، وهذا ضعيف، وهذا له عصبية، وهذا ليس له نصير، فيجور هذا، ويجار على هذا.



[٨]

ومن الأمثال المستقاة من بيئة الفلاح ، أو هو أقرب إليها :

« دلو ماء ودلو طين ^(١) »

مثل من البيئة القديمة للفلاح ، ويتصل بناحية من النواحي المهمة في حياته ، وهي البئر والدلاء ، وما يخرج من البئر من ماء ، وما قد يخالطه من طين ، إذا كانت البئر في أول بدء خروج الماء منها ، وهي تحفر ، أو إذا انسكب فيها السيل المتجمع ، أو تعرض «طيها» لانهار ، أو لأي سبب عارض تسبب في نزول الطين فيها .

وهو مثل لمن يأتي منه الطيب والقبيح ، أو يتوقع منه الحسن والرديء ، ففلان - مثلاً - يتحدث ، وفي بعض كلامه رزانة ، وفي بعضه خفة وعجلة ، أو يخلط الصدق بالكذب ، أو يساعد ويعرقل ، أو يعطي حيناً ويمنّ وييخل حيناً آخر ، أو يقبل

(١) العبودي ٥١٦/٢ .



أحياناً، ويدبر أحياناً أخرى. هذا يوصف عمله بأنه دلو ماء ودلو طين^(١).

وفي هذه الحياة - يا بني - سوف تقابل أناساً كثيرين تتذكر عند تصرفهم هذا المثل، ومدى انطباقه على أفعالهم، بل أن الحياة نفسها دلو ماء ودلو طين، تقبل أحياناً وتدبر أحياناً، تعطي وقتاً وتمنع آخر، تبسم مرة وتعبس أخرى، تشرق شمسها على شخص ثم تغيب عنه، وقد تعود فتشرق، وقد تشرق وتغرب عدة مرات في حياة شخص.

والمثل يعطي صورة قديمة لم يبق للجيل الحالي منها إلا تصورها، فقليل منهم سوف يرى دلو ماء ودلو طين حقيقي، فالصورة أصبحت نادرة، لا ترى إلا في حفر الآبار الآلية العميقة، وهذه سوف لا يُرى فيها دلو، وإنما انبوب يصب ماء مختلطاً

(١) هناك مقالات لي ظهرت في جريدة الرياض تباعاً عام ١٣٩٠هـ تحت عنوان «دلو ماء ودلو طين»، طبعت في كتاب عنوانه: «من حطب الليل»، طبعة ١٣٩٨هـ. وتكون الجزء الأخير منه.



بالطين، ورؤيتهم لهذه وأمثالها ليست من الكثرة بحيث تمكنهم أن ينحتوا منها مثلاً، يكون صورة أدبية لما يريدون أن يعبروا عنه. من يعرف ! فقد يأتي من يستقي من صوت الآلة ما يدل على الشيء وخلافه كأن يقول مثلاً : مثل ما طور الماء الذي يقطع ، بمعنى أنه يعمل ثم يفصل للحظة قصيرة، وهو عيب مثل الماء إذا تلاه طين .

لا شك أن ما يرمى إليه المثل أمر يلმسه الناس في حياتهم، فالحياة، والناس مثلها، لا تثبت على حال، وظروفها متنوعة، تجعل ثباتها غير ممكن، والناس فيها دائرون، وبها متأثرون، يزداد على هذا أن الناس ليسوا على وتيرة واحدة في تصرفاتهم، فهم عرضة للتقلب، نتيجة لما يمر بهم في حياتهم، أو ما تمليه عليه طبيعتهم، وما ورثوه من خلق وصفات .

ولا أظن أن جيلاً من الأجيال يخلو من صورة التغير، ولعل الناس في أزمان مختلفة عبروا عن هذا تعبيرات رسمت فكرهم ومحيطهم فيما نطقوا به، وأجدادنا قالوا هذا المثل، ومادته من محيطهم، ومما



يراه كل واحد منهم ، مفيداً للتعبير عمن يأتي منه
الشيء وضده ، والأمر ونقيضه . فان رأيت يوماً
منظراً لبث في مكان ما ، ينزح ماؤها ، فيخرج منه
مرة ماء ، ومرة طين ، فتذكر بعض من تعرفه عن
كلامه «مخادش» ، أي متعرج ، يذهب يمينا ثم
يساراً ! .



[٩]

« الذيب بالقلب^(١) »

وهو مثل يقال للتنبيه بأن الأمر على خلاف ما ظن السامع ، أو على غير ما يظن . ومعنى هذا أن الأمر اختلف إلى غير ما يحب المخاطب ، أو يتوقع ، أو أن هناك مفاجأة لم تكن في الحسبان ، هي غير ما كان سيحدث من تصرف متظر . وقد يكون المثل للتحذير ، وما يقتضيه الموقف من عدم السير في خطة كانت موضوعة ، لأنه طراً ما يجعلها تحقق لو سير في الأمر .

وإذا كانت البئر - وهي مصدر حياة الفلاح بما فيها من ماء - خاصة إذا جُمّت ، وجمعت ما يحتاجه لزراعته ، قد أضيف إليها ما يعكر صفوها ، وينقص فائدتها ، وهو وجود حيوان متوحش فيها خطير ، مثل الذئب ، فالأمر يحتاج إلى اتخاذ خطوات غير عادية ، فبدلاً من تحريك السواني ، وإدلاء

(١) العبودي ٥٥٠ / ٢ .

الدلاء، ينصرف الفلاح، ومن يأتي لمساعدته،
 للقضاء على هذا الحادث المفاجيء، فتخرج البنادق
 من مكانها، ويلعلع صوتها في وسط الليل أو
 آخره، فيقضي على سكونه، ويقض مضاجع
 الانسان والحيوان، يفرع هذا، ويجفل هذا، وتطير
 العصافير من البئر قبل الأوان. أما الفلاح، وأمثاله
 من جيرانه فهذا الأمر ليس غريباً عليهم، وإن كان
 الرمي يلفت نظر من لم يعلم ولم يشارك، ويجلب
 الفضولين، وسرعان ما يصبح الأمر حديث
 المجالس، فيروى بطرق متعددة، وبصورة مختلفة،
 فيها المغالى فيه، وفيها الموسع، وفيها المنق والمزاد،
 وقد تدخل الخرافة في وصف حجم الذئب، أو في
 مقاومته، أو في شجاعة المتصدين له، أو في طريقة
 القضاء عليه. انه حدث عظيم حرك ساكن هذا
 المجتمع الرتيب في أعماله، المستقر في أحواله،
 فالمرأة وجدت فيه مادة للحديث، والرجال وجدوه
 مدداً لسمرهم، والأطفال جاءهم من حيث لم
 يحتسبوا، فلعب خيالهم فيه ما شاء له أن يلعب،



وحتى يأتي بديل لهذا محلّ محله، أو يبهت أثره، فهو شغل الجميع الشاغل.

والذئب عادة يحوف المزارع غير المسورة، أو التي سورها قصير، أو فيه «منقز» أو منفذ، وجُد فيه أصلاً، أو جاء بفعل الزمن، أو أحدثه السيل، أو وجد لهدف مؤقت، فيأتي الذئب ليأكل ما تطرّف من الحيوان، أو ليشرب، خاصة في الصيف، حيث الحرّ شديد، ولا ربيع، ولا أغنام تملأ الصحاري، وقد لا يكون من الحذر بحيث يتفادى الوقوع في البئر فملاسة الأحجار، وصعوبة الوصول إلى مناقع الماء في «لزا» البئر، وهو المكان الذي تصب فيه «الغروب»، وهي دلاء السواني، تكون سبباً في وقوعه في البئر^(١). وفي هذه الحال غالباً ما تكون حركته غير العادية في البئر مما ينبه الفلاح عندما يأتي

(١) ترى لو كانت عيونه بسعت الثور، هل كان يقع في البئر: هناك مثل في الجنوب يقول:

«قال: شأنك الثور لا يطيح في البئر. قال: عيونه أكبر من عيوني». الألمعي ١٦٧.

ليبدأ يومه، إما بالوضوء للصلاة، أو للاعداد لبدء السواني لمتح الماء كالمعتاد عند إقبال يوم جديد، أو عندما يأتي في الليل لتفقد بعض أمور الزراعة.

ومن الصور التي تحدث أحياناً أن يقترب الذئب من حظيرة الحيوانات فتجفل منه، فتحدث حركة وضوضاء، فينشق الحمار، ويصيح الديك، ويكأكيء الدجاج، وتنبج الكلاب، فيفزع من في المزرعة يطاردونه، ويضيع عليه المخرج، فيأخذ يمينا ويساراً، وحيثما اتجه يجد نفسه مقابلاً لمطارد، فيحدونه على البئر، فيقع في الفخ، وتضيّق عليه المطارة، فإن سلم من رصاص البنادق، لم يسلم من الوقوع في البئر، ثم ينتهي أمره هناك.

يموت الذئب من جراء سقطته في البئر، أو يقتله رصاص مطارديه. وإذا لم يكن ماء البئر غزيراً فسيصبغ دمه البئر وينجسه، فيتخرج بعض الناس من الاستفادة من ماء البئر يوماً أو يومين إلى أن ينزح الماء ويطهر، ولكن نادراً ما يكون الماء قليلاً فيتأثر، لأنه في الغالب يكون الماء طوال الليل قد جم



وكثر، فلا يؤثر دم الذئب فيه، فلا يكون هناك مشكلة، وينتهي الأمر بذكرى تتردد في المجتمع كما قلنا حتى تبهرت، ويغطي على هذه الحادثة غيرها مما هو أجدّ منها، ولا يحییها في الذهن، وفي المجالس، إلا حدوث مثلها في هذه البئر، أو في بئر أخرى في تلك الناحية.

والذي يجعل الذئب - يا بني - متواجداً في هذا الجوار - إضافة إلى ما ذكرته لك - أنه يعيش غير بعيد، لأن المزارع على أطراف المدن أو القرى، وليس هناك سيارات وضجيج، وطرق عامرة بالآلات ذاهبة آية، كما هي اليوم. الذئب اليوم ابتعدت - يا بني - لأن وسائل المدنية الحديثة أزعجتها ولاحقها، أين سرعة الذئب من سرعة السيارة الجيب، وأين يفر الذئب من رصاصة أمّ خمس، أو أم غيرها مما جد من السلاح. تجده الآن بعيداً عن المدن في الجبال، حيث يجد المأوى والمخبأ، وحيث يجد ماء متجمعاً في ملاقف الجبال وقللها. تنبه إذا وجدت جبلاً منعزلاً بعيداً، وفيه



غار مهجور، فقد يكون الذئب يقضي قيلولته فيه ،
كما كنت تريد أن تقضي قيلولتك، وتنبّه إلى ملاوذ
«العرمة» قرب مدينة الرياض، ففيها ذئاب شرسة،
وضباع مثلها.



[١٠]

ونأتي إلى مثل للمزارع أيضاً يقول :

« عشان الورد ينسقي العليق ^(١) »

العليق نبات متطفل ، يسمى في نجد «الخرمة» أو «الخرماء» ، ينبت شيطانياً - كما يقول العامة - بين النبات ، يتسلق عليه ، ويلتف حوله . يأكل خير الأرض ، ويشارك النبات ماءه وغذائه ، ولا يستفيد منه الحيوان الفائدة الكاملة ، فرغم أنه يأكله ، ويقبل عليه ، إلا أنه ليس بالكثرة التي تفيده . وقد يفيد العليق النبات فائدة محدودة عندما يلتف حول ساقه ، فيحميه من حرارة الجو ، ومن شدة البرد ، ولكن الفلاح الذي زرع الورد ، والماء عنده قليل ، لا يريد أن يصرف جزءاً منه على ما لا يفيد ، ولا يريد أن تضعيف قوة الأرض في نبات متطفل ، خيره وما فيه من مردود أقل من خير الورد كثيراً .

لهذا جاء المثل وفيه رائحة الحسرة لمن يكرم

(١) السباعي ٥٣ .



شخصاً لا يستحق الاكرام من أجل آخر يستحق ذلك، ويقدم على عمل لا يرضاه، لأنه يقف في الطريق إلى أمر يرضاه. والحياة مليئة بالمواقف التي يقدم عليها الانسان لأنها الوسيلة لأمر آخر هو الهدف، فيتحمل المرء من أجلها ما يجerce المر أحياناً.

وهذا المثل مأخوذ - كما نرى - من بيئة الفلاح، ويعتمد على خمسة عناصر، منها نباتان، وعنصر ثالث، والعنصر الثالث هو «التربة» التي لا يراد لها أن تستهلك بما لا يفيد. و «عنصر رابع» هو «الماء» الذي لا يراد له أن يضاع فيما لا يفيد. والعنصر الخامس الذي يبذله المزارع هو الجهد. وهذا المثل يعكس ما كانت عليه حياة الفلاح من رقة، نتيجة لضعف امكاناته، وبدائية آلاته، وما يقتضيه ذلك من جهد في سبيل استخراج رزقه بها وعن طريقها.

أما جهد الفلاح وأمر العليق اليوم فلم يعد مشكلة، لأن البئر آلية، وعميقة «ارتوازية»، تخرج



له من الماء ما يكفيه بمجهود أقل ، وبمال أكثر ، ولا عليه إلا إعمال آلة رفع الماء التي تعمل على الكهرباء أو الوقود ، ولها مهندس يقوم بصيانتها ، ويدعى لها عند الحاجة ، والمزارع بإمكاناته الجيدة يستطيع أن يوفر هذا ، وعنده في الغالب اما بئر احتياطية ، أو خزان احتياطي . أما العليق وأمثاله من النبات الطفيلي ، فلدى المزارع له من المواد الكيماوية ما يقضي عليه ، ويريمحه من همه .

أما فلاح الأمس فليس لديه شيء من هذه الأمور المريحة ، فحفر البئر جهاد ، وطي جوانبها عناء ، وعدة السواني قاصمة الظهر ، ودواب السواني تأكل ما وراءه وما دونه ، وقد يكون حصل عليها بالدين - وهذا هو الغالب - وصيانة عدة السواني لا تنقطع ، فهي عمل متواصل . وحيوان السواني عرضة للتعب ، والاجهاد ، والمرض ، والموت .

لهذا قفز إلى ذهن الفلاح ما يعانيه من ذاك النبات المتطفل الذي يسرق منه بعض جهده وهو يرى ، ولا يستطيع أن يعترض ، بل يستسلم طائعا

مختاراً، ثم يتنفس هذا المثل الحكيم، الذي سوف يتخلل العصور منحدرًا إلينا، ومنا إلى أبنائنا، حتى يأتي غيره ليحل محله، أو يغلبه مثل آخر وهو قريب منه. وقد يسير على قضيب قطار متجه وجهة مختلفة بعض الشيء، وإن كانا في النهاية يلتقيان: ألم يسق العليق لأجل عين الورد؟

والمثل الذي ليس بعيداً عنا هو المثل الذي يقول:

« لأجل عين تكرم مدينة^(١) »

وهو مثل معبر عما قيل من أجله، وهذا مثل يتفق في مؤداه مع المثل السابق، ويزيد في أن المراعى صغير بالنسبة لمن أعطي الرعاية لأجله، وهذا المثل أقرب إلى ألسنة الناس، يعبرون به عن المواقف التي تمر بهم عما يقتضي قوله.

وإذا كان المثل الأول يمثل الفلاح، ومأخوذ من محيطه وهي المزرعة، فهذا المثل يمثل ساكن المدينة،

(١) هناك مثل يقول: «في حب عين تكرم ميه»، الألمعي ١٦٢.



وَعُرِفَ المثل من نبعها . وهناك عُنْصَرًا المثل جمادٍ ،
أما عنصراه هنا فليس كذلك . وكم لعب الحب دوراً
في هذا المثل . وتحمل المحب لأجل عين حبيبته أنواع
المشاق والمضايقات . ولولا أن الحب - يا بني -
طاغية لا يفرق بين فقير وغني ، وبين شقي وخلي ،
لقلنا إن الفلاح ليس عنده وقت للحب والعشق
والغرام ، لأن وقته يأخذ بناصيته طوال الوقت ، فلا
يدع له فرصة لأن يبحث عما يهواه قلبه ، وإن ابن
المدينة أقرب إلى الوقوع في شرك العيون ،
ومراعاتها ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم أن هذه هي
القاعدة ، ولكن ما نستطيع أن نؤكد كما رأيت ، أن
كل مثل جاء بذهن صاحبه ، مأخوذ من بيئته ، لأنه
أقرب له من غيره .

والعليق لا يمر بالذهن دون أن يفكرنا ببعض
الناس الذين لا يستطيعون أن يعتمدوا على
أنفسهم ، أو ينفردوا بها دون أن يرتكزوا في نفعها
إلى أحد ، وهؤلاء - يا بني - كثير ، وأنت ترثي

لحالم، لأنهم مثل الذي وضع نفسه في الرق مختاراً طائعاً. ولعل للتربية - يا بني - دخل في هذا، فالوالدان يحتاجان إلى أن يتبها لمثل هذا الأمر، ويعودا ابنهما الاعتماد على النفس من الصغر. وقد يحتاج الأمر إلى إعطاء الطفل القياد في التصرف، ومراقبته عن بعد، حتى لا يحدث له ضرر من جراء زيادة الثقة بالنفس قبل النضج اللازم لمثل هذه المرحلة. وتعويد الطفل الثقة بالنفس تجعله أكثر نفعاً لمجتمعه عندما يكبر، لأنه يصبح من أصحاب الأولويات. يكون بادئاً للشيء، لا تابعاً فيه. وتجعله يأخذ وحي الثقة والاقدام من اقراره في داخل نفسه، وفي قراراتها، بما يتصف به من ميزات، ولا يحتقر ما قد يكون الله حباه به، مما حرم منه غيره، فيستفيد مما فيه من صفات، مهما قلت، أتم استفادة، ويستغلها أكمل استغلال.

أما مَنْ عَدِمَ الثقة بنفسه، وأصبح ذليلاً لمن هو أقوى منه شخصية، فإنه يُضِيع على نفسه شيئاً كثيراً. فإذا كان الله قد أعطاه بالوراثة أو الدراسة



صفة يفوق بها غيره ، فإنها تصبح كالنبر في التبر ،
لا فائدة منها ، وقد تضمحل مع الزمن ، فلا يناله إلا
الحسرة .

هناك مثل جميل ، يكثر ترداده ، لكثرة وقوع الحالات التي يحتاج الناس فيها إلى المثل ، فإذا تأخر انسان عن موعد الأكل ، وجاء إلى مكان المائدة ، ووقف مشدوهاً ، يسائل نفسه هل انتهى الناس من الأكل ، أو لم يبدؤا بعد ، يقول له الحاضرون :

« طارت الطيور بأرزاقها ^(١) »

وإذا جاء طالب التسجيل في مدرسة ما ، أو كلية ما ، ووجد باب القبول قد قفل ، فيمكن أن يقول له طالب آخر ممن حصل على رزقه وسجل : طارت الطيور بأرزاقها . وإذا هو مثل يُعبر عن أن المرء تأخر عما كان يجب عليه أن يبادر في حضوره أو اقتنائه .

وهو مثل من بيئة الفلاح ، فالطيور تأتي «فروقا» ، وتقع على مرزقها ، وبسرعة تلتقط الحب أو غيره ، ثم تطير ومعها رزقها ، فلا تبقى لغيرها

(١) العبودي ٢ / ٧٦٤ .



شيئاً، والذين راقبوا مزارع الحبوب، خاصة بعد الحصاد، عندما تتساقط حبيبات القمح أو الذرة أو الشعير أو الدخن، أو بعد حراثة الأرض وقلبها، يرون كيف تأتي الطيور دفعة واحدة، فتقع وتلتقط ما تجد بسرعة، ثم تنهض. وهذا منظر يتكرر، واعتاد الفلاح على رؤيته وتوقعه. ولا تكتمل مناظر المزرعة بدونه.

ومنظر الطير هذا يمثل مصدراً ثراً للفلاح يستقي منه أمثاله، فلا يكفيه هذا، وإنما يأتي بآخر فيقول:

« الطيور على أشباهها تقع ^(١) »

أو يقول:

« فلان مثل الكحالي والأمية ^(٢) »

والكحالي هو ذكر العصفور والأمية هي أنثاه،

- (١) هذا مثل عربي فصيح، والاستشهاد به كثير.
(٢) هناك بيت عامي يتمثل به في تغير الحال في المجتمع الجديد،
يرد فيه لفظاً الكحالي والأمية:

دنياً على كلِّ الخلايق قلبيه
حتى الإمية يشتكى منها الكحالي



وتعرف إن كنت فلاحاً أو متصلاً بالمزارع ، أو من الذين راقبوا حركة العصفور في بيوت الطين القديمة ما يدل عليه المثل .

ولهذا المثل قصة : يقولون إن الكحالي أناي ، ويجب نفسه كثيراً ، وفي الصيف ، عندما يشتد الحر ، يخذع « الأمية » ، ويقول لها عند النوم بالليل : ادخلي داخل العش حتى أحملك من الهوام الطوافة الخطرة ، وهو يريد أن يتمتع ببرودة الجو خارج العش ، ويدعها تنصلي بحرارة بيتها في الداخل .

وفي الشتاء عندما يشتد البرد يقول لها عند النوم في الليل : دعيني أدخل في داخل العش ، لأن الهوام تلجأ إلى الداخل طلباً للدفء ، فلو وجدتك في الداخل لاهبتك بلدغها ولسعها ، فاجعليني أحمل هذا عنك ، وأبقى أنت خارج العش الذي لا يريده أحد من الهوام في الشتاء .

ويقول مثل آخر صادق :

« ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع »



وهكذا تُستَقَى أمثال - ذات مناح مختلفة - من الطيور، وأكلها، وحركتها.

ومثل آخر يقول :

« طير باليد ولا عشرة فوق الشجرة^(١) »

وهو يحمل حكمة بالغة، ولهذا فهو عالمي، تقرأه في كل لغة.

ولو تمعنت - يا بني - في بعض هذه الأمثال لوجدت أنها تحمل العظة، وعصارة التجربة، ووجدت أنها درس كامل لمن أصغى، وطلب الحكمة والمنفعة والفائدة.

خذ مثلاً - يا بني - قول : الطيور على أشباهها تقع. قلّ أن تجد طيراً من الطيور مع غير جنسه، وهذا أمر يتماشى مع قوانين الطبيعة التي أوجدها الله، لتنظيم بقاء هذا الكون، ولتضمن عمرانها. فالتماثل يؤكد الحماية والاطمئنان على الرزق، وعلى

(١) «جراده في اليد، ولا عشرة طائره»، السباعي ٢٥.

«جراده في يدي ولا عشر نوافر»، الألمعي ٥٩.

الحياة. وليس هذا في الطيور فقط، ولكنه في الناس أيضاً^(١)، وفي الحيوانات، فتجد كل جنس يلتئم مع جنسه، وينجذب إليه، وكما قيل «شبيه الشيء، منجذب إليه». فالكبار مع الكبار والصغار مع الصغار من الناس، والتجار مع التجار، والمزارعون مع المزارعين، أما الحيوانات - يا بني - فما عليك إلا أن تفتح التلفزيون وترى بعض «الأفلام» التي تُرى مظاهر الطبيعة. خذ مثلاً أفريقيا، وما يُعرض عنها من «أفلام»، تجد الغزلان مع الغزلان، والمها مع المها، والأسود مع الأسود، والفيلة مع الفيلة، ووحيد القرن مع وحيد القرن، والضباع مع الضباع، والذئاب مع الذئاب، وابن آوى مع ابن آوى، والزراف مع الزراف وهكذا.

وهذا المنحى من التفكير أعطى اهتماماً خاصاً بالإنسان، لأنه أكرم من على وجه الأرض، واستفاد من هذا الاتجاه في التحزب والتجمع، وأقرب ما

(١) يقول المثل: يا اللي زينا تعالوا عندنا». السباعي ٩٩، و«كل سن يضحك لسنه»، الألمعي ١٧٧.



يمكن أن أذكره لك القول الذي يتردد على الألسنة :

« كل قرين بالمقارن يقتدي »

وهو مثل صادق .

وخذ المثل الثاني الذي مرّ بنا ، إنه يمثل الحياة وطبيعتها ، فكل طائر يطير ، ويرتفع في الهواء ، لا بد له أن ينزل . وهذا مثل صادق في كل أمور الحياة ؛ ما اعتلى بنيان إلا انهدم ، ولا سمقت شجرة إلا ذوت في يوم من الأيام ، ولا اعتلى إنسان إلا نزل ولو بالموت ، وانتهاء مدة حياته ، فهو مثل جازم ، لا يحتمل الاستثناء . ومن قاله قاله عن بديهة يعرفها كل أحد . وقد تقول إن هذا القول من السهل الممتنع . وهو يقال أحياناً للعظة والتنبية إلى أمر قد يكون قارب أن يجعل صاحبه المرتفع مغترّاً ، فالمثل يذكره بما قد يكون غائباً عن ذهنه .

ومن بيئة الفلاح يأتي المثل :

« مبدور على غير نجم ^(١) »

ويضرب للشيء يأتي بأقل من النتيجة المطلوبة، أو لا يأتي بنتيجة أبداً، ومعروف أن للغرس وقتاً معيناً، وللبدور وقتاً. بل إن لكل نوع من الشجر وقتاً للغرس، ولكل نوع من الحبوب وقتاً. والأوقات عند المزارعين في الماضي تحدد بالنجوم. فهي الأداة الدقيقة التي لا تخلف. ويحرص الفلاح أن يكون زرعته أو غرسه في الوقت الملائم لهذا الزرع أو ذاك الغرس، وإلا فإنه يموت، إن كان غرساً، أو لا ينبت إن كان زرعاً، أو قد ينبت الغرس أو الزرع «حاسراً» كسيحاً، ويأتي نموه غير طبيعي، ويصبح مثل الإنسان المريض ^(٢).

ورغم أن الفلاح يعرف هذا، فقد يجازف لسبب

(١) الجهيمان ٧/ ٢٥٩ .

(٢) لعل المثل الآتي يشارك في المعنى: «أحسن البدع، يكفيك شر المردود»، الأملعي ١٩ .



أو آخر، كأن يكون الفرق في الوقت قصيراً، فيضطر إلى الغرس في غير الوقت، أو البذر متأخراً، مؤملاً أن الفرق في المدة لن يؤثر كثيراً، ولكنه بالتجربة يجد أنه بهذا يغالط نفسه، وأن عليه أن يحافظ على نجم كل زرع، ويبقى أن ندعوله أن يكون من يدينه جاهزاً وقت طلوع النجم.

وقد لا تكون آفة الزراعة أو الغرس في غير الوقت في ضعفه أو عدم طلوعه، ولكن في أن جزءاً من نموه يأتي في غير وقته، فيكون عرضة للعوامل الطبيعية، كأن يأتي التزهير وقت الأمطار أو وقت موسم هبوب الرياح، فيسقط الزهر، ويضيع جزء كبير منه، يفقده الفلاح ويخسره، هذا إذا لم يسقط كله. وقد تشتد الشمس لدخول الصيف في وقت الزرع أو الغرس في حاجة إلى جو معتدل إن لم يكن يميل إلى البرودة. هذا التصور في حد ذاته يفرع الفلاح، ولهذا فهو يحاذره ما أمكنه ذلك.

مثل هذا الأمر يوجد عند الفلاح ملكة متميزة تساعد على دقة تنظيم أعماله وحياته، وتؤثر على

تفكيره فتجعله سليماً منظماً . فينظر إلى الأمور كلها بهذا المنظار، فينطبق عليه في أموره جميعاً النصيحة الثمينة التي تقال لكل من يراد له الخير، وأنت منهم - يا بني - «لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد» . لأنه لا أحد يضمن الغد أبداً، فهو في يد الله سبحانه وتعالى . قد يموت الانسان، وقد يمرض، وقد يعوقه عائق .

والحمد لله - يا بني - أنك رأيت بعينك، ومررت بتجربة تجعلك تؤمن بهذا القول، فطالما نصحتك بأن تنهي واجباتك بعد انتهاء دروس يوم الأربعاء، وأن تستغل يوم الخميس لأكمالها، وللذاكرة بدلا من الراحة بقية يوم الأربعاء، وطوال يوم الخميس، اعتماداً على أن تقوم بالواجب وحله والذاكرة يوم الجمعة . وقد أصبت بزكام يوم الجمعة أكثر من مرة، وأدركت أن كلامي صحيح . ومع هذا تجاذبك نفسك، والنفس أمارة بالسوء، فتؤخر عملك إلى يوم الجمعة، وأرجو أن يستر الله عليك، فلا تصاب بزكام مرة أخرى .



والفلاح - يا بني - يسعده أن يكون كل أمر يتم في وقته، إلا أن الأمر ليس دائماً في يده، وليس هو سيد نفسه في كل أمر يخصه، فالجو أحياناً يحكمه حكماً قاسياً، والدائن أحياناً يحكمه حكماً أقسى. وقد يقف في طريق رغبته في تنفيذ أمر ظرف يجعله يطأطئ رأسه، ويستسلم، وليس له أن يقول إلا حسبي الله ونعم الوكيل.

والطقس في يد الله وحده يصرفه كيف يشاء، وما على الفلاح إلا أن يلائم بين رغبته وطبيعة الجو، ويوائم بين ظرفه، وما عليه بيته. ويحتال أحياناً. ألا تراه يحصد ثمرة «القوطة» «الطماطم» «البندورة» «البدنجان الأحمر» قبل الوقت، ويدفنها في صفة التبن، لتحمرّ بالتدريج، حتى يستطيع أن يبيعها في الشتاء حين تقل المنافسة بثمن أغلى. و«أجد» من هذا و«أحدث» البيوت المحمية، أو البيوت الزجاجية، التي تسمح له أن يكيّفها بالجو الذي يريده، ويزرع فيها من الخضروات والفواكه ما



يشاء في أي وقت يشاء، لا يعنيه من الجو خارجها أمر، ولا يشغل ذهنه شاغل.

ولكن هذا فلاح اليوم، وليس فلاح أمس المسكين. وإذا تركنا الجو جانباً، ونظرنا للدائن فهو من الذكاء بحيث يستغل قدرته، وضعف الفلاح، فيساوم مساومة كلها في صالحه، وليس للفلاح إلا أن يخضع، وقد يجفل من مبلغ ربح «المداينة»، ويتردد، ويؤمل أن يكون تردده سبباً في لين الدائن. وقد يلجأ إلى التلميح بأنه سوف يبحث عن دائن آخر، ولكن الدائن الأول يعرف السوق جيداً، ومن فيه، ويعرف جيداً الدائنين الآخرين، وأنهم مثله، فهو مطمئن أن فلاحه سوف يعود إليه، والدائن يردد داخل نفسه المثل الذي يقول:

«درب الكلب على الجزار»^(١)

أحياناً هذه المناورة، وهذا الرواح والمجيء، والأخذ والعطاء في الشروط، وفي مقدار الربح،

(١) «طريق الكلب على الجزار»، الأملعي ١٣٥.



يجعل وقت البذر المحدد يمرّ، فلا يحظى المزارع
بأخذ الدين إلا بعد أن يمر الوقت، فيجازف
ويزرع في غير نجم ذلك الزرع، ويحل به
المحذور.

وقد يأتي سيل عظيم، أو برد قارس، فيؤجل
الفلاح بذر زرعه، أملاً في أن يكون ضرر التأخير
أقل مما لو زرع الآن، والعائق القائم أمامه
بالمرصاد. وعوامل الطبيعة، وإن أمكن التنبؤ
ببعضها لظهور بواذره، إلا أن هذا غير مضمون،
ولا يمكن الاعتماد عليه، والمجازفة في هذا كبيرة
بالنسبة لهذا المسكين، الذي وراءه أفواه مفتوحة
جوعى، ودائنون يسيرون خلفه بأسواط.

وللفلاح مصدر هم آخر، إذ قد لا يكون الفلاح
صاحب أرض، فيذهب يبحث عن أرض بكر،
مُراحة، ليزرع فيها في موسم من المواسم، فيجد
المنافسة تشحذ سكين الأسعار، ويجد الدّلال والتردد
من صاحب الأرض، والذي قد يكون صاحب



أراضٍ ، فلا يهمه أجر أرضه لهذا الموسم ، أو تركها
تشمس ، لتكون مرغوبة أكثر في موسم قادم ، وليس
رزق أهله وأولاده ونفسه فيها ، حتى يتكالب على
تأجيرها أو بيعها .

ومنظر الفلاح يثير على العموم في نفس الدائن
رغبة جامحة من الجشع والطمع ، لأنه منظر ضحية
رأت السكين تسنّ ، والمديّة تشحذ ، فأتت طائفة
لتذبح ، ويسلخ جلدها . ألا يذكرك هذا - يا بني -
بالمثل الذي يقول :

« يبحث عن حتفه بظلفه »

ولكنه بحث عن حتف مخفف - هذا إذا كان في
الحتوف ما هو مخفف ، وما هو مثقل - عن حتف
ميت . رضي الفلاح بالدين القاسي عن الجوع
القاتل . وعليه رحمة الله^(١) .

(١) «ديانك سيدك حتى ترضيه



[١٣]

« متمرة مع القمع ^(١) »

هذا مثل ينطوي على علم ، وعلم دقيق ، فالبسرة تبدأ تُتمّر من أسفلها تدريجياً ، حتى يصل الأثمار إلى أعلاها عند القمع ، والله في هذا حكمة ، فلو بدأ الأثمار من القمع ، وهذا هو الذي يمسكها بالشمراخ ، لوقعت من الثقل ، فلا يكتمل اثمارها . وعليه فلن يكون في يد الناس تمر ، وإنما بسر ، بعضه لا يمكن الاستفادة منه ، لأن بعض أنواع التمر بصره مرّ ، والناس يريدون أن يجنوه من القنو ، لا أن يجمعوه من الأرض ، من حوض النخلة ، المشبع بالسماذ والمملوء بالتراب .

فالأثمار مع القمع أمر غير طبيعي ، وخلاف المعتاد ، وقد وجد الفلاح في هذا مثلاً يضربه لكل أمر يأتي على غير طبيعته ، أو ضد طبيعته ، أو خلافها .

(١) الجهمان ٧/ ٢٦٢ .

وإذا كانت النخلة - كما هو معروف - مهمة للفلاح، وتعتبر رأس ماله الأول، فهذا لأنها تعطيه التمر، وهذا هو الغذاء الرئيسي المطلوب في زمن مضى، ولا غرو أن يكون كل أمر في النخلة أو التمرة محط اهتمامه، وموقع نظره، وأُسّ ملاحظته الدقيقة، لهذا جاء بهذا المثل الحاوي على علم كبير، قد لا يفتن له إلا الفلاح، أو من له علم بالنبات.

والشجر والزرع يعطي المزارع تجارب، وعن طريق هذه التجارب يتحسن الإنبات، وتزهر الثمرة. وبعض الشجر يحتاج إلى عناية غير اعتيادية، ولا تتوفر هذه العناية إلا بعد التجربة الطويلة الدقيقة. فهناك مثلاً شجرة لا تثمر كما يثمر الشجر، ولا بد لها لتثمر أن تضرب بآلة حادة على لحائها فوق ساقها، وتسمى هذه الشجرة في نجد «بنبرة» وفي الحجاز «مُخَيطة»، لها ثمر أصغر من فاكهة البخارى أو البرقوق الصغير، وداخلها لزج، والمثل يقول:

« مثل البنبرة ما تحمل إلا مندرة^(١) »

(١) الجهيمان ٧ / ٢٨٠ .



وبعض الناس مثلها، لا يأتي خيره إلا بعد
معاصرة لا مياسرة معها، وما لديه لا يحصل عليه
أحد بسهولة، ولا بد من حيلة أو ملاحكة أو مطاردة.

وقد وجد الفلاح في بيئته ما يعبر به عن مثل هذا
الشخص، ولم يحتاج أن يأخذ مثله من بيئة أخرى،
بل أنه أعاره إلى أصحاب بيئات أخرى مثلنا.

في المجتمع صور كثيرة تحتاج إلى «تندير» من
نوع أو آخر، أليس مدح بعض الشعراء لبعض
البخلاء تنديراً. الق بالك - يا بني - من اليوم
فصاعداً حولك، وسيمر بك حالات كثيرة ينطبق
عليها هذا المثل. بل لعل مدح الكريم يدخل ضمن
هذا، فلولا المدح لما جاد الممدوح على الشاعر بما
جاد به. ومدح عن مدح يختلف، فهذا يأتي ببعض
المال، وهذا يجيد ويأتيه بهال أكثر. الأمر أمر «تندير»
وأمر «منذر»، ودرجة «التندير» تلعب دوراً في
مقدار ما «يُنذر» الممدوح، وتطرحة شجرته.

ونعود مرة أخرى - يا بني - إلى المثل الأول «متمرة
مع القمع» إذا أردت أن تتصور مدى خطأ هذه

الصورة، لأنها مخالفة لقانون الأتمار للنخلة، فتذكر بعض النساء اللاتي يحملن في المبيض بدلاً من الرحم. ومقدار الفزع الذي يصيب المرأة وذويها والطبيب المشرف أو المعالج.

ولابد أن لدى الفلاح أموراً كثيرة تأتي خلاف الطبيعة، أو مغايرة للمتوقع، فتضايقه، وتربك تخطيطه، وهذا المثل يُرى رد فعل مجتمعه لهذا الأمر. وقد اختار هذه الصورة ليعبر عن بعض قلقه في هذا المجال، وهي صورة بارزة واضحة، أتى بها مكبرة كما يفعل راسم الكاريكاتور.

ولكن - يا بني - لا تأخذ هذه حجة، إذا رأيت المناهج في إحدى المراحل الدارسية تبدأ في التاريخ مثلاً بالعصر الجاهلي، ثم عهد الخلفاء الراشدين، ثم عصر الأمويين، ومن بعدهم عصر العباسيين، ثم الدويلات الإسلامية، ثم المماليك، ثم عهد العثمانيين، ثم عصرنا الحاضر. وتقول إنها «متمرة مع القمع». وكان يجب أن نبدأ بعصرنا هذا، ثم نعود إلى الوراثة تدريجياً حتى نصل إلى العصر



الجاهلي . ان فعلت هذا فستجد من يقول لك :
أنت الذي تجعلها بهذا «تتمر مع القمع» ، ولك
حجة ، وله حجة ، وحجتك قوية ، وحجته قوية .
ولن تخرج أنت وهو بطائل ، فقد أتعبت هذه من
قَبْلَكم من التربويين ، ولن تريحكم أنتم . فالأفضل
الإذعان للتجربة القائمة ، يأتي جيل ، فيجد في هذه
طرافة فيطبّقها ، فيملها ، ثم يجرب ما هو خلافها
حتى يملها . هذه هي الحياة - يا بني - .

أي بني !

للمزارع والمزرعة قديماً صورة يرسمها المثل
الآتي :

« ناصر يقهويه وأنا يزني المسوقه^(١) »

ناصر مثل من قيل فيه المثل ، لابد أنها انتقلا إلى
رحمة الله ، ولابد أنها في مجتمعها كانا معروفين ،
والمشتكي مثلها انتقل إلى رحمة الله ، ولابد أن
الحادثة التي شكى منها لطرافتها لفتت أنظار
السامعين ، فوجدوا أنها تصلح مثلاً ، لأنها نفثة
صدرية حارة ، أحرقت بأساها وتشكيها سامعيها ،
فبقيت الجملة لنا دليلاً على فعل حصل في الماضي ،
واستحق أن يخلد ، ويخترق العصور ، ويمكن
للباحث المدقق أن يحدد وقت نطق هذا المثل
بالتقريب ، إذا ما قرنه بوجود القهوة في مجتمعنا ، أما
« المسوقة » فلعلها من زمان غابر ، ولا تفيد الباحث
شيئاً في تحديد الزمن .

(١) الجهيمان ٧ / ٢٩٥ .



جملة فيها من الأسى والحرقه ما يكاد يلهب الاذن
عند سماعها لها، وتعبير يصور الغبن، ويستدر
العطف على هذا المسكين الذي جاء مع ناصر،
فاعتني بناصر، وبُجِّل وكُرِّم، وترك هو للشقاء
والكد والتعب. ولتصور الوقت شتاء، بعد صلاة
الفجر، وقبل طلوع الشمس، أو عند طلوعها،
فهذا أخذ إلى مكان دافئ، وقوبلت خرمته للقهوة
بما يطفئها، ومعها معدته بطانة لهذا الشراب المحبب
من تمر أو خبز أو عصيد أو حنيني أو ما من الله به
عليهم، وهذا ناوله صاحب المزرعة العصا
«المسوقة» لبدأ يوماً مجهداً من شروق الشمس إلى
غروبها، لا يقطعه إلا صلاة، أو اراحة للدواب، أو
أكل شيء يسير، «يسكت عصافير المعدة».

فالمثل صورة لعدم العدل بين اثنين كان من
المتوقع أن يساوى بينهما ما داما قد جاءا معاً، وبدلاً
من ذلك جاء الجور والتعسف واضحاً، فالذي لا
يعمل، ولا يؤدي جهداً، هو الذي تُصب له القهوة
ويكرم، ويدخل ليستريح في نادياها، والآخر يُعطى

العصا التي تساق بها حيوانات السواني ، مع ما يتبع ذلك من جهد وتعب ، وسيذهب هذا «العامل» ويجيء في المنحاة مرتفعاً ومنحدرًا ، مع هذه الحيوانات ، يحثها ، ويغني لها ، ويتأكد أنها في كل خطوة تسير على ما يرام . ترى هذا العامل وقد ضاق بعصاه : فمرة هي إلى جنبه ، ومرة هي على كتفيه ، وقد أسند عليها يديه مرتفعة ، وكأنه يريد أن تشد ظهره الذي أتعبه ذرع المنحاة طالعاً أو نازلاً ، حافياً لا يحمي قدمه حذاء من برد أو أوساخ ، وعلى جسمه أسمال تكاد لا تعرف بأنها ثياب ، ولعل أجرته لا تتعدى تمرات يقمن صلبه ، عند منتصف النهار .

اسمع - يا بني - قصة أحد هؤلاء ، ذهب أحد أصحاب المزارع إلى السوق يبحث عن عمال ، وكان يريد خمسة ، وكانوا عادة يتجمعون بعد صلاة الفجر عند أحد مساجد المدينة ، فلم يجد أحداً ، فلمحه رجل متقدم في السن ، وقال له : كأني بك تبحث عن عامل ؟ قال : نعم أريد خمسة ، قال له : استأجرني وسأقوم بعملهم جميعاً ، فاستحيا منه ،



واستأجره . وجاء إلى بيت المزرعة ، وكانت ربة البيت قد أعدت عصيدة لخمسة ، فقدّمها له الرجل ، فأكلها كلها ، ثم طُلب إلى الحقل ، وقام فعلاً بعمل خمسة حفراً وسقياً وغيرهما ، وفي المساء قدّم له صاحب المزرعة عشاء الخمسة ، لأنه أخفى عن أهله أنه عامل واحد ، فأكله كله ، واستمر الأمر على ذلك ثلاثة أيام حتى أكمل العمل . وبعد آخر طعام التفت العامل إلى صاحب العمل ، وقال له : لعلك - يا عمي - قد لاحظت عليّ في أكل هذا الطعام كله ، فوالله أن لي شهراً لم أذق وجبة مطبوخة ، ما هي إلا تمرات في هذا اليوم أو ذاك تبقيني حياً .

هذه - يا بني - صورة من صور هؤلاء العمال ، ولك أن تقيس النفثة الملتهبة التي قالها صاحب ناصر على هذه الصورة التي ذكرتها لك . وهي صورة كانت تتكرر ، ولم تكن غريبة ، وهذا الرجل الذي شرحنا قصته أكل بعد أن عمل ، تُرى ما هي حال أهله !

ونعود إلى المثل مرة أخرى ونجد أن عدم العدل بين اثنين لا يحتاج الفلاح أن يستعير له مثله من أحد آخر، بل يأخذه من محيطه، فيرسم صورة صادقة لما يمكن أن يكون عليه الجور والظلم، وقد جاء صاحب المثل بالصورة واضحة ومريرة، وعلى لسان مهضوم الحق في هذا المثل الذي يكاد يكون قصة متكاملة الجوانب.

وهذا المثل - يا بني - قد لا يكون واضحاً لابن اليوم الذي لم ير السواني إلا في المتاحف، ولم ير «العامل» الذي يبدأ عمله عند صلاة الفجر إلى أن تغرب الشمس، ما عدا راحة قصيرة للأكل والصلاة أو في القيلولة لا رحمةً به وإنما رحمة بالحيوانات التي سوف تتلف إن لم تُرح. ولا يعرف أجازة ولا أجره يومية، وأكله القليل هو أجرته. وليس له معاش تقاعدي، ولا مكافأة نهاية الخدمة، ولا بدل ضرر، ولا بدل علاج.

أتعرف - يا بني - أنه لا يُكسى إلا ثوباً واحداً مرة واحدة في السنة في عيد الفطر غالباً، ثوب يكسى



عورته فقط ويغطيها، لا يدفئه؛ ينام فيه، ويعمل فيه، ويجلس فيه، وقد لا يكون جديداً، بل مستعملاً في أكثر الأحيان إلا إذا كان «دوتا» أو «مريكاني» وهي أخشن الثياب، وسيدهُ الفلاح قد لا يكون في هذا خيراً منه، وقد لا تعلم - يا بني - أنه في يوم العيد يعمل العامل أكثر النهار، لأن الزرع لا يعرف الراحة، وسقيهِ لا بد أن يتم في وقته.

وقد لا تدري - يا بني - وكيف تدري؟ أن للعامل أغاني يهزج بها ويردها ذاهباً آتياً، طالعاً نازلاً، تساعده على تحمل المشقة، تؤنس وحدته، وتطرب حيواناته، وتسلي المستمع البعيد، حارثاً أو ساقياً، أو رائساً أو حاصداً، أو باذراً، أو تسلي امرأة في بيت طين في آخر البستان تغسل ثياباً أنك كتفها ضرب الكابون، وذلك الأوساخ. وأغانيه لا تخلو من لمسة دينية فيها طلب العون من الله على تحمل المشقة، ولهذه الأغاني نغمة خاصة معروفة، تتماشى مع سير الحيوان، ومع موسيقى «المحال» وصرير الحبال، التي يجعلها جفاف بعض أجزاء دواليب



السواني التي يدور عليها المحور، تصرخ صرخات
منتظمة، وانتظامها ورتابتها تجعلها أقرب إلى
الموسيقى المكررة، ولها في قلوب الناس قبول، وهي
تأتي من بعيد كالصدى الحالم، وهي مما يلذ سماعه،
لا ينافسها إلا أغاني «الختامة» الذين يحرثون الأرض
ليلاً، ويغنون أغاني لها وقع جميل في سكون الليل.



[١٥]

أي بني !

الزراعة في القديم يواكبها الإقراض والمداينة ،
كما سبق أن قلنا ، خاصة الزراعة الموسمية ، وهي
عنصر مهم من عناصر حياة الناس فلاحين وممولين ،
أحد أمثلتهم ، في هذا ، المثل الآتي :

« ما الشَّرْهه على اللّي يبعل بالسّطوح
الشّرْهه على اللّي يدّينه ^(١) »

والتبعل هو أن تزرع على ماء المطر ، تختار مكاناً
خصباً في وقت معين من المواسم التي تكون الأمطار
فيها متوالية ، ترتوي على أثرها الأرض ، وتخزن
فيها الماء ، فيزرع القمح غالباً في البرية . وهي
زراعة غير ثابتة ، وأهلها غير منتظمين فيها ، فهم
ينتهزون الفرصة ، فيستدينون ليفلحوا الأرض ،
ويزرعوها ، ومؤونتهم في الانفاق عليها قليلة ،
لا تعدو توفير البذور ، وتهيئة الأرض ، وزرعها ، ثم

(١) الجهيمان ٧ / ٧٧ .



حصدها بعد أن تستوي على سوقها، وما يتبع ذلك من خطوات تتألى من درس، وتنقية، وخزن أو تكييس، وتحميل إلى الأسواق لبيعها، وتسديد الديون، وتصفية الربح، وهو الفرق بين ما صرف وما سدد للدائنين.

فلتتصور أن شخصاً طلب ديناً من آخر، على أثر توالي الأمطار، ليُبْعَلَ في سطح بيته، حيث لا تربة خصبة، ولا ماء لزمته الأرض واختزنته، فالزرع حينئذ على أرض صلبة ليست زراعية، فيضيع المال على الدائن والمدين، من الملموم إذا كان المستدين مجنوناً، أو أخرج؟ والدائن يعرف سلفاً نية المستدين في زرع أرض لا تنبت، أليس من أهدر ماله هو الملموم؟ هذا ما رمى إليه المثل، وهو من الوضوح والدقة والصدق بحيث ينطبق انطباقاً كاملاً على حالة كل من رمى ماله في البحر، وهو يعرف أنه ضائع. لقد أهداه الفلاح الذي قال المثل حكمة صائبة.



هذا ضاع ماله، وهذا ضاع جهده، وركبه الدين، وأصبح الموقف مضحكاً. إنها صورة دقيقة، رسمها رجال الماضي على لوحة بيئتهم البسيطة، وعبارة بليغة نطق بها أحدهم معبراً عما شعر به، وحكمة بالغة تركها للأجيال تعتبر بها. أما اليوم - يا بني - فالبنك الذي يعطي القرض لا يجعل للملاحة طريقاً إليه، ولا يجازف بالأموال المودعة لديه، بل يتحرى عن الأرض، وعما سيزرع فيها، وعن المستدين وعقله وتصرفه، وقدرته على التعامل مع أمرٍ مثل الأمر الذي جاء يتصدى له، ويتأكد من تناسب الدين مع المشروع، ونجاح سيره ضمن مراحلهِ. ويرهن مقابل ما يُعطي ما يفترض أنه يفي بالسداد فيما لو اختل ميزان العمل، وعجز المدين عن السير في مشروعه كما خطط له، مما عاق نجاحه، وعاد عليه بخسارة بدل الربح، واخفاق بدل النجاح. وأحياناً يطلب كفيلاً غارماً مليئاً يأخذ عليه مما يحفظ حقه ما يتأكد أنه مجز أو يزيد. ومع هذا - يا بني - فتحدث مشاكل مع هؤلاء المستدينين

مما لا يعفي البنك من اللوم، لأن الذين يعقدون الصفقة بشر، ويعقدونها مع بشر، والبشر عرضة للزلل المتعمد أو غير المتعمد. ترى لو أراد أحد أبناء اليوم أن يضرب مثلاً فيه لوم على خطأ يتكرر مع وضوحه ماذا سيقول؟.

وإذا كان المثل من بيئة الفلاح، فهذا لا يعني أنه لا ينطبق على البيئات الأخرى، أو لا يصلح لزمناً. انه صالح لكل زمان يوجد فيه أناس يهدرون أموالهم وأعمالهم وهم يعلمون أنهم يضعونها في مواضع الضياع والاهدار. دعني أضرب مثلاً يصلح لك، وأنتم طلاب في المدارس. لو عرف بينكم طالب يستعير الدفاتر أو الكتب، فيضيعها، أو لا يردها، أو يؤخر ردها، وأنتم تعلمون هذا، وسبق أن قاسيتم منه، ومررتم بتجارب مرة، ومع هذا فأحدكم أعاره دفترًا مهمًا فيه ملخصات وحلول قبل الامتحان بيوم أو يومين، فلم يعد إليه دفتره ليذاكر للامتحان. من المعلوم الطالب الذي عُرف بالاهمال، وإضاعة ما يستعيره، أو الذي أعاره رغم معرفته بعيبه؟



تاجر «جملة» يعرف تاجراً «للقطاعي»، وأنه لم ينجح في عمل أقدم عليه، أو كثير التنقل من بضاعة إلى بضاعة دون نجاح، أو رجل لا يسدد ما عليه لتجار الجملة. ورغم هذا يعطيه، فمن المألوم عندما لا يعود إلى تاجر الجملة حقه؟. وقس على هذا كثيراً من الحالات التي يقدم أصحابها على أمر بادٍ خلله، ومع هذا يثقون في خلاف ما يعرفون عنه أنه سوف يحصل.

لو فكرت قليلاً - يا بني - لوجدت شيئاً من الطمع يشوب الأمر، ولوجدت أن هذا الطمع أعمى البصائر، أو خدّر الأعصاب، فصغر الضرر في العين، وكبرّ النفع، وغطّى هذا على هذا. وانساق الشخص للأمر الخطأ عن طريق منحدر، لم يقاوم ضعيف الإرادة، قوة الطمع وما فيها من بريق، أعمى عينه، وأعشى فؤاده.

ولم يُر - يا بني - شخص يهدر ماله، إلا شخص مثل هذا، كما قلنا، أعماه الطمع، وقاده الجشع. أو شخص مثل شارب الدخان يعرف ضرره على



نفسه، وعلى أهله، وعلى جيبه، وعلى اقتصاد
وطنه، ومع هذا يقدم عليه. وشارب الدخان وضع
عنقه في سجن هذه العادة - يا بني - عندما كان
صغيراً غير ناضج، فلما كبر وجد أن هذا السجن له
باب واحد دخل منه، ثم بنى على الباب جدار، فلم
يعد هناك منفذ إلا رحمة من الله تتداركه، فتفتح له
نافذة ضيقة، يخرج منها بعناء إلى رحابة أرض الله
الواسعة.

لهذا - يا بني - يحرص الآباء على إبعاد أبنائهم عن
رفقاء السوء الذين يسوغون لهم أعمالاً غير ناضجة،
تتمشى مع عقولهم الفجة، غير الناضجة،
ويحرصون على مراقبتهم، وتبصيرهم، إلى أن
ينضجوا، فيتركوهم، اعتماداً على أنهم بلغوا
الرشد، وشبوا عن الطوق، وأصبحوا يعرفون ما
يضر وما ينفع، وما يجوز وما لا يجوز.

ولا تنس ما سبق أن حدثتك عنه عن مدى تأثير
الزميل المماثل لزميله في السن، والوقت الطويل
الذي يقضيه معه، واستعداد أحدهما للتأثر بزميله



في هذه الفترة؛ لأن الفكرة السيئة تعرض صدفة فتستغل، فتجد قبولاً. أما تعليمات الأهل فهي تأتي بصورة نصيحة، والنصيحة ثقيلة، خاصة إذا لم يختر الوقت المناسب لالقائها. ومما يزيد تأثير الزميل في زميله تكرار الفكرة في أوقات مختلفة، وبصور متنوعة، ومدمن القرع للباب يوشك أن يلج.

أعرف شخصاً كاد أن يقع في عادة التدخين، ولكنه بلطف من الله نجا. والقصة تريك كيف يجد ابليس الفرصة فيهتلها، قال:

كنا مسافرين من مكة إلى القصيم في سيارة «لوري». وكان معنا رجل كبير السن محترماً، وتكريماً له وتبجيلاً، تنازل معاون السائق عن مكانه بجانب السائق، وتركه له، وصعد إلى أعلى السيارة، فوق «الغمارة»، أي المكان الذي فوق السائق، وكنت معه في ذلك المكان، وقد أعدنا مكاناً وثيراً، بما فرشناه من فرش نومنا، وخلفنا بقية الركاب في «صندوق» السيارة. وكان الوقت بارداً بعض الشيء. وبعد أن صلينا الفجر، ركبنا

السيارة، على أمل أن نمشي مقدار ساعة قبل أن نقف للراحة والافطار. ومع برودة الجو في ذلك الوقت المبكر من الصباح، واندفاع السيارة، ومقابلة الهواء اللاسع للركاب، شعرنا بوطأة البرد، وكانت فائدة الأغذية الضئيلة، حينئذ سارع «المعاون» فأخرج سيجارة دخان وأشعلها، وأخذ منها نفساً عميقاً، وأظهر أنها أدفأته أكثر مما أدفأته جميع الأغذية التي تدثرنا بها. وقال هذا بطريقة مؤثرة وتوحي بالثقة والاقناع. لا بد - يا بني - أن ابليس أعاره صوته وعقله في هذه اللحظة ليظهر بذلك المظهر المؤثر! ويقول راوي القصة: في تلك اللحظة تمثل لي والدي رحمه الله رحمة واسعة، وجعله في عليين. والدي الذي لم يدخن سيجارة واحدة في حياته، وكان يكره التدخين، ويحث على تركه. وغضب مرة على شخص عرض على آخر سيجارة، فقال له الآخر: انني لا أدخن هذا النوع. فقال له العارض مغوياً له: جرب هذا النوع، فقد يعجبك. فنفر فيهما والدي، رغم مركزهما الاجتماعي، وقال



للعارض: هل ما تعرضه تفاحة. إن ما تعرضه
سماً، فنجعل العارض.

تمثل لي والدي في تلك اللحظة التي بدأ فيها
الضعف يدب فيّ، أمام البرد، ودوائه السهل
المتيسر. تمثل لي، وهو ينظر إليّ بخيبة أمل، وأنا لم
أعده إلا كما يقول التعبير العامي «يشبرني
ويبوعني»، و ينتظر اليوم الذي أنهى فيه من المرحلة
الثانوية، وألتحق بالجامعة. وكان كثير المفاخرة بي
أمام زملائه وأصدقائه، إن حضرت، أو إن غبت،
وبدأ الصراع بيني وبين إبليس، هو بنفثه وسحره،
وأنا بتخيل والدي، وحبه لي، وحبى له، وسعيه إلى
ما يريحني وينفعني ويرفعني، وأنا إلى ردي جميله
باقرار عينه بابه وما يرجو له، ويود له.

وأدركني الله برحمته، وقلت له: إن الذين خلفك
في الصندوق سوف يتآذون من الدخان لأن الهواء
يلقيه إليهم، وويل لك من عمك السائق إن شكوا
إليه. فنبهته إلى ما كان غافلاً عنه، وأضعت عليه
خرمة كاذبة، ضلّله إبليس وصورها له مدفئة،

وهي في الحقيقة محرقة لصدره ، خاصة وأن الغذاء في تلك الأيام لم يكن متوازناً ، ولم تكن عناصر الغذاء الصحي متوافرة فيه .

من هذه القصة التي رواها الراوي عن تجربة مرّ بها ، تدرك كيف تستغل الظروف ، ويكون لها التأثير الذي لا يقاومه إلا شيء أقوى من الظرف هذا .

لو كان والد صاحب القصة - يا بني - مدخناً ، هل كان ابنه - يا بني - يعطيه اعتباراً في مثل هذا الموقف ؟ الله سبحانه هو الهادي . ولكن عند التدبر يظهر لك - يا بني - في ضوء القصة التي ذكرناها ، مدى مسؤولية الأب المدخن في وقوع ابنه في برائث عادة التدخين المخيفة ؛ لأن الأب في عين ابنه في منزلة عالية ، تستحق أن تقلد ، وأن تؤخذ نموذجاً يحتذىه الابن ؛ لأن الابن في سن معينة من نشأته يرى كل عمل يأتي به والده مظهراً من مظاهر الرجولة ، ولا يرى عيب والده عيباً ، وإنما يلبسه ثوباً براقاً يجعله فضيلة .



لهذا - يا بني - رمي عبء اثم ابن المدخن ، إذا
دخن ، على والده ، في الحقيقة ليس اثم التدخين
فقط ، ولكن اثم كل عيب في الوالد بإمكانه الابتعاد
عنه أو الاقلاع منه ، حتى لا يكون مجال اغراء لابنه
ولغير ابنه ممن يقتدون به ، أو يرون فيه مثالا لهم ،
خاصة إذا كان له مقام في المجتمع . والله الوافي من
الشرور .

أي بُنيّ !

ننتقل إلى مثل آخر، فنأخذ جانباً صغيراً من المزرعة، نجد أن الفلاح يخزن فيه التبن، والتبن غذاء للحيوان، وللناس فيه مآرب أخرى. منها أنه يستعمل في تلبين لبنات بناء البيوت؛ ليقوي الطين إذا خلط معه، أو يستعمل حشواً للمساند أو الفرش، أو لسرج الحيوانات خيلاً أو حميراً؛ فهو يلعب دوراً مهماً في حياة الناس حينئذ، مثل كثير من انتاج البيئة الذي يستغل في سد حاجة الناس. والنخلة في هذا تعتبر مثالية؛ لأن كثيراً من متطلبات الحياة عند الناس مصدرها النخلة؟ فليفتها حبال، وخصوصها خصف ومراوح وسفر للأكل، بل وأحذية أحياناً، وقنوانها، بعد أخذ التمر منها، حبال ومكانس، وجذعها أبواب وجسور حدائق، والعسيب بعد نزع الخوص منه يستعمل «جذامير» جمع «جذمار» يأتي وقاء للطين يوضع في البناء على سطوح المنازل، ويحرك به التنور، ويضرب به



المعلم الكسول الطالب المهمل من بعيد ، وهو جالس ،
والرمح «الجذمار» لطوله يريح المعلم من القيام
والقعود ، وهو لك وأمثالك - يا بني - لاخراج
المفارخ من أعشاشها ، وهي صغار الطير ، «حواقل»
جمع «حوقله» وهي من العصافير ما لم ينبت ريشه ،
«ومطايير» جمع «مطيّار» ، وهو ما نبت ريشه ،
وأوشك أن يطير ، ويفارق العش . ولأخراج المطيار
مع عشه بعد برمه بالرمح أو الجذمار لذة لا يعرفها
إلا من جربها من الصغار ، وأحسن أوقاتها وقت
القيولة ، ربما لأن الشياطين تنشط في ذلك الوقت ،
لأن الصغار في مأمن من متابعة أهليهم ، ومعاقبتهم
لهم ؛ لأن الأهل في نوم عميق في هذه القيلولة ، التي
قد يكون حرها «يشوي الطير في السماء» .

وقد أبعدنا قليلاً - يا بني - عن المثل وعن
الفلاح ، ولعل لوالدك في هذا هوى ، فقد غلبته
ذكريات الصبا ، فانساق معها وانساب . فنعود إلى
الفلاح فنقول إن مصدر التبن الذي نتحدث عنه
هو الفلاح الذي يزرع القمح ، فيأتي التبن من

أقصابه، ويحرص الفلاح، لخشفة التبن أن يضعه في صُفّه، أو مكان منزوٍ حتى لا تبعثره الرياح، وتطيره الأهوية، وحتى لا تفسده رطوبة المياه والأمطار. لهذا «صُفّة» التبن - على تفاهة التبن ورخصه - مهمة، ومشهورة، ومعروفة، وهي جزء من المزرعة لا يهمل ولا ينسى، وهي للصغار ملهى وملعب، وللهاوم أحياناً مخبئاً خطراً. ومع هذا فالتبن أرخص شيء في المزرعة، ولعله أرخص شيء في غيرها من متطلبات ذلك المجتمع. و«الصُفّة» لهذا ليست حصينة، وبابها في الغالب لا يغلق، وإذا أغلق لا يوضع عليه قفل، وفي الغالب لا يكون لصُفّة التبن باب بتاتا، ويكفي أن لها جدراناً وسقفاً، ولهذا عندما يقول المثل:

« ما عنده إلا مفاتيح صفة التبي^(١) »

(أو مفاتيح التبن).

فهو يعني أن الإنسان المتحدث عنه غير مهم،

(١) الجهيمان ٩٥/٧.



وليس في يده شيء، وهذا منتهى التحقير والاستهانة، أو تقليل شأن الخطر الذي ربما ظن أن بإمكان أحد أن يحدثه.

وفي جنوب المملكة لهذا المثل مرادف هو:

« ما معه إلا مفاتيح الحشا^(١) »

ومع تفاهة التبن ورخصه فقد يرفع الله من قيمته أحياناً إلى درجات تجعل الخبر عنه كالخرافة. ألا يبلغ المهر في زماننا مئات الآلاف بما يتبع المهر من حفلات وولائم؟ أما في زمن مضى فكان مهر أحد الأشخاص مدّ نوى من نوى التمر، أي لم يبلغ صاعاً ولا نصيفه. ومهر آخر كان - وهو ما يهمننا هنا - عدل من التبن. هل سمعت؟ عدل من التبن! أي فردتان مما يحمل على ظهر البعير أو الحمار، يستطيع رجل واحد حملها. هذا ما رواه هلال بن سلمان السياط أحد كبار السن في منطقة الجوف، رواه في حلقة من حلقتين في جريدة الجزيرة^(٢).

(١) الألمعي ٢١٨، (الحشا: قشور الحنطة والسفير) الألمعي ٢١.

(٢) عدد الجمعة، ٦٨٩٦، ٦ صفر ١٤١٢ هـ.



والتبن لم يوح للفلاح بهذا المثل فقط ، ولكنه
أوحى له بأمثلة أخرى أقربها ، ولعله من أصدقها
قوله :

« ماء تحت تبن »

يريد بهذا أن الأمر مختلف لا يُرى ، في حين أنه
قد وصل ، وقريب ممن يتوقع منه أن يحاذره . وهذا
يوحي بخطورة الموقف ؛ لأن الغفلة حينئذ
والاطمئنان مدعاة للهلاك .

وقد تفاجأ - يا بني - مرة أخرى ، بعد ما سمعت
عن التبن ، وكيف صار مهراً ، إذا قلت لك أن هذه
المادة التافهة «التبن» قد توضع على مكان من أعز
الاعضاء في جسم الانسان ، ومع هذا فوضعها في
هذا المكان لا يرفع من قدرها ، ولا يعطيها أهمية
أكثر مما تستحق ، ولا يعلي شأنها ، وهذا ما يؤكد
المثل الذي يقول :

« مثل التبنه على الجحام »

فالجنن إذا «جحم» أي ورم وانتفخ ، وضعوا



فوقه تبنة، ويعتقدون أنها تمتص الجحام، ومع هذا فكثير يقرون أنه لا يقوم التبن بهذه المهمة، بدليل أنهم صاغوا هذا المثل. ولم يكتفوا بهذا المثل لهذا الأمر، بل أكدوه بمثل آخر وهو قولهم:

« دواء جمعة »

أي أنه لا يفيد. ولعل جمعة هذا رجل يدعي الطب، والمعرفة به، وهو لا يعرف شيئاً، ولعل الناس أدركوا هذا عندما رأوا أن طبه لا يفيدهم. ولا أظن - يا بني - أن المقصود با «الجمعة» هنا يوم الجمعة، فيوم الجمعة مثل غيره من الأيام، ولا تأثير له على الدواء. وأرجو ألا تأخذك نوبة من نوبات الجدل، التي هي للجدل فقط فتقول: قد يكون المقصود يوم الجمعة، لأن الدواء المعطى يحتاج للراحة، والمريض لا يرتاح حسب أمر الطبيب، ولكنه يصر على صلاة الجمعة، فيجهد نفسه، ويضيع مفعول الدواء، فإن فعلت فسوف ألقأ إلى الصمت، وأهز رأسي هزة لا تدري أهى موافقة على ما قلت أو مخالفة. وهذا أسلم من الدخول في

نقاش بيزنطي . أتدري ما هو النقاش البيزنطي ؟
لعله مما يفيدك أن تعرف ، لأن هذه الكلمة تتردد على
ألسنة الناس ، وأصبحت مثل المثل ، أو هي مثل .
ولكن قليلاً من الناس يعرفها :

كانت جيوش السلطان العثماني محمد الفاتح
تحاصر بيزنطة القديمة (القسطنطينية) وكان مجمع
الأساقفة منعقداً في أجيا صوفيا حول : كم هو - على
وجه التحقيق وبآلاف - عدد الملائكة الذين
يستطيعون الوقوف على رأس دبوس واحد .
وسقطت المدينة تماماً في يد محمد الفاتح والأساقفة
مشغولون بهذا الجدل ، ومن ذلك اليوم سمي كل
جدل عقيم جدلاً بيزنطياً . ويمكنك - يا بني - أن
ترجع إلى كتاب الدكتور عبدالسلام العجيلي «جيل
الدربكه» وهو أقرب الكتب إلى ما تحب قراءته^(١) ،
لتجد هذا هناك . وأحلتك لهذا الكتاب أيضاً ، لأنه
ممتع ، وسوف تستفيد منه ، ولا تمل متابعة قراءته إلى
نهايته ، كما هي عادة كتب الدكتور عبدالسلام .



وهكذا - يا بني - أصبح أمامك أربعة أمثلة ،
تستطيع الاستفادة منها لمثل الحالات التي وردت
عنها ، وهي كما ترى تصور بيئات مختلفة . وتعطي
صوراً متعددة ، ترمي إلى إعطاء فكر يدل على تجربة
وتبصر . ولن تعدم أن ترى مدعياً يوماً من الأيام ،
تدرك في قرارة نفسك ، وأنت تراه يوحى بالاهتمام
بنفسه ، ونفخها أكثر مما تستحق ، وتعرف أن شحمه
ورم . حينئذ استرجع المثل في ذهنك ، واربط بين
صورة قديمه سجلت في كتب التراث وصورة حية
تراها أمامك تمثّل ، وصاحبها لا يدري عما يدور في
نفسك ، ولو عرف لاحتقر موقفه .

ومثل هذا الشخص - يا بني - يمثل واحدة من
العقد النفسية عند بعض الناس . فبعض الناس
يشعر بالنقص في حياته ، فيكمله بالتظاهر
والادعاء ، والمرء - إذا كان طبيعياً - يقنع بما هو
عليه ، وكل ميسر لما خلق له ، ولا يعقل أن يكون في
الانسان كل صفة حسنة في غيره ، وكل ميزة يتمتع
بها سواه ، وكل مقدرة يعرضها صاحب كل مهنة .



والمرء محدود باستعداده الطبيعي ، وما يتعلمه ،
وما يصل إليه عن طريق ملكة اكتسبها من هذه
وتلك .

والعقد النفسية كثيرة - يا بني - يكاد لا يحدها
حد ، ولا يحصيها حصر ، وسوف أقصر هنا في
اعطائك فكرة عنها على جانب واحد من جوانبها .
وهذا جانب يُرى كيف تلعب عقدة الفقر عند
الانسان الفقير عندما يكبر ويغتني .

تدبر - يا بني - أمر بعض الناس ، واستقرىء
حالهم وتصرفهم تجاه ماضيهم ، ستجد أنهم
يختلفون في الشعور تجاه هذا الماضي ، فإذا كان
بسيطاً متواضعاً ، وكان أحدهم لهذا فقيراً ، فالناس
تجاه هذا الماضي أحد رجلين ، أحدهما ينجل من
هذا الماضي ، ويحاول تفادي الحديث عنه ، أو كشف
طبيعته ، وما كان عليه ، ويحاول أن يجعله في زاوية
مظلمة من تاريخ حياته ، متفنناً في التعمية عنه ،
ومتقناً لتغطيته ، ومحاولاً تفادي سقوط أي اشعاع
عليه ، مما قد يكشف بعض جوانبه ، أو يدل عليه ؛



لأنه الآن في حالٍ يُسرّ تام، ورسم له الناس صورة الغني التي لا يريد لها أن تחדش، أو وجهها أن يشوه بكلفٍ تاريخٍ فقر كان في حياته سابقاً. وما ذاك إلا لأن ذاك الزمن ترك ندوباً في نفسه بقيت تتراءى له مكبرة مجهمة، فأحدثت عنده عقدة موثقة محكمة الربط، مسددة الاصابة، مؤلمة اللمس والذكرى. يشعر أن ذلك الماضي خزي ينقص قدره في زمنه هذا، وينزل مقامه بين الناس. وما ذلك إلا لما توحى له نفسه المريضة.

ويخالف هذا النوع رجل آخر من الناس، رجل يحلو له في ظل نعمة الله الجديدة التي أكرمه الله بها، وطرأت على حياته، أن يسهب في الحديث عما كان فيه من فقر في ماضيه، وعوز في صغره، وما عاناه من شظف عيش وادقاع، وما مرّ به من جوع وعري. ويفصّل حوادث الألم التي مرّ بها، وقاسى منها، ويصف الكرب التي طحنته حينذاك. وكيف تحملها صابراً. وبلذّة متزايدة يلج إلى الحديث عن الماضي، وينتهي منه، ويعود إليه بمتعة، وينتهي



بالمقارنة عما كان عليه ، إلى ما صار إليه ؛ واصفاً
الخير الذي ينعم به الآن ، والمتعة التي عوضه الله
إياها ، ويقص ذلك ويصفه بنعمة الحامد الشاكر
على أن الله دله على طريق الصعود ، وساعده على
ارتقائه ، وهياً له خطة النجاح ، وسهل له تطبيقها .
ولا يتردد أحياناً أن يعزو شحذ همته وصبره ومثابرته
وقدرته على التغلب على تلك الفترة وصعوبتها
ومحتتها إلى بعض الأفراد الذين كان لهم فضل على
تسهيل بعض الصعوبات في طريقه . هذا الرجل
- يا بني - نفسيته بقيت بريئة من العقد ، وصفحتها
لم تחדش ، ولم يترك ما مر بها من أحداث ومآسٍ أي
ندوب أو تشويه . نفسيته بقيت صافية سليمة ، لو
اطلعت عليها لوجدتها مثل مرآة البلّور ، ناصعة
لامعة ، ينظرون إليها فيستقون منها القوة ، وتمدهم
بما يثبتهم على هذا المنهج السليم . هي لهم نهر
عذب ، يطفئ بهائمه الزلال ظمأ الحياة إذا ما
تعرضتهم في حياتهم صحراء قاحلة .



هذا مثل واحد - يا بني - وكيفك لما قصدنا
تبيانه، عندما تتدبر أمور الحياة، وتستنطق أمثال
هذه الأمثال، وتستنبط منها دفينها.



[١١٧]

أَيُّ بُنَيَّ !

وهناك مثل من أمثلة المزارعين لا يخلو من
السخرية في التعبير، يقول :

« ما فاتك من الزرع إلا سبله^(١) » (أي سنبله)

أي أنه فاته كل شيء ، لأن محّ الزرع هو
السّنبِل ، وهو الحصلة المبتغاة من زراعته ، وهو
وعاء حب القمح ، أو الحب أيّاً كان ، فإذا فاته هذا
وضاع جوهره ، ضاع عليه كل شيء . ولم يبق بيده
شيء إذا لم يبق إلا التبن في يده ، وهو أحقر ما في
الزرع ، حتى أنه يؤتى به للمشاتمة بين المتخاصمين
المتلاحين ، فيقول أحدهما للآخر : « يا تبن » . وهذه
تكفي لقبس النار بينهما ، وإشعال حريق الله أعلم
بماذا يطفأ ، وأي خسارة تكون قد لحقت إذا
أطفئ .

(١) الجهيمان ١٠١ / ٧ .



وهذا المثل الساخر يذكرنا - يا بني - بحادثة حصلت منذ أعوام في مكة المكرمة، وهي تخص جيلاً سابقاً. وكل أفراد هذه القصة - حسب علمي - انتقلوا إلى رحمة الله تعالى. مكة - شرفها الله - كما تعرف قبل دخول الكهرباء، والوسائل الحديثة، كانت مساكنها حارة جداً في النهار وفي الليل. وفي النهار ليس للناس مناص من البقاء في بيوتهم إذا لم تضطربهم أعمالهم للخروج. أما في الليل فتجد بعض الرجال يذهب إلى المقاهي على أطراف مكة، يسمرون أول الليل، ثم ينامون على كراسيها، التي تمكنهم من ذلك، بقيّة الليل، ويهيء صاحب المقهى من الفرش ما يريحهم، ويستيقظون مبكرين في الصباح، ويعودون إلى بيوتهم، يفطرون، ثم يذهبون إلى أعمالهم.

وكان هناك عدد من موظفي وزارة المالية اعتادوا أن يخرجوا في بعض الليالي إلى العدل، تحت جبل النور، يطبخون عشاءهم، ويسمعون «جرامفونا» جلبوه معهم هو واسطواناته خفية، وأمنوا الرقيب

في هذه البرية لأنه لم يكن مسموحاً به حينئذ .
 وخرجوا في إحدى الليالي ، حسب عادتهم في ذلك .
 وكانت وسيلتهم في الوصول إلى هذا المكان البعيد
 عن العمران حينئذ سيارة «حوض» كبيرة اسمها
 «بوسنق» - ولعلها ألمانية - ، أحضرتهم وعادت .
 وكان رئيس الموظفين ، وآخرون معه ، يحضرون
 متأخرين ، ويتوقعون عندما يصلون بعد صلاة
 العشاء ، بعد أن يكونوا أكملوا أعمالهم في وزارة
 المالية ، أن يجدوا الطعام جاهزاً . وحدث أنهم في
 أحد الأيام لما وصلوا إلى العدل ، وأنزلتهم السيارة ،
 هم وما معهم من المؤونة في المكان المعتاد ، تركتهم
 وعادت إلى مكة ، لتأتي في اليوم التالي صباحاً
 لارجاعهم ، فاكتشفوا بعد مغادرتها أن هناك من
 بين المؤونة ما هو ناقص ، ولا يكمل الطبخ إلا به .

ولما جاء الرئيس ومن معه بعد العشاء بسيارة
 صغيرة سأل الرئيس الموظف الموكل إليه أمر
 العشاء ، وتهيئته ، عما إذا كان الأكل قد هُيِّئ ، وأنه
 جاهز ، فرد عليه الموظف بأنه جاهز ، ولم يبق إلا الماء



والخطب . يعني أنهم لم يفعلوا شيئاً حتى الآن ، ولن يفعلوا إلا أن تداركهم سائق السيارة الصغيرة ، وعاد إلى مكة وأحضر الماء والخطب وهو ما قد نسوه . وأصبحت كلمة هذا الموظف مثلاً يقال للشيء ينقصه أهم ما فيه . ولا أدري - يا بني - هل انتظروا حتى جاء الماء والخطب ، أو أرسلوا السيارة لتحضر لهم «شُرَيْكاً» (نوع من الخبز) وجبنة و«حلاوة طحينية» ، أو فولاً ، أو «مُطَبَّقاً» . وهو عشاء مقبول ومرحب به إلا ممن كان يتوقع لحماً وأرزاً .

لقد حلّت البركة - يا بني - في المثل الذي سقناه : «ما فاتك من الزرع إلا السَّبَلُ» . لأنه أدخلنا مكة المكرمة ، وذكّرنا بأمر يخص مكة ، وما كانت عليه في الماضي ، في بعض جوانب الحياة فيها ، وتحدثنا عن الأكل اكله ولحمه وشريكه وجبنة وفوله ومطبقه ، وما نالك منه شيء إلا السماع عنه !!

ورغم - يا بني - أن هذا المثل فيه سنابل كثيرة ، فيه اللحم والرز ، إلا أن سنبله لا يكمل إلا ببعض

العناصر المهمة للاستفادة منه . وفي الحياة أمثلة كثيرة من هذا النوع ، وعليك أن تثبت عندما تستعد لأمر تريد منه نتيجة كاملة . وتأكد أن عناصره كلها متوافرة . فإذا أردت أن تقوم برحلة ، فاكتب قائمة بما تحتاج إليه ، وما هو ضروري لا يستغنى عنه ، ولا تكتبها في لحظة القيام بالرحلة ، فهذا لا يفيدك ، لأنك لن تذكر منه كل شيء ضروري ، ولكن أضف يومياً ، أو كلما تذكرت ، ما تحتاج إليه ، واستعمالك اليومي للشيء يذكرك بما تحتاجه وقت السفر . وهذا يجعلك تتمتع بسفرك أو رحلتك . وإلا تعرضت لما تعرض له صاحب الخطب الناقص والماء المفقود^(١) .

كل أمر مهم يحتاج - يا بني - إلى أن يقيد ويكتب ، ولا يعتمد فيه على الذاكرة ، لأن الذاكرة عرضة للنسيان ، وعرضة لأن تَحُلِطَ بين الأمور ، وتُدْخِلَ بعضها مع بعض . لهذا حث الله سبحانه

(١) هناك مثل حكيم في الجنوب يقول :

«عد خطبك وماك ، ورزقك على مولاك» ، الألمعي ١٤٧ .



وتعالى في القرآن على المكاتبه في الدين ، وجعلها
الأمر الأول في قيد الدين وحفظه ، وإبعاد أسباب
الخصام بين المتعاملين .

ومن الأمور المهمة التي تصلح أن تُعطى مثلاً
الكتيب الذي يحمله الطيارون معهم عند قيادتهم
لطائراتهم ، فهذا الكتيب قائمة طويلة ، فيها جميع
الخطوات التي يحتاجها الطيار لقيادة الطائرة . يبدأ
في قراءتها خطوة خطوة ، وكلما اتخذ الخطوة وأنهاها
وضع علامة تدل على إنهاؤها ، ثم ينتقل إلى ما
يليه ، حتى يكمل جميع الخطوات بانتظام . وسبب
هذا الاهتمام بالطيارة ، لأن الخطأ فيها قاتل ، ولا
يقتل الطيار وحده ، وإنما مئات معه . وسبب آخر
هو أن بعضها يحتاج إلى الترتيب ، وسبب ثالث هو
أن الخطوات كثيرة . وهناك قائمة أخرى يراعيها
ويراجعها الطيار عند النزول لا تقل عدداً أو أهمية
عن تلك المخصصة للصعود .

وكثير من الناس - يا بني - يفوته من مشروعه كل
شيء جوهري ، ولا يبقى له إلا الغشاء ، أو لا يناله

من ركضه إلا التعب . وبعض الناس - يا بني - يمر بهذه الحياة بسنينها الطويلة ، ولا يكون له منها شيء . فاته منها سنبُلها ، وفي السنبُل الخير العميم . فحياته تعد صحراء مقفرة ، وبيداء جرداء ، وهذا لأنه لم يحرص على أن يزرع فيها البذرة الصالحة ، أو لم يهيئ التربة الخصبة أو لم يخترها . فجاء سعيه بدون نتيجة ، وجهده ضاع سدى .

لهذا نصح الحكماء باستغلال الوقت ، وبذل الجهد فيما ينفع ، وهي نصيحة من مجرب ، عرك الحياة ، وسبر غورها ، وعرف داخلها وخارجها . وألم بمجرى الأمور ، وما يأتي منها بالفائدة ، ويدفع الضرر ، وما يضيع الوقت والجهد . والنصيحة ثقيلة - يا بني - لأنها تطالب بالسير خلاف ما تأمر به النفس الأماراة بالسوء ، فهي - أي النصيحة - تأتي خلافاً للرجبة ، ولهذا تجد أمامها مقاومة . والناصح مع هذا يكرر ويلح ، ويكفيه أن يُقبل جزء من نصحه .



أَيُّ بُنَيَّ !

« ما العمر بقتّه يحصد ويبرض ^(١) »

صدق القائل ، وأحسن في هذا التعبير ، لقد أصاب كبد الحقيقة . حتى القلط التي يقال عنها أن لها سبعة أرواح ، يثبت لنا بعد أن كبرنا وتنورنا ، أنه ليس لها إلا روح واحدة ، وإذا خرجت هذه الروح ماتت . فهي أيضاً ليست مثل القتّة تحصد وتبرض .

والقت أو البرسيم - كما قال المثل - نبات يحصد ويبرض ، أي يعود للنمو من جديد ؛ ليحصد مرات ومرات ، وكلما حصد زاد قوة في نموه مرة أخرى . فهو خير مثل لما ضرب له . والفلاح لم يذهب بعيداً في العثور على هذا المثل ، فهو في بيئته بجميع جوانبه ، وتحت أنفه وسمعه وبصره ، يزاول حصده ، ويرى ابراضه ، ويتابع نموه يوماً بعد يوم ، ويحمد الله على ما يصير إليه من قوة ، فيه نفسه ، وفي

(١) الجهيمان ٩٤ / ٧ .



الأرض التي يزرع فيها؛ فمعروف عند الفلاح أن الأرض الضعيفة إذا زرعت قتاً (برسيماً) قويت، وصارت صالحة لأن يزرع فيها من المزروعات ما يحتاج إلى أرض خصبة قوية.

والمثل يدعو إلى عدم المجازفة؛ لأن المجازفة قد تقضي على ما هو غال، ولا يمكن إعادته، فإذا ذهب ذهب ولن يعود.

وهذا المثل من الأمثلة التي قيلت في الماضي وستبقى؛ لأن أمر القت لم يتغير، فهو عند المحدثين مثل ما كان عند القدماء؛ يحصدونه ويؤملون أن يبرض عدة مرات، بل أن عدد المرات عندهم ستكون أكثر من المرات التي أبرض فيها القت في أيام أجدادهم؛ لوسائلهم الحديثة من سماد وري؛ فالسماد كيمياوي، يحميهم من الطفيليات النباتية، والسقي محوري، أو رش، ينزل الماء بمقدار، حتى يضمن أن يكون موزعاً توزيعاً متساوياً، وأن يكون بارداً، ويرش معه مبيدات تحمي من الأمراض مثل «الدّباس»، وهو داء يفتك بالقت وأمثاله. وهو



مرض يرعب الفلاح ، ويؤذي اقتصاده ، وقد يركبه
الدين الفادح .

وفي هذا الزمن ، مع تقدم العلم الزراعي ،
استفاد الفلاح فائدة جديدة أدخلها على حقل
البرسيم ، لا تكاد تكلفه مؤونة . لقد أدخل تربية
النحل في مزرعته ، وزهرة البرسيم محبة للنحل في
وقت قد لا تجد مثلها في وفرتها في بعض مواسم
الزراعة ، وامتداد حقلها . ولها جاذبية تساعد على
تربية النحل على زهرتها الزرقاء الجميلة . وهي
زهرة تذكر أصحاب الرحلات الصحراوية بزهرة
الخزامى إذا انتشرت في روضة من الرياض
الواسعة ، وعبقت رائحتها الزكية الفواحة .

والاقبال - اليوم - على زراعة القث فاق ما كان
عليه في الماضي ؛ لتطور أنواعه ، ووسائل زراعته
وسقيه ، وحمايته من الآفات ، ولسهولة حصده ،
وتليينه وتجفيفه ، ويسر خزنه ونقله ، حتى أصبح من
الأموار التي تساعد على تربية الحيوانات ، الخراف
والأبقار ، التي أصبح لها مكان بارز في المزرعة

الحديثه، لوعي الناس تجاه الحليب ومشتقاته،
نتيجة الوعي الغذائي، ومراعاة أخذ العناصر
الأساسية، لبناء الجسم بناء صحياً، على أسس
علمية.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى المثل - يا بني - نجد
أهمية مدلوله في كل مجتمع. فإذا كان الفلاح عبر عنه
بالمثل الذي أثبتنا، فهناك مثل عام قد يكون قائله
أخذه من أي زاوية من زوايا المجتمع والمثل يقول:

« الواحد ما يموت إلا مرة »

وبعض الشعوب العربية تقول :

« ما العمر بعزقه »

أي لا يفرط فيه، وينثر كما ينثر الدقيق في مهب
الريح، أو في مجرى النهر.

نعم - يا بني - العمر ثمين، ولهذا لجسم الانسان
حقوق يجب أن تراعى في تغذيته الغذاء الصحي
الموزون، وراحته الراحة المطلوبة، وإتاحة
الفرصة له للتعليم، وابعاده عن مجالات الخطر التي



لا داعي للتعرض لها، فهي لا تأتي بفائدة، ولا تساهم في دفع ضرر. والعمر يجب ألا ينفق إلا فيما له مردود حسن، يحاسب المرء نفسه في نهاية اليوم: ما هي الحصيلة؟ وفي نهاية الأسبوع: ماذا أنجز صاحبه فيه؟ وفي نهاية الشهر: ما محصول الشهر: وفي نهاية السنة: ما المكسب من هذه السنة؟ فإن كان المكسب كبيراً وإلا حاسب نفسه، واستدرك ما فات. فالعمر لا يعاش مرتين، وهذا يعلم الحرص والدقة فيما يقدم عليه الانسان من عمل، فليس كل أمر يمكن استرداد ما راح منه، أو اصلاح ما فسد. فتدارك الأمر بعد فوات الأوان صعب، وليس كل أمر يقدم عليه الانسان، ويرى بدء الخلل فيه، يمكن تدارك الأمر فيه، فقد يكون خط الرجعة - كما يقولون - قد قطع.

ولهذا أصبح من المسلم به في العصر الحديث أن يكون هناك تخطيط يسبق كل عمل: يوضع برنامج، يرتب الخطوات، ويغطي الجوانب، وينظم الاولويات، ويبين الأسس والفروع، وما

يجب أن يبدأ به ، وما يمكن أن يؤخر ، ويوزن كل هذا مع الوقت ، وينسب مع التكلفة ، سواء كانت مادية أو معنوية ؛ لأن هذا الزمن زمن سباقٍ الغالب فيه الأصلح ، والأصلح هو المنظم المدروس ؛ ولأن هذا الزمن زمن منافسة حادة إن لم يكن الأمر مُستَعَدًّا له ، والمرء محتاطا لمفاجآته ، فإن القطار يفوت ، وقد تدوس الاقدام من لا يوقفه عقله وجهده على قدميه وسط الحشد الهائل من المنافسين . هذا المثل يؤكد أن أول فرصة قد لا تسمح بفرصة ثانية .

أَيُّ بُنَيَّ !

هناك مثل قد يكون في نطقه ما يؤرِّخ للفترة التي
 قيل فيها، والمثل يقول :

« ماء خورشيد يعلو^(١) »

وخورشيد هو قائد من قواد محمد علي باشا، غزا
 نجدا، وسيطر عليها. ولأن الأتراك الذين حكموا
 البلاد العربية كانوا يفرضون الأمور فرضاً لا
 يراعون فيها مصلحة المنطقة التي يحكمونها، ويتبع
 هذا أنهم إذا أمروا أمراً لا يراجعون فيه. وإذا تجرأ
 متجرىء فراجعهم فيما فعلوا أو قالوا، أصروا
 وعاندوا، فأصبح بهذا لهم سمعة متناهية في العناد.
 ويقال إن خورشيد أمر أن يجري الماء في مكان ما
 ليصعد من أسفل إلى أعلى، مخالفاً بذلك السير
 الطبيعي للماء والسوائل عموماً، ومخالفاً نظرية
 الأنابيب المستطرقة، فلما روجع في هذا لم يتقهقر أو

(١) الجهيمان ٧/ ٩. راجع المثل الآتي: (٢٠) «عزة ولو طارت».

يتراجع ، أو يستمع للمنطق ، وإنما ركب رأسه ،
وعاد وأصر ، وقال ، أو قيل وصفاً لموقفه : «إن ماء
خرشد يعلو» . وليتنا ندري ماذا حدث عندما لم
يستطع ماء خرشد أن يعلو!! ربما أنه سجنه كما فعل
مواطنه القائد الذي سجن القدر ، ووضع عليها
السلاسل والاغلال ؛ لأنها لم تغل وتنجز الأكل في
وقته ، ولا أدري لماذا انصب الغضب على القدر ،
وليس على النار أو الحطب . هذا إذا صح أن هذا
الأمر قد حدث ، فقد يكون رُكِبَ ليصور صورة
رمزية لتصرف الحاكم التركي^(١) . وهناك مواطن
لخورشيد تصرف تصرفاً يسير على العقلية نفسها .
يقال أن أحدهم كان يحمل لحماً في زنبيل فوق
رأسه ، فأبصرته حدأة ، فانقضت ، واختطفت
اللحمة ، فأغضبه ذلك ، فلما دخل بيته أخذ مكنسة
لها يد طويلة ، وأخذ يضرب الدجاج ويطارده ، ولما

(١) القدر في التاريخ تعرضت لحبس آخر كما يقول الفرزدق :

(معجم الأدباء ، ٩ / ١٥٩) .

لو أن قِدرًا بكت من طول ما حُبست

عن الحقوق بكت قدر ابن عمار



سألته زوجته عن أسباب ذلك ، أخبرها بأن الحدأة
اختطفت اللحمه ، ولما سألته ما ذنب الدجاج قال :
كله طير!!

هذه أمور تدور على أفواه الناس ، وأصبحت من
التراث ، وقد لا تكون صحيحة ، خاصة وأنها
تدخل تحت التعميم عن أمة من الأمم ، والتعميم
مزلة للخطأ ، ومجلبة للعثور ، وقد يكون أوحى بهذا
حكم الأتراك على الأمم التي أدخلوها تحت طاعتهم
عنوة ، ولم تجد منهم الرعاية الكافية على كل حال :

قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا
«فما اعتذارك من قول إذا قила»

[٦٠]

والعناد سمة لازمة لبعض الناس ، ومهما جئت بالدليل على خلاف ما يرى المعاند فإنه لا يفيد ، ويبقى الأمر عند المعاند كما هو . وأحياناً يكون الدليل واضحاً ، والحجة بيّنة قوية وهي معك وبجانبك ، ولكن قوة العناد المسيطر عليه ، وشدة المكابرة عنده ، تكون أقوى ، فتأخذه العزّة بالاثم ، ولا يرى أن يتراجع ، ويرى أنه ليس من مصلحته أن يبدو ضعيفاً ، مع أن الاعتراف بالخطأ فضيلة ، والاقرار بالحق ، ولو على النفس ، شجاعة ، وتُعطي الانسان قوة ، لأنه يشعر أنه تغلب على نفسه ، وهي من أكبر أعدائه ، وقد استطاع أن يثنيها عما قد تسول له به من المكابرة والمغالطة ، وللعناد صورة أخرى يرسمها المثل الآتي :

« عنزة ولو طارت »^(١)

فيرسم صورة لأحدى درجات العناد المرتفعة في الحدة ، الموغلة في العمق . ويكشف عما قد يكون

(١) السباعي ٥٧ .



خلفه من قصة لا بد أنها حدثت في الماضي بين اثنين على الأقل، ولا بد أن ما كانت المجادلة حوله هو طائر؛ يقول المحق: إنه طائر، لأنه يرى ريشه وجناحيه ومنقاره، ويقول المكابر: إنه عنز، حتى لو كانت العنز تحتاج إلى صوف، وأربع قوائم، وقرنين وذيل، وثدي، ولم يُعرف أبداً أن لها ريشاً وجناحين ومنقاراً. ورغم أن الطائر قد طار، وهو ما يقطع حجة المكابر الذي قد لا يكون تبين سمات الطائر، لضعف بصره، أو بعد الطائر واختفائه عن نظره، إلا أن المكابر باصرار يقول ولو طار فإنه عنز.

ألا يستحق هذا المكابر أن ينطح مثل ما فعل القاضي النطاح مع الخصم المكابر. على كل حال يبدو أن طبيعة العنز مرسومة في ذهن المكابر وقلبه فلا يرى صفة إلا صفتها.

والمثل دقيق في وصف العنيد، وهو بعناصره كلها مأخوذ من البيئة، لأن العنز عنصر مهم في حياة الناس، ومعيشتهم في وقت مضى، فهي التي تسعفهم بالحليب، لهم ولأطفالهم، فلا عجب أن



يجعلوا منها مثلاً يسير مع الأجيال . ولهم فيها مثل
طريف يقول :

« من بغى لبن فيربط عنز^(١) »

والعنز أقرب لتناول عامة الناس من البقرة التي
لا يقدر عليها إلا غني ، وفي بيته أو بستانه متسع
لها . والشرط في المثل واضح ، وهؤلاء الناس في
أمثالهم يحبون - كما يبدو - صيغة الشرط ، فيقولون
مثلاً :

« من غاب عن عنزه جابت تيس^(٢) »

والمثل هذا قد لا يبدو منطقياً ، فوجود الشخص
أو غيابه لا يغير ما خلق الله في بطن العنز طوال فترة
الحمل . ولكن يبدو أن المقصود أن غياب الشخص
عن حضور ولادة عنزه يجعل غيره يبدل به العنز ، في
ولادتها ، فإن كان ما ولدته أنثى : « صخلة » أو
« عناقا » وضع مكانها تيساً ، والتيس أرخص .

(١) الجهميان ٨ / ١٢٣ .

(٢) هناك مثل في جنوب المملكة يماثل هذا : « من غاب عن شاته
أهبت عتود » ، الألمعي ٢١٦ . « من غاب غاب قسمه » ،
الألمعي ٢١٦ .



ونعود - يا بني - إلى العناد، وهي خصلة مذمومة، وعمل غير مقبول، وآباؤنا كانوا يشنّون صاحبه، ولا يلامون، لأنه خصلة تمثل احتجاب العقل، ونقص الشجاعة، والاستهانة بالآخرين. وتدخل صاحبها منطقة التحدي الأعمى. والانسان كرمه الله بالعقل، ومادام الأمر كذلك، فعلى الانسان أن يفسح المجال للعقل ليؤدّي دوره، ويقوم بما هو مطلوب منه، وما هو متوقع منه، وهو مصدر النور للأفكار. والعقل يوجب الأخذ والردّ بمنطق عند الجدل. ويوجب على أحد الطرفين أن يكون صادقاً مع نفسه فيما يقول، قبل أن يكون صادقاً مع الآخرين، ولا يقول إلا ما يعتقد أنه حق، وعلى الطرف الآخر أن يتمعن فيما قيل بتجرّد، وبحثٍ مخلص، عن الحقيقة فيما قيل، فإن وجد حقاً قبله، وإن شك بين سبب شكه، وإن لم يقبل فعليه أن يشرح الداعي لعدم قبوله. وهكذا يروح الرأي ويحيى في جو صاف، وبنية حسنة، حتى يستقر الأمر بين الطرفين، والحكمة ضالة المؤمن أين وجدها التقطها.



هذا لمن أراد أن يكون في زمرة العقلاء
المنصفين، وأراد أن يبرهن أن داخله خال من
نقائص الخلق، ولا يشوبه عُقد، عن طريق
المهاكة الكاذبة، والجدل العقيم، يريد منها أن
تغطي نقصه أو ضعفه؛ لأنه بهذا يكشف عن عيوب
أخرى، أحدها الجبن، والانسحاب عن مواجهة
الحقيقة، لأن مواجهتها مظهر من مظاهر الشجاعة
والإقدام، فالشجاعة ليست فقط في ميدان القتال،
على ظهر دبابة، أو على متن بارجة، أو تحليقاً في
طائرة، والعناد عدو التقدم والتطور، لأنه ضدّ
الحقيقة، والبحث عنها، وهي اللبنة الأولى في رقي
الإنسان وتقدمه. والدين والعرف يحاربان العناد،
ويقفان منه موقفاً صلباً، والقرآن الكريم يعلم
احترام العقل، وقول الصدق، والبعد عن العناد
والمكابرة. وشرح في كثير من القصص التي ذكرها
عن الأمم الماضية ما انتهى إليه أمر المعاندين
والمكابرين. ومدح الذين يستمعون القول فيتبعون
أحسنه، وما أحسنه إلا نتاج العقل السليم المنار
بنور من الله.



والعناد له جذور في الانسان يشهد المرء قوتها في
الطفل الصغير، وما يحتاجه من مجهود في تربيته
ليقلع عن العناد، ويتخلّى عنه، ويتعود على
خلافه. والوالدان والمربون يتفاوتون في المقدرة
والنجاح في الوصول إلى الدرجة المرضية مع
أولادهم في هذا المجال.

أي بُني !

هناك مثل آخر من الأمثلة التي جاءت بصيغة الشرط، المثل الآتي :

« من بغى جريو فيطخ^(١) »

لا تعجل - يا بني - فتظن أن « جريو » تصغير جرو وهو صغير الكلب أو الذئب أو الأسد أو الثعلب أو غيره من السباع . صحيح أن المعنى الأصلي أو الأساسي للكلمة هو ذلك ، ولكنه في هذا المثل مختلف المعنى ، وإن كان هناك صلة يمكن أن تتلمس بين الجريو الذي في المثل ، والجريو عند ولادته في أي من السباع التي ذكرناها ، فللتشابه في الحجم والشكل .

والجريو في المثل ، هو الخربز الصغير ، ومعنى المثل هو أن من أراد أن يأكل خربزا فعليه أن يزرعه ، ولا يرجو أن يتوقع من الناس أن يعطوه مما

(١) الجهمان ٨ / ١٢١ .



تعبوا عليه . وفي هذا المثل رائحة من المثل الذي يقول :

ما حك جلدك مثل ظفرك

فتولّ أنت جميع أمرك

وهذا المثل جاء من بيئة الفلاح الزراعية ، وقد أتينا على بعض الأمثلة المستقاة منها . والخربز فاكهة صيفية ، وكانت في زمن آبائنا من الفواكه المتيسرة ، التي لا يعسر على أي أحد أن يتحصل عليها ، وان لم تكن من الغذاء الرئيسي عندهم . ولكن لأن بعض الناس يستطيع أن يجمع شيئاً من النوى يقايض به بعضها أمكن لهؤلاء الفقراء أن يتطلعوا إلى شيء من الفاكهة . ولكنها تعتبر غذاء كمالياً إذا ما قيس بالقمح ، الذي لا يُستغنى عنه ، ولهذا يقبل الناس على زراعته ، لعلمهم أن له طلباً ملحاً ، وأن زارعه سوف يبيعه ، ولن يكسد عنده . لهذا جاء المثل عن الجرو ولم يأت عن القمح ، لأن زبائن الجرو قليلون ، فزراعته بكميات كثيرة تعرضه للكساد . ولهذا إن كان هناك من لا يستغنى عنه ، فعليه أن يقوم هو نفسه بزرع ما يحتاج منه .

وهو مثل يضرب، ويعطي صورة للاعتماد على النفس، لقضاء الحاجات، وتلبية الرغبات، وعدم الاعتماد على الآخرين ممن لا يهمهم إلا مصلحتهم. وهو درس في هذه الحياة مفيد، إن لم تعرفه اليوم - يا بني - فستعرفه غداً. البحث عن الرزق، وتأمين وسائله، والسعي للعيش المريح، أمور تجعل الانسان يعذر الآخرين إذا لم يفكروا في المقام الأول إلا في أنفسهم. وفي هذا بقاء النوع البشري، إلا ما أوجبه الدين في التعاضد والتكاتف والتكافل، مما يميز الانسان عن فصيلة الحيوان الأخرس.

لو اعتمد كل انسان على الآخر لضاعت الحقوق، ولتوانى الناس لأن الدافع القوي قد اختفى، أما إذا اعتمد المرء على الله ثم على نفسه، ورأى ما فيه مصلحته دينا ودنيا، وساعد الآخرين على ذلك فيما يعود على المجتمع بالصالح؛ فإن المجتمع ينجح، لأن الفرد ليس منقطعاً في مجتمعه، ولا بد له من التعاضد والتكاتف مع الآخرين. والأمر يحتاج إلى



وزن دقيق؛ لا يهمل الانسان مصلحته، بل
يرعاها، ويعطيها النظرة اللازمة، ولكنه لا يكون
أنانياً بحيث يطغى هذا على ما للآخرين من حقوق
في المجتمع، أوجبه الأديان، وحث عليه العادات
الكريمة، والأخلاق الحسنة.

أَيُّ بُنَيَّ !

من الأمثلة المصاغة بصيغة الشرط قولهم :

« من جاور الحداد يصبر على ناره ^(١) »

الحداد معروف عنه أنه يحتاج إلى نار متقدة، تقلب الحديد إلى جمر أحمر، ولا شيء أكثر حرّاً من ذلك، لهذا فكّر الحداد النافخ، وناره المستعرة، تحتاج ممن يكون قريباً منها إلى صبر، ولهذا فمن احتاج أن يكون قريباً، أو اختار أن يجاورها، فعليه أن يتحمّل معاناة صليّ النار وحموها. وإذا كان هذا في الشتاء قد يكون محتملاً، أو مرغوباً فيه، فإن هذا في الصيف يكون عقاباً ما بعده عقاب، وإذا كان الحداد يضطره رزقه أن يتحمّل مشقة مهنته، فغيره قد لا يكون كذلك. وليس صهر النار هو الأذى الوحيد، ولكن هناك الشرر الذي يتطاير، فيحرق

(١) الجهمان ٨ / ١٤٠. وهناك صيغة أخرى لهذا المثل : « من

جاور الحداد ينحرق بناره»، السباعي : ٨٦. وصيغة ثالثة :

«اللي يجاور الحداد ينكوي بناره». دياب ٥٧.



الملابس، والجلود، وهناك الرائحة الكريهة التي تحيط بالمكان.

وهناك مثل يجري على نسق هذا المثل :

« من قرب حول النار طاله شرارها^(١) »

وهذا مثل يشبه السابق إلا أنه خفف الأمر، وجعله عاماً، فلم يحدده بنار معينة كما فعل في المثل السابق. ولكنه مثل يحذر من يقرب النار، ويبين له طبيعتها، وما يتوقع منها، ويجعل هذا شرطاً يبرىء الذمة. فعلى كل من يقترب من النار أن لا يشكو إذا ناله أذاها. وكأن المثل يقول: «لقد أعذر من أنذر» وهو مثل أيضاً.

هذه الأمثال ترمي إلى ما يرمى إليه عدد من الأمثال بالفصحى، ومؤداها أن على الإنسان أن يتعد عما يؤذيه، وإن من أسباب الأذى التهاون من المحذور، والقرب منه أكثر مما ينبغي، ومن حام حول الحمى أوشك أن يرتع فيه. فعلى من يريد السلامة أن يجعل بينه وبين الخطر منطقة سلامة، تريح جسمه وباله.

(١) الجهميان ٨/ ٢١٣.

أَيُّ بُنَيَّ !

ومن الأمثال التي تنطوي على شرط المثل الآتي :

« من رَحَّبَ غَدَى ^(١) »

أي من رَحَّبَ بالضيوف ، واستقبلهم عند مدخل البلدة أو القرية ، أو في أي مكان آخر ، فهذه علامة أنه سيفتح لهم بابه ، ويوسع لهم في بيته . وهذا يعني أنه سوف يتمسك بهم وبضيافتهم عنده للغداء إن كانت الوجبة الآتية غداءً ، أو للعشاء إن كانت الوجبة الآتية عشاءً . وهذا أمر معروف بين الناس ، ويتوقع من المرحَّب ، ويتوقع المرحَّب أيضاً أن يكرمه الضيوف بالقبول . وهذه عادة أهل الجزيرة بادية وحاضرة .

والضيافة في كل منطقة تأخذ شخصية المنطقة ، وتختلف كل منطقة في هذا عن الأخرى ، سواء كان ذلك في خطوات الضيافة ، أو ما يلزم لها ، أو ما

(١) الألمي ٢٤٥ .



يصاحبها، أو ما يقدم فيها، أو في مدتها. وعلى الضيف أن يعرف «سلو» أهل المنطقة وعاداتهم حتى لا يقع في إحراج معهم، أو يقعون هم معه في إحراج. على أن هذه الأمور - يا بني - بدأت تختفي تدريجياً وحلت محلها عادة موحدة، وقل الاقبال على الضيافات بشكلها الذي كان قائماً، لانتشار الفنادق، وتفضيل الضيوف سكنائها، منعاً للازعاج، أو الاحراج. فإذا سكنت عند قريب، أخذ القريب الآخر «على خاطره»، وشعر ببعض الغضاظة على أنك لم تختره، وإن اخترت الآخر لم ترض الأول، وهكذا أنت ملوم ومعاتب من أحدهما، وموقفك مثل موقف القاضي، لا بد أن يغضب منه أحد الخصمين، أو على الأقل لا يرضى عنه، إلا إذا كان الحكم صلحاً. وأنت أيضاً - يا بني - تستطيع أن تجعل ضيافتك صلحاً، بأن تقيم عند هذا يوماً، وعند الآخر يوماً.

ولا يزال - يا بني - هناك عادات غير حميدة عند بعض الناس في بعض المناطق، ولا يزال أناس

يتمسكون بها، ولكن الزمن سوف يتعدها
ويتركهم. ما رأيك - يا بني - في ضيف يأتي من قرى
إحدى المناطق إلى مكة، فيدعوه آخر من قريته، ممن
سكن مكة، فلما جُهِزَ الأكل، ومُدَّت المائدة، ودعاه
إليها، ولم ير خروفاً كاملاً، سأل عن رأس
الخروف، فقيل له: إنه لم يُذبح خروف، وإنما أُتي
بلحم مُنتقى، يصلح لكل لون من ألوان الطعام،
غضب وقال: إن هذا ليس قدرى، وامتنع عن
الأكل وخرج، علماً بأنه شخص واحد، ولكنها
العنجهية الجوفاء. وأردف وهو خارج من البيت،
موجّهاً الكلام إلى صاحب البيت: عندما تأتينا في
بلادنا (يقصد قريته) أقل ما سوف نقدمه لك
ذبيحة. فرد ذلك بإباء: لن آتيك جائعاً إلى هذا
الحد، بل لا آتيك أبداً. وحسناً فعل، فهذا
وأمثاله، تركهم الزمن خلفه، وإذا لم يتعدوا عن
طريقه داسهم بخفٍ ومنسم.

وهذا مثل واحد - يا بني - سقته إليك، والأمثال
من هذا النوع كثيرة، ويتداول الناس منها ما هو



مسّل وطريف، ويتناقلونه بينهم، أحياناً يصرحون باسم الشخص، وأحياناً يتأدّبون ويلمزون. فما عليك إلا أن «تطرح» البال، وتفتح أذنك، وتستمع.

والمثل - كما ترى - يضرب - يابني - لأمرين متلازمين، وجود أولهما يتطلب وجود الثاني، فالترحيب هو شبه تعهد يتبعه وفاء، وما دام بذل الأول بكرم، فلا بد أن يتبعه الثاني بسخاء، فالترحيب يستوجب العشاء.

ولا يقف الأمر في المثل عند الترحيب والغداء أو العشاء، ولكن المثل ينطبق على كل شيء في الحياة فيه تلازم بين جزء وجزء، يكون الجزء الأول شرطاً للثاني، أو تعهداً له أو ضماناً أو وعداً. فمن وقع عقداً وجب عليه الوفاء به، ومن وعد بأن يزوج أحداً بنته فعليه الوفاء به، والطبيب الذي أجرى العملية عليه متابعة علاجها، والطالب الذي بدأ الدراسة عليه أن يستمرّ فيها حتى يتمّها. والمتعهد لعمل بالشهر أو السنة عليه أن يكملّ المدة التي التزم



بها وبدأها . وشركة الخطوط التي حجزت لك مراكباً
على إحدى طياراتها ملزمة أن توصلك إلى الجهة التي
تقصدتها ، حتى لو اضطرت أن تستأجر لك على غير
طائراتها . والذي وقع معك عقد بيت تسكنه لمدة
سنة مطلوب منه أن لا يقلقك بالخروج منه إلا في
ضوء العقد وشروطه .



[٦٤]

أَيُّ بُنَيَّ !

الأمثلة المشروطة كثيرة، ولعل في هذا الأسلوب جاذبية لصائغي الأمثال، ومن الأمثلة المشروطة المثل الآتي :

« إذا طلعت الجبل فتهقا » أي تمهل^(١)

وهذا مثل - كما ترى - ثمين ، لأنه يخص سلامة الأبدان ، وهي ما هي مما يهم الانسان ، لأن على سلامة البدن يتوقف نشاط الانسان وتحصيله . والحياة تتسع وتضيق ، وتبتسم وتتجهم وتعبس ، في ضوء ما عليه البدن من صحة وسلامة . وفي المثل حكمة بالغة ترمي بتوجيهها إلى اتقاء الحوادث في بيئة يتوقع فيها سهولة وقوع الحوادث ، لما في طبيعتها من قبول لذلك ، واستعداد . فساكنوا الجبال ، والمحيطون بها ، يعرفون الأخطار التي تكمن في تسلق الجبال ، والهبوط منها ، وفي المثل ما يوحي

(١) الألمعي ٢٨ .



بأنك كلما زدت في الصعود استوجب الأمر منك
زيادة الحذر، والتمهل أكثر من ذي قبل، عندما
كنت في السهل. وهو مثل قيم، وصادق ينفع من
اتبعه، وعمل به في هذه الحياة. وقس على هذا إذا
أقدمت على أمر جلل، فاحسب خطوك، وقدّر وقع
سيرك، وكما قال الشاعر:

قدر لرجلك قبل الخطو موقعها

ولكل مجتمع، وفي كل بيئة أخطار، لا يعرفها
من عاش في بيئة طبيعتها تختلف؛ فالسكنى في أرض
تكثر فيها الجبال، مخاطرها في صعود الجبال، وتوقع
السقوط أو الزلل. ومن أخطارها السكنى أو المقام
في مجرى المياه التي تنزل بقوة من الجبال فتجرف ما
أمامها. وقد تكون الجبال مأوى للسباع، سباع
الحيوانات وسباع البشر من المجرمين من القتلة
وقطاع الطرق. وأخطار السكنى على سواحل
البحار، أو شطآن الأنهار قد يكون من بين أخطارها
العامة المد والجزر والفيضانات والعواصف ومنها
التعرض للغرق، والتلوث الذي قد يكون متوطنا في



الشواطىء، وما تأتي به مخاضات المياه من بعوض،
وبلهارسيا، وأمراض أخرى. والمحيط الصحراوي
من أبرز الأخطار فيه - بجانب الأمور الطبيعية -
التعرض للجفاف وللعطش. هذه أمثلة محدودة
تُري ما قد يكون في كل مجتمع مما على المرء أن يحذره
في ضوء ما خزنه المجربون من كبار السن.

والتمهّل عند الصعود على الجبل، وعند النزول
منه، مطلوب، لأن الخطر في مخالفة ذلك واحد، بل
قد يكون التمهّل في النزول والانحدار منه مطلوباً
أكثر من الصعود. وما عليك - يا بني - إلا أن تنظر
إلى الذين يتسلقون الجبال، سواء المغطاة بالثلوج،
أو الجرداء الخالية من ذلك. تجد أنهم في النزول
يقللون من سرعتهم، ويزيدون من الحذر،
ويتثبتون من حبال النزول، والمعدات الأخرى.

ولا بد أنك - يا بني - في يوم من الأيام تابعت
رحلات التسلق العالمية التي يقوم بها أناس لقهر قمة
ايفرست في الهملايا أو قمم جبال الألب. ورأيت
ما يقدمون عليه من مخاطر، وتعرض للمهالك،

وما ذلك إلا ليملؤا أنفسهم بثقة يخزنونها من جراء قيامهم بما لم يقيم به غيرهم ، أو لِيَبْزَوْهم في الوقت ، وفي قصره . وقد تعجب من تعريض أنفسهم لمثل هذه المخاطر ، ولكنها الهوايات لدى بعض الأشخاص مما قد لا يفهمه الآخرون . وأمر هؤلاء مثل أمر الذين يجازفون بحياتهم في بعض المسابقات مثل مسابقات السيارات أو الدراجات أو غيرهما .

أي بُنيّ !

ونزידك من الأمثلة المشروطة ، ولعلك في يوم من الأيام تدرس ظاهرة حب الناس لصياغة الأمثلة بصيغة الشرط هذه ، لأنها ملفتة للنظر ، ولا بد أن وراءها سرّ جاذبية ، لعلك تكون أول مكتشف له . والمثل الآتي مثل صادق في معناه ، مصوّر لما يرمي إليه ، وله أبعاد سوف ترى بعضها . وهو يكشف عن جانب من جوانب عادات القوم ، وتقاليدهم ، ويوضح ركناً من أركان حياتهم الاجتماعية . وحرصهم على مظاهر الرجولة والأدب ، والتأكد من تمسك الناس بها ، والمحافظة عليها ، ومطالبة النشء بها ، حتى يألفوها ، وتكون لازمة لهم عندما يكبرون . وهم ، وإن لم يصرحوا أنها للنشء ، إلا أن ما تعرفه عنهم يدلّك على أنهم المقصودون أولاً ، ثم من هم أكبر منهم ممن قد يتزعزع فيهم هذا الجانب المهم ، يقول المثل :

« من خلى ربه فهو من خبت طبعه ^(١) »

(١) الجهيمان ٨ / ١٥٩ .



أي من ترك قومه وجماعته دَلَّ هذا على سوء طبعه، ويتبع هذا فساد الخلق، وعدم قابليته للتربية والتهذيب والتوجيه. أو الاستماع للآخرين في توجيههم وتعليمهم. وعمله هذا يدل على اختلال الميزان عنده في اختيار الأصحاب والجلساء. والناس في تلك المجتمعات ينظرون نظرة جليّ إلى أواصر القرابة والرحم، ولا يفرطون فيهما، ولا يتهاونون مع من يهملهما أو يتهاون فيهما. ومن يفعل ذلك يكون عرضة للانتقاد واللوم، وربما يجد نفسه منبوذاً، ونبذ المجتمع في ذلك الزمن يعتبر أمراً عظيماً.

والمثل هذا - يا بني - يعطي فكرة عن مجتمعاتنا العربية، وكيف أن الفرد لا يأمن إلا إذا كان له من قرابته ما يحميه، ويشدّ عضده، ليس أمام جيش جحفل يهاجمه، أو عدو فاتك يريد أن ينقضّ عليه، ولكن من مصائب الزمان ونكباته، وما قد يُجْلِه بهاله أو نفسه أو أهله. فإذا ما حزبه أمر وجد أهله وأقرباءه حوله، يواسونه، ويشدون أزره بما



يستطيعونه، وقد يقضون على العسرة، أو يخففون من غلوائها.

وقد لا تكفي الصداقة هنا - يا بني - ولا يشفي الغليل إلا القريب، وكلما زادت درجة القرابة، زادت العاطفة جيشانا، وكان الحنو أكثر، والدّم يحنّ إلى الدّم. وكما يقول المثل العامي :

« الدم ليس ماء »

ففيه عواطف لا يعلم مداها إلا الله . النخوة عند القريب يتوقع أن تكون في أوجها، والحمية في منتهائها، و « الظفر - كما يقول المثل - ما يطلع من اللحم »^(١) ! وهناك مثل يقول :

« أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب »

وهذا كاف ليريك مدى عمق نظرهم لهذا الأمر.

(١) «الضفر ما يخرج من اللحم» السباعي : ٤٩ .

والحقيقة - يا بني - أنهم محقون في المحافظة على هذه الآصرة، لأننا رأينا الغربيين عندما أفلت زمام هذا الأمر من أيديهم، وقلّدوا الطيور والحيوانات في اعتزال من نبت ريشه وطار، ومعاداته، ضاع أمر العائلة عندهم. وضعفت الصلة، حتى صارت صلة الابن أو البنت بأبهما وأبيهما لا تعدو تهنة يحملها البريد في عيد الميلاد أو رأس السنة. وأصبح كل واحد منهم همّه نفسه. بل إن ميراثه أحياناً يتركه للجمعيات الخيرية، أو لشخص لا قرابة له معه، بل قد يتركه لحيوان أو جمعية حيوانات أو زيادة في السخرية لكلبه.

لهذا - يا بني - أريدك أن تنظر بعمق إلى هذا المثل، ومراميه، فليس ضحلاً، كما قد يبدو لأول وهلة، بل إنني أريدك أن تنظر بعمق إلى كل مثل في لغتك، من تراث آبائك وأجدادك وأجدادهم، فهم - كما رأيت، وثبت لك - لم يكونوا يرمون القول على عواهنه، ولا يتكلمون جزافاً، بل قالوا ما قالوا - كما سبق أن قلت لك - عن تجربة ودراسة وعمق. ولقد



رأيت الآن كيف تبين لنا هذا العيب عند الغربيين ،
وأنه جاء بالتدريج نتيجة اهمالٍ ماحظٍّ عليه هذا
المثل وغيره من الأمثال ، التي ترمي إلى تقوية
الأواصر بين طيات المجتمع ، وأهم هذه الطيات
العائلة والقراة فيها .

أي بُنيّ !

لا نزال في صيغة من صيغ الشرط في الأمثال،
ولكن المعنى مختلف، والمرمى في حقل آخر. ننتقل
إليه لأهميته لك ولزملائك ممن هم في سنك.
وستجده مفيداً.

الدين الإسلامي - يا بني - وتشرب الناس له،
واختلاطه بدمهم وروحهم، يجعلهم يضعونه
نصب أعينهم فيما يأخذون أو يدعون، ويراعون
تعاليمه فيما يقبلون أو يرفضون، يلحظونه في كل
أمر من أمورهم، وفي كل تصرف يتخذونه، فهو
بهذا يصبغ حياتهم بصبغته، ويشكلها بالشكل
المرضي، ويأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه،
ويسرون في نوره، يضيء لهم طريقهم، وهم
يتلذذون بالطاعة، ويتمتعون بالخضوع لله
خالقهم، أملاً في ثوابه، ورغبة في رضائه، فلا
تستغرب - يا بني - أن تجد ما يدل على هذا في
أمثالهم، أو في حكمهم. يقول أحد هذه الأمثال:



« من رافق المصلين صلى ^(١)، ومن رافق الضالين ضلَّ »

والقرين - يا بني - يؤثر في قرينه ، والصديق يؤثر في صديقه ، لطول اللقاء ، وكثرة فرص التأثير التي تأتي بها المصادفة ^(٢)، وعفو الحديث ، فيصبغ أحدهما الآخر بخلقه ، وما تعود عليه ، أو ما يفضله ويميل إليه . وتهدي الفرصة نفسها للاقناع ، وبسط الحجج مرات ومرات ، حتى يكون لها ، أو لبعضها قبول ، والقرين يؤثر لهذا في صديقه أكثر من تأثير الوالدين ، وأولياء الأمور ، والوعاظ ، لأن أوقات هؤلاء قد لا تكون أوقات التأثير ، وعدد المرات في الحديث نفسه أقل من عدد مرات إثارة المواضيع بين الأصدقاء والزملاء ، ولهذا يحرص الوالدان والمربون على ألا يختلط من هو تحت رعايتهم بمن أخلاقه متردّيه ، أو مشبوهة بذلك ، فيختارون لابنهم من يرضون خلقه ، ما أمكنهم الخيار ، لأن القدوة أيضاً

(١) راجع الجهميان ٨ / ١٧٠ مع بعض الاختلاف .

(٢) راجع ما سبق في المثل (١٥) وقصة معاون السواق ، والراكب بجانبه .

أقوى من النصائح والتوجيه، وتأثير المماثل في السن، لها - على الأسس التي ذكرنا - فعل السحر في المجالس والمعيش. فتأثير الطالب في المدرسة على زميله أقوى من تأثير الوالدين، لأن العقليتين للزميلين متقاربتان، والتأثير يأتي طبيعياً ما دام يأتي عفوياً، بينما النصائح تأتي مقتصرة، ومركزة، فترفض.

ومن داوم - يا بُنيَّ - رؤية شيء ألفه، ومن ألف شيئاً افتقده، فتفقده حتى يجده. فمن جالس المصلين فلا بد أن يتأثر بهم، لتكرار ما يراه منهم، وتأثيره عليه، وهو لا يعرف غير هذا معرفة التصاق وألفة، ومن جالس من لا يصلي، مضيقاً الفروض أضاع فروضه مثله، لأنه لم يألف إلا هذا.

ولعلك تذكر الحديث^(١) الشريف الذي يذكر

(١) عن أبي موسى الأشعري: «إنما مثل المجلس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك (يعطيك بدون من) وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيباً. ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة» رواه البخاري ومسلم.



الجلوس عند الصانع ، وما يأتيه من كيره ورائحته ،
والشرر الذي يتطاير منه ، ويقارن بينه وبين
الجلوس عند العطار وما يفوح من دكانه من عطر
ورائحة زكية . لو غسلت يدك - يا بني - بطين
وسختها ، ولو غسلتها بماء قراح نظفت ، والأصدقاء
ومن تخالطهم هم مثل ذلك . والمثل العامي يقول :

« ابعد عن الشر وغني له »

والشرور وأصحابها أنواع فاختر الخير عن الشر ،
والنفع عن الضرر ، والربح عن الخسارة ، والمستقيم
عن المعوج ، والفطين عن الأحمق الأهوج . وهذا
هو العقل ، وخلافه مرفوض .

وعلى الرفيق يتوقف شيء كثير من سعادة المرء أو
شقائه - يا بني - ، ولهذا اعتني في اختياره . فالصغير
يساعده أهله على الاختيار ، والكبير يستفيد من
فهمه وادراكه في ذلك ، وقد يكون عنده من التجربة
والحنكة ما يجعله يحسن الاختيار . ولا يكفي أن
تختار رفيقاً لا يضر أو لا يؤذي . أو لا يقود إلى

الطريق غير المرضية . أو لا يكون تأثيره سيئاً ، وإنما تختار من تستفيد منه شيئاً تضيفه إلى ما عندك من مواهب ، أو مكاسب .

ومن أهم الأقوال التي تحتاج أن تعرفها إن لم تكن تعرفها ، وهو قول مشهور ، ومليء بالحكمة ، والقول هو :

« إختار الرفيق قبل الطريق »

ولا أحتاج أن أشرح لك مؤداه ، فالسفر يوصف في الماضي بأنه قطعة من جهنم ، وعند التدبر تجد أن هذا صحيح ، ويصدق على السفر في زمننا هذا في بعض الأحيان . ولهذا فالمرء في حاجة إلى رفيق يخفف عنه عناء السفر ، ويقاسمه تعب ، خاصة إذا علمت أنه من السنة ألا يسافر المرء وحده ، والحكمة في هذا واضحة . ويقال إن السفر خير مقياس لمعرفة الصديق ، لأن الاعتماد عليه في السفر محك صادق ، فإن كان صدوقاً تحمّل كل ما يطلب منه في قسطه من جهد الرحلة ، وما قد يتحمّله زيادة فيما لو أعاق



الزمن صاحبه عن القيام بما هو متوقع منه لمرض أو غيره، فيقوم بما يطلب منه بنفس راضية، ويبيدي من الساحة ما يؤكد ما فيه من أصل زاكي، لا يشكو ولا يتأفف، وهو من النوع الذي «كأنك تعطيه الذي أنت سائله».

أَيُّ بُنَيَّ !

يضرب الفلاح مثلاً مليئاً بالحكمة والعمق ، يأتي به من حصيلة تجربة طويلة ، فهو لا يتأخر عن أمر كبير مفيد ، فقط لأن فيه عيباً صغيراً ، ولو فعل لوقفت الحياة بأكملها ، لأنه ليس هناك عمل يقوم به ابن آدم كاملاً ، لا عيب فيه ولا نقصان ، لا في زراعته ، ولا في تجارته ، ولا في ماله ، ولا في حيواناته . كل تدبير في هذه المجالات أو غيرها مما يتصدى له الانسان ، لا بد وأن يعتريه الخلل ، كبر هذا الخلل أو صغر ؛ بعضه يتوقع ، وبعضه يأتي مفاجأة : نتيجة سوء في التقدير ، أو طروء ظرف من الظروف .

و «الدُّخْن» من المزروعات التي تعتبر مصدر رزق لبعض الفلاحين في بعض المناطق ، تقوم عليه حياتهم ومعيشتهم ، ولكن زراعة الدخن لا تخلو من الآفات ، فليس الدُّخْن طعام الانسان وحده ، ولكنه طعام العصافير أيضاً . والعصافير لا تملك شيئاً ، ولا



تعترف للانسان بأنه يملك شيئاً، ولهذا فهي تشارك الانسان في رزقه إذا لم يحفظه منها، أليس هو أحياناً يشاركها حياتها: يصطادها ويأكلها. ولولا صغر حجمها، وعدم تناسبه مع المجهود الذي يبذله لكانت من غذائه الرئيسي. إذا فلا أقل من أن تنهب شيئاً من دخنه ليقيتها. فهل إذا فعلت هذا يغضب الفلاح؟ وتأخذه العزة بالاثم، ويخرج عن صوابه، فيحلف ألا يزرع الدخن، لأن العصافير تأكل منه، فيعاقب بهذا نفسه بهدف معاقبتها. لا، هو أعقل من أن يفعل هذا، فهو يزرع، ويخيف العصافير، بوضع «خيال» لرجل، يوهمها أنه حقيقي، وإذا تجرأت وجازفت وأكلت شيئاً فقد تركت خيراً، وإذا أخذت حبة، فقد تركت «وقراً». ولهذا جاء المثل القائل:

« لو حسبنا العصافير ما زرعنا الدخن ^(١) »

أجل لو أحصيت العصافير التي تنزل في الحقل

(١) الألمعي ١٩٩. دياب ١٠٥. السباعي ٧٨. مع اختلاف طفيف في الصيغ.

لهالك الأمر من كثرتها، وما قد تأكله، فالأفضل ألا تحسبها أو تعدّها، أو تلقي لها بالا، وتوكل على الله وازرع الدخن. ويكفيك ما يبقى^(١).

وإذا كان هذا المثل من بيئة الفلاح. فهناك مثل يرمي إلى الهدف نفسه، ويطلب النتيجة بعينها، يمكن أن يكون أتى من أي بيئة، لأنه عن السّفر وأخطار السّفر ومشاكله، وربما عن تكاليف السّفر، وعن الطريق غير الآمن، ومظنة الضياع، والتعرض للذئاب والصوص، والموت عطشا أو غرقا:

يقول المثل رامياً إلى ما رمى إليه المثل السابق: أن الخوف من شيء يجب ألا يثني عن الاقدام، لأن في عدم الاقدام خسارة كبرى، والخوف - كما تقول الحكمة - من الخوف، هو الخوف بعينه:

« لو حسبنا ما سافرنا^(٢) »

(١) بهذه المناسبة. يحسن أن تعرف عن هذا الحديث: روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ: ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة. رواه البخاري.

(٢) الألمعي ١٩١.



أجل لو بقى الماء، لم يجر ولم يتحرك، لأسن،
وأصبح ضاراً غير نافع، ولو بقى الانسان رهين
بلدته أو قريته، وكل انسان فعل هذا لوقفت
الحياة، وماتت الحركة.

إن الأمر عجيب - يا بني - تذكر منذ قليل تكلمنا
عن الأخطار التي يقدم عليها بعض المغامرين ممن
يصعد الجبال، ويدخل السباق الخطر، دون أن يجد
بعض الناس أن المردود يستحق هذه المجازفة. وهذا
المثل يتكلم عن فائدة عظيمة يجب ألا يتردد الانسان
في الاقدام عليها لأجل عيب صغير فيها، لا يقف
أمام النفع فيها، ونجم الضرر لا يغطي شمس
النفع.

وكثيراً ما يقابل الناس مواقف يمكن أن يصلح
هذا المثل في أن يستحضر فيها، فبضاعة تلزمك،
ولكن فيها من العيب ما قد يبدو حجر عثرة في
شرائها، ولكنك عند التدبر تجد أن الربح في
الاقدام. وإذا استقرت الأمور لا تجد أن هناك
شيئاً ليس فيه ما قد يوجب التوقف. السيارة التي



تركبها، عدد عيوبها تجد أنها ليست قليلة، ولكن حاجتك إليها، وعظم فوائدها تجعلك تغض النظر عن المعوقات عن شرائها، وقس على هذا ركوب الطائرة، والسباحة، والسير في الطريق. والأكل في المطاعم. وهكذا.



أَيُّ بُنَيَّ !

هذه نماذج من الأمثال المستقاة من بيئة الفلاح ،
حرصت على أن أعطيك عن طريقها فكرة عما كانت
عليه حاله في الماضي . وكما ترى ، هذه الأمثال رَجَع
صدى لحياته ، والأمثال عموماً رجع صدى حياة
الناس في أي مجتمع . ولعل من المناسب أن أختار
لك الآن - فيما سيأتي - أمثالا متفرقة ، تمثل بيئات
مختلفة ، ونظرات متعددة ، وأذهان متنوعة ،
وتكشف لك عن عقليات في المجتمع القديم
متباينة . وما هذه الأمثال إلا وسيلة لي في كشف
بعض جوانب المجتمع في الماضي لك مما لا تعرفه ،
وعليك أن تقارنه بما تعرفه من حاضرك ، وسترى
البون شاسعاً ، والشقة بعيدة . وأنت إن تعجب ،
وتفتح فمك دهشة واستغراباً على ما كانوا يسيرون
عليه في حياتهم ، وما كانوا يختارونه نمطاً لمعيشتهم ،
وتصرفهم في حدود امكاناتهم ، فهم أيضاً لو أتيح
لهم أن يطلّوا من قبورهم على دنيانا اليوم لأخذتهم

الدهشة، وألجمت ألسنتهم المفاجأة، حيال ما يرون ويسمعون. سوف لا يرون جملاً ولا بغلاً ولا حمراً للمواصلات، تستحوذ على الطريق، وتسيطر على المسالك، ولا أباراً مطويةً مصدراً للمياه، يزدحم عليها الناس والدواب، ولا دلاءً مخروزة بعناية، طالعةً نازلةً لمتح المياه، وسقي الناس والحيوانات والزروع، وسوف لا يرون آلات «الختام» والحرث القديمة، التي تجرّها الدواب، أو يدفعها الناس أو يجرونها بأيديهم. ولا يرون العامل في «المنحاة» و«المسوقة» بيده - وهو ما مر عليك في أحد الأمثال - سيفقدون هذا كله، سوف لا يجدونه إلا في المتاحف أو في الصور. وسوف يرون بدلاً من هذا طائرات تتخاطف في السماء، تخترق الأجواء والسحب، تنقل الناس من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى أخرى، وسيرونها أشكالا وأنواعاً وأحجاماً مختلفة. وسيرون عابرات محيطات، تمخر العباب، في حجم المدن، تنقل المسافرين والسائحين والمقاتلين والبضائع والعتاد، والسيارات، ذات



أحجام متباينة، تنهب الأرض، وتطوي الفيا في،
ركابها في جوّ يكيّفونه كما يريدون، مثلهم مثل من
في الطائرات والبواخر والقطارات أو في البيوت .
وسيرون قطارات تمرّق عبر السهول والوديان
والأنفاق والجبال، فيها مقاعد مريحة، وصلات
للطعام، وسرر للنوم . وسيرون تليفزيونات تقرب
البعيد، وتبعد القريب، تريك ماعلى بعد آلاف
الكيلومترات بألوانه وأصواته وأحجامه، لا تخفي
سمة أو لمحة أو نغمة صوت . وتليفونات قضت على
المراسلات والمكاتبات وحلت محلها بكفاءة
وجدارة، توصلك بآخر الدنيا في أقل من غمضة
عين وانفتاحتها، «وتلكساً» و «فاكسميلي» يقضيان
غرضك مثلما يفعل التليفون . وحاسب آلي يعطيك
حصيلة تفكير جيل كامل واحصائياته، مما كان في
الماضي، في ثوان معدودة، ويستخرج من المعلومات
البسيطة استخراجات طولا وعرضاً تحتاج إلى جيش
من البشر في الماضي، وسنين مما يعدّ الناس .
وسيرون بيوتاً بنيت من عشرات الطوابق، الليل



فيها والنهار متساو، والجو موزون كما يريد
الساكن، وكما يتفق مع مزاجه وطبيعته.

سوف - يا بني - يرتعبون، ويصعقون، وتلجم
أفواههم الدهشة، فوق لجام الموت الذي هم فيه،
ويعودون إلى قبورهم هائثين راضين بما كان عليه
زمنهم؛ لأنهم رأوا زمناً يلهث راكضاً، لا يلوي على
شيء؛ فهو في ضجيج وعجيج، وضوضاء
وصخب، وحركة دائبة، لا تني ولا تستريح.
وعجلة تدور بسرعة فائقة، إن لم تدّر أنت معها
بسرعتها وعلى طريققتها طحتك، وإن درت معها
هرستك، فأنت ضحيتها في كل الأحوال. ولكنه
- يا بني - زمنك، رضيت بوسائله المميزة، فاقبل
نتائجه وإن قل رضاك عنها.



[٦٩]

أَيُّ بُنَيَّ !

بعض الأحيان يأتي المثل بحكمة متقنة لا يختلف فيها اثنان ، « ولا تنتطح - كما يقول المثل - فيها عنزان » . يعطي الحقيقة بأبهى صور جمالها ، وقد قرب المعنى للذهن ، فجعل المرء يعجب حين يسمع المثل كيف لم ينتبه إلى هذه الحقيقة إلا بعد أن صيغت بهذه الطريقة . يقول المثل :

« أدعي على ولدي ، وأكره من يقول آمين ^(١) »

يغضب الوالد أو الوالدة على ابنهما ، وفي لحظة الغضب وشدة يدعي أحدهما على ابنه ، ولكنها دعوة لا تخرج من القلب ، وإنما هي ضحلة ، وعلى طرف اللسان ، وما هي إلا صوت أجوف لحروف فارغة المعنى لا تعني شيئاً . ولكنها نفثة صدر ممتلئ ، ولا يجوز لأحد أن يقول حين يسمعا « آمين » فهذا كما يقول المثل العامي « دخول بين البصلة

(١) السباعي ١٢ . دياب ١٣ .



وقشرتها»، والداخل بينهما لا يناله من البصلة إلا «نتنها» و«عفانتها»، فقد تلتفت الأم أو الأب على المؤمن، وتمطره بوابل من كلمات الغضب، وقد تقول له لو كان المدعو عليه ابنك لما أمنت. وينقلب تيار المعركة إلى المؤمن، فتفرغ عليه شحنة الغضب برضا وارتياح من الغاضب، فالذي سوف يصعق ليس الابن، وإنما غريب عن العائلة.

إن الوالد أو الوالدة إذا دعيا فانهما لا يريدان أن يستجيب الله دعوتهما، إذا كانت الدعوة على ابنهما، وليست له. هما يريدان أن يُسمعَا الابن مبلغ غضبهما فقط، وهذه وسيلة من وسائل ذلك. فلعله يعود عما ارتكب من خطأ، أو أقدم عليه من جنوح، أو لا يعود إلى مثله إذا كان الأمر قد وقع منه الضرر.

عندما يقول أحد الوالدين لابنه «وجع» أو «عمى»، أو «عساك للموت» أو «الله يأخذك» أو «عساك للكسر»، - وهي الدعوات التي على الألسن عند الغضب، فانهما لا يريدان أن يقع شيء من



هذا، وكيف يريدانه وهو إذا عطس سهرًا، وإذا بدا عليه كسل في الحركة، أو صموت في الكلام غير معتاد قلقًا، ولو عثر سميًا عليه، وإذا تأخر خارج البيت دفّت قلوبها.

أليس هذا المثل صادقًا، ينطبق على كل أب وأم طبيعيين، وفي كل موقف غضب طبيعي، لأن هذا هو الواقع، فهو يتماشى مع عاطفة الأبوة والأمومة. والدعاء على الأولاد عند جیشان الغضب يحدث مرات ومرات في حياة الآباء الطويلة. ومواقف الأبناء، من خلال حياتهم وصحبتهم لوالديهم، لا تخلو من تقصير مرده عدم النضج، ولأن عاطفة الابن نحو والديه ليست مثل عاطفتها نحوه في بعض مراحل نموه. ولهذا فمصلحة الوالدين، ومراعاة خاطرهما، ليست دائمًا على باله، مثلما مصلحة على بالهما دائمًا. ألم يقل المثل الثاني:

« قلبي على ولدي انفطر وقلب ولدي

عَلَيَّ حَجَرٌ ^(١) »

(١) السباعي ٦٦ .



والمثل الثالث :

« عين الوالد بالولد وعين الولد بالسند^(١) »

هذان المثلان - يا بني - يعطيان صورتين أخريين
على نمط المثل الأول، ويريان جانباً مما يقوم بين
الآباء والأبناء في بعض الأحيان، إلا من رحم الله
بتربية حسنة، أو بتأثر بأوامر الدين ونواهيه، وفيه
ما يكفي لاعمار العلاقة بين الابن أو الابنة
ووالديهما.

(١) الألمعي ١٤٩ .



[٣٠]

أَيُّ بُنَيٍّ !

لننتقل إلى مثل آخر يعكس ما يجري في البيئة في
زمن أجدادك . يقول قائلهم :

« من ردّ ما كأنه شرد^(١) »

تُحَسّ - يا بني - من الاستعارة أنها قيلت وفي
الذهن جمل ، وهروبه يسمى شروداً ، والفرحة
بعودة الشارد أو الهارب أو الأبق تنسي فقدانه ،
وتُعِيش المرء في بهجة لحظة العودة ، سواء كان
الشارد جملاً ، أو أبناً غاضباً ، ردّه عقله بعد التفكير
وفي ساعة هدوء إلى أهله ، أو صديقاً جفا صديقه ،
ثم أدرك الخطأ فعاد إلى ما كان عليه مع صديقه .
وهذا المثل من الأمثلة التي احتوت ضمناً شرطاً ،
وأخذت صورته من البيئة ، وما يحدث فيها ، فهي
بيئة شهدت كثيراً من شرود الحيوان وعودته ، ولا
ضير أن يستعار المثل لعودة الانسان إلى أهله ،

(١) الجهميان ٨ / ١٧٠ . وفي كتاب الألمعي ٢١٨ : « من ردّ ما كنّه
شرد » .



والصديق إلى صديقه، والزوجة إلى زوجها،
والتلميذ إلى مدرسته، والموظف إلى عمله، والعامل
إلى مهنته. ويكون ذلك مثل عودة الجمل الشارد إلى
مراحه، والعنز إلى حظيرتها، أو الصقر إلى وكره،
أو الحمامة إلى «مخفقها».

وهذا المثل لا يعرف قوة فرحة مَنْ ذكر فيه أنه عاد
إلا من فقد شيئاً غالياً عليه، ثم وجده فجأة قد عاد
إلى حيث افتقد. إنه شعور نفسي عميق، لا تصوّره
كلمات المثل على قوتها، ولكنها أقرب إلى أن تعطي
النتيجة، فهي توحى بأن من عاد إليه مفقود ألهته
الفرحة عن العتاب، أو إنزال الجزاء، أو اتخاذ ما قد
يكون أشد تحرزاً في المستقبل. وهذا يجعل الحاضر
مختلفاً في المعاملة عن الماضي، وإذا كان الماضي فيه
من التساهل ما سمح بالشرود، فالمستقبل يجب أن
تضيق فيه منافذ الشرود. لا. ان المثل يؤكد أن
يكون التصرف في المستقبل كما كان في الماضي، وأن
يعتبر الشارد كأنه لم يشرد في جميع ما يحيط بالأمر.



وقريب من هذا المثل في الاعذار لمن جاء بعد
انتظار، المثل القائل :

« ما أبطأ من وصل ^(١) »

وهو مثل فضيلته في أنه يعذر لمن شغله شاغل
عن أن يحضر في الوقت المحدد مثلاً . ويعيد الناحية
النفسية إلى مكانها الطبيعي بين المدعو والداعي
المنتظر، فقد يكون الداعي على الغداء أو العشاء
قلقاً بعد أن تأخر المدعو عن الوقت المحدد، فإذا
وصل طغت الفرحة على الداعي وضيوفه، وزال
الضييق الذي سكن صدورهم، فالداعي قبل أن
يصل الضيف يضرب أخماساً في أسداس، هل
أخطأت في تحديد الموعد؟ هل فهم الضيف غير ما
أردت؟ هل لم يعرف الطريق إلى البيت؟ لعل المانع
خيراً، ويرجو ألا يكون حدث لضيفه حادث!
وعندما يصل إلى مثل هذا، يقنع نفسه، دفعاً
للهاجس السيء، أن ضيفه قد نسي .

(١) « لا تقل لغايب ويش أهاك »، الألمعي : ١٩٦ .

لهذا تقوى نفس المضيف عندما يرى ضيفه ،
فيحاول الضيف أن يشرح أسباب تأخره ، ويبين ما
عاقه عن المجيء في الوقت المحدد ، فيبادره المضيف
قائلاً : «ما تأخر من وصل» ، وكأن مجيئه أنساه
التأخير ، ولم يعد للعدر قيمة .

إن هذا المثل من الأمثلة المفيدة ، ويلمح فيه
زبدة تجربة طويلة ، ومن قاله عالم في علم النفس ،
لأنه يلمس النفس في طمأننتها عند القلق . ويبدو أنه
لا يخلو من الاستفادة منه ، أو ما يماثله ، مجتمع في
العالم ، فالانجليز يقولون : «أفضل أن تتأخر عن أن
لا تأتي» . أليس في هذا منطق سليم ؟ ولكنه لم يراع
كالمثل العربي بدقة الناحية النفسية ، والقلق الذي
يرزح تحت نيره المتتظر . ولعلّ مثلهم قديم ، قبل أن
يصبح الوقت عندهم مهماً كما هو الآن . فهم اليوم
يحاسبون على الدقيقة ، وقد لا يفتحون الباب
للمتأخر سواء كان ضيفاً ، أو رجلاً جاء لمكتب في
موعد صفقة بيع أو شراء .



والأمثال العالمية - يا بني - تتداخل، تجد هذا المثل في هذه البلاد، وتجد في بلاد أخرى مع تغير بسيط. وعالمية الأمثال طبيعية، لأن العقل لا يحده حدود، فهو موجود في رأس العربي ورأس الانجليزي، ورأس الفرنسي، وقد يتماثل التفكير، وقد يتماثل الحكم على أمر واحد في وقت لم يلتق أصحابه وجهاً لوجه، ولكنهم وهم في غيابهم التقوا فكراً وفكراً، وقد يسافر المثل - مثلاً تسافر مظاهر الحضارات - من إقليم إلى إقليم، مرّات متعدّدة، فتجد مثلاً ما من الأمثال، مرّ بعدة لغات، متنقلاً من واحدة إلى أخرى، فألقحها فجاءت بانتاج جميل. وسوف لا أكثر لك من الأمثلة في هذا، ولكنني بجانب المثل الذي نحن بصدد أسوق لك مثلاً آخر، تجده في كل لغة تقريباً، وان تغير تحديد العدد فيه أحياناً؛ يقول المثل:

(١)

«عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة»

(١) وقد تحل الجراد في بيئة عربية محلّ العصفور أو الطير:

«جرادة في اليد ولا عشرة طائرة». السباعي: ٢٥.

«عصفوره في اليد ولا عشرة طائرة»، السباعي: ٥٥.

«جرادة في يدي ولا عشر نوافر»، الأملعي: ٥٩.



فهذا المثل تجده في كثير من اللغات ، وقد يكون في كل اللغات ، ولكنه أحياناً يتغير تغيراً طفيفاً ، إما بتأثير البيئة ، أو بتأثير عقلية القائل ، أو مراعاة لعقلية السامع ، فيقولون مثلاً : طير في اليد خير من عشرة على الشجرة . وقد يقولون : واحد في اليد ولا عشرة على الشجرة ، أو في الهواء ، أو تختصر العشرة إلى خمسة ، أو تزداد العشرة إلى مئة وألف ، وهكذا .

ومع هذا - يا بني - فهذا لا يجيز التأخير تهاوناً أو احتقاراً للمتتظر ، لأن المجيء في الموعد المحدد دليل حضارة عريقة لعدة أسباب :

أولاً : أنه يدل على معرفة بقيمة الوقت ، وتقديره ، والوقت - يا بني - من أثمن ما يملكه الإنسان ، وإن لم يحافظ عليه ، طار وتبخر كما يتبخر الكحول .

ثانياً : يدل على أن الإنسان منظم فيما يفكر فيه وفيما يعمله ، وليس هناك شيء أجمل من أن



توصف بأنك منظم، وجمال ذلك يتبين
عندما تقارن هذه الكلمة بكلمة «مشوش»
أو «فوضوي».

ثالثاً : أن للناس عنده مقداراً، فهو يعطيهم
الاعتبار اللائق بهم مثلما أعطوه هم
اعتباراً، فالداعي إلى وليمة مثلاً لم يدعك
إلا لأنه يقدّرك أو يعزّك أو لأن لك قيمة
عنده، ومنزلة. فلا أقل من أن تقابل هذه
المكرمة، وتجازي صاحبها بالحسنى، فتأتي
إلى الدعوة في الموعد الذي ارتضاه، وقبلته
أنت.

رابعاً : أنت تساهم في تثبيت عادة حسنة، وخلق
نبيل، يقتدى بك فيه الآخرون، وإذا شدّ
غيرك فإنه يكون واضحاً للناس، وقد
يسهل تعديل اعوجاج واحد عن تقويم
اعوجاج اثنين أو أكثر. وإن لم يتكاتف
الناس في ذلك، أصبح المحافظ على الوعد
هو الشاذ، ومسكين المجتمع الذي هذه



صفة أهله، أنه مدبر وإلى زوال، لأنه لا يبقى إلا الصالح .

خامساً: إن التأخير في المجيء في الموعد، هو نصفُ اخلافٍ للموعد، وتذكر - يا بني - ما هي علامات المنافق في ديننا. هي ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان. وعلى هذا فمن يتأخر متعمداً يمكن أن نعتبره، محققين نصف منافق. أرايت كيف يكون الحكم قاسياً، دون أن ندرك، إذا لم نكن حذرين، ونتمسك بالخلق الحسن، ولا ننتهون فيه.

سادساً: قد يفوت الغرض إذا تأخر الانسان عن الموعد، فإذا كانت دعوة، فتكون «الطيور طارت بأرزاقها» ولم يبق للمتأخر إلا «الكسفة»، و «الفشيلة» ولحسن الصحون. وقد يكون الموعد موعد سفر بالطائرة، فتركه الطيارة يعرض أنامل الندم. وقد



يكون الموعد موعد الصلاة فيفوته أجرها،
ويلحقه من جراء ذلك إثم .

هذه أمثلة لما يمكن أن يعدد في هذا المجال ، ولو
استقينا جميع الأسباب لتبين أنها تكاد لا تحد .

أي بُنيّ !

وهناك مثل آخر من الأمثلة التي ضمت شرطاً،
وتمثل بيئة اختفت باختفاء معالم العهد الماضي، بعد
أن مرت عليها يد الحاضر، فمسحتها دون أن تبقي
منها إلا ما قد يكون في القرى أو المناطق النائية.
يقول المثل :

« من طاوع المشرق والفيّ ما ساد^(١) »

والمشرق مظهر كان معروفاً في نجد في المدن
والقرى، يخرج الرجال، خاصة كبار السن، في
الصباح، فيجلسون يتحدثون في «ذرى» أحد
البيوت عن الهواء، وفي مكان تشرق عليه الشمس
في الصباح الباكر، أول ما تشرق، يطلبون دفأها،
بعد ليل شتاء قارس، وصل برده إلى العظم،
واستقرّ فيه، ويتعذّرون بهذا للالتقاء والأنس.
وهذا بلا شك مظهر كسل إذا قيس بمظهر العاملين

(١) الجهيمان ٨ / ١٩١ .



في الصباح، الذين يدفئون أجسامهم بالكد والكدح، وحفر الحفر، وردمها، وحمل الأثقال، والحركة هنا وهناك، وينسون البرد عند قرصة الجوع التي تذكرهم بأنّ عليهم أن يعملوا حتى يسكتوا «عصافير المعدة» لهم ولأولادهم.

المشراق - يا بني - والجلوس في الشمس، طلباً للدفء، يتم طبعاً في الشتاء، أما في الصيف فهؤلاء أنفسهم يبحثون عن الظل، هرباً من الشمس ووهجها، يبحثون عن فيء بيت، أو ظل شجرة أو سقيفة، وهو مظهر كسل آخر. فيؤدي المثل رسالته التي قيل من أجلها، ويقول: إن من يبحث عما يريحه صيفاً وشتاء فلا يتطلع أن يسود، وأن يكون رأساً في قومه، بل سيبقى في مؤخرة الصف، ذيلاً لغيره، ومسوداً لا سيّداً، لأن السيادة بمكابدة الصّعب، ومعاناة المزعج، ومن طلب العلا سهر الليالي.

والمثل - يا بني - مثل، يضرب لينطبق على حالات كثيرة، فهو لا يبقى جامداً على الذين

يجلسون في المشراق، أو يتفيؤون الظلال. بل لعل بعض هؤلاء لا يفعلون ذلك إلا للحظات ينطلقون بعدها إلى أعمالهم بجهد واجتهاد، لا كسل فيه ولا تواني، فهو لا ينطبق عليهم بقدر ما ينطبق على أبناء جيلك، الذين يفضلون الراحة أحياناً على التعب، فتكون النتيجة أنهم يكونون آخر الصف في دراستهم، إذا ما ركنوا إلى لذة أفلام التلفزيون والفيديو، وتركوا شدة الدروس، ومعاناة دراستها، والسهر عليها. وينطبق - يا بني - على التاجر في دكانه، يجلس في بيته، أو بين أصدقائه، يلهو معهم ويمرح، ويترك دكانه لأجير يفعل فيه ما يشاء، وفي زبائنه ما يحلوه، دون مراعاة لتجارة من استأجره، ربحت هذه التجارة أو خسرت، جلبت الزبائن أو نفّرتهم. وقس على هذا آخرين يهملون واجبهم طلباً للراحة واللذة، فلا يحصدون إلا ما يجعلهم يندمون.

والمشراق، وفيء البيوت، وظل الشجر، اختفى من حياة الناس الآن، إلا ما قد يكون في بعض



المناطق النائبة أو المنزوية عن جادة السير الحضاري، الذي نعيشه. المشراق عَوَّض عنه - يا بني - وسائل تدفئة حديثة، منها المركزي في البيوت، ومنها الدفايات التي لا تحوجك أكثر من ادخال طرفها في الجدار، في مركز الكهرباء. حتى الحطب والنار - يا بني - لم تعد أساسية لحياة الناس، وإنما يشتاقون إليها بين آن وآخر إذا خرجوا للبر، واسترداداً لذكرى قديمة، أو تقليداً من الشباب لأبائهم، متعة لا عوزاً، وفسحة لا حاجة.

والمكيّفات، عدة الصيف، أصبحت أنت تختار منها ما يناسبك، وما يماشي محافظتك وجيبك، ويتماشى مع مظهر الغرفة، تشغل هذا في هذه الغرفة، وتطفئ هذا في تلك الحجرة، تشغل هذا لبعض البيت، وهذا لمجمل البيت، على سرعة متدنية أو متوسطة أو عالية. هذا له صوت، وهذا خفيض الصوت، وهذا لا صوت له: أوتار صوته مخنوقة، لا تكاد تسمع منه نامة.

ولو رأيت إنساناً اليوم - يا بني - جالساً في الشتاء في الشمس عند زاوية الشارع عند أحد البيوت، لأخذتك الظنون في أسباب جلوسه، أنت وغيرك ممن يمر به، ولو رأيت أحداً وقت القيلولة يستظل بشجرة، أو في ظل بيت، لعرفت أنه «أجنبي» يعمل في الحي، بعيداً عن مستكنه. سوف يأتي يوم لا يعرف الناس ما تعني كلمة «المشراق»، إلا إذا قرؤا عنها هنا وهناك، كما تقرأون اليوم عن آثار الماضين.

رحم الله المشراق وأيام المشراق وأهل المشراق.

ولقد تحدثت معك - يا بني - في عدة مناسبات، وكلما وجدت للحديث إليك سبيلاً، وكلما ظننت أن أذنك سوف تكون صاغية، سوف أتحدث عن هؤلاء القوم الكرام وجدّهم في حياتهم، وحرصهم على أوقاتهم، وعدم ترددهم في تأنيب من يبدو أنه على غير ما ألفوا. فهم لا يتهاونون، لأنهم يعرفون أن في انتشار ظاهرة الكسل أو التهاون في مجتمعهم هدماً، واغراءً لمجاوريهم في الطمع بهم. وأنت تعرف - يا بني - كيف كانت حروب الطمع في تلك



الفترة، قائمة على قدم وساق، وهذا المثل بالنسبة لمجتمعهم مثل السّوط عند المتبلدين، يكفيهم التلميح والعتب عن طريق مَثَلٍ يقال مثل هذا، له وقع السحر، وتأثير حد السيف.

أرأيت كيف أن جلسة في حمى بيت، للتمتع بالشّمس التي لا يملك بعض الناس غيرها في ذلك الزمن، تجعلهم يقلقون، كيف لو رأوا كسالى اليوم الذين ينتهي النهار والليل بأكمله لم يزرعوا شيئاً، ولا يتطلعون على هذا الحصد شيء، رغم سهولة الأمور في كل مجال في المعيشة وفي الوسائل وفي المواصلات، وفي كل شيء يجعل العمل مثمراً، ومجدياً، براحة وسلامة. ويبدو أن الالتفات للوسائل الحديثة وتطويرها والانشغال بها، ومتابعة ما يستجد منها، والتسابق في اختراعاتها ألهى الناس في الغرب عن الجوانب الروحية المضيئة، والخشية - يا بني - أن تسري العدوى منهم إلينا. لهذا آتي أنا وغيري وننبّهك إلى هذا حتى تعرف الأمور على حقيقتها.

أي بُنيّ !

كان الناس في الماضي لا يجدون في جزيرة العرب ما يصل إلى مستوى طموحهم، في الرزق والمعيشة، وكان النشيط منهم، وذو الهمة العالية، يسافر خارجها إلى العراق أو الشام أو الهند، يغيب سنين عديدة، ويتوقع أن يعود وقد جاء بها أمل أن يحصل عليه. وكلما طالت غيبته كانت الغنيمة المتوقعة كبيرة. ولهذا يقولون - يا بني - :

« من طَوَّل الغيابات جاب الغنائم ^(١) »

وهو مثل - كما ترى - قائم أيضاً على الشرط. والمثل منتزع من البيئة في الجزيرة، وما يجري فيها، في جانب السفر، طموحاً لكسب الرزق، نتيجة للقصر والعوز. أما اليوم، والحمد لله، فالجزيرة فيها من الخيرات ما يأتي الناس من خارجها ليغنموا منه .

(١) « من طَوَّل الغياب جاب الغنائم »، الألمعي : ٢٣٩ .



ومع هذا فالمثل سوف يبقى ، وسوف تقول
لابنك إذا عاد من دراسته في الخارج ، وأملت فيه
مع طول المدة التي قضاها هناك ، بعد أن يكون عاد
ومعه الماجستير والدكتوراه : «من طول الغيبات
جاء الغنائم» . وسيقولها رجل الأعمال لآخر إذا
عاد بعد رحلة شاقة ، ومعه عقود عمل ، لتصدير
سلع ، أو جلب سلع ، أو انشاء مصنع ، أو مشاركة
في عمل .

وستقولها أنت لزميل تفكّها في أبسط الأمور ،
وأقصر المدد إذا غاب عنك . فالمثل حي ، وهو على
ألسنة الناس .

ولو فكّرت فيه - يا بني - لوجدت أن فيه مجازاً
مستعاراً لما قيل له أصلاً ، فالذين يذهبون
ويكسبون من البيع والشراء لا يعتبر ما رجعوا به
غنيمة ، فالغنائم هي مكاسب الحرب ، وهذه
مكاسب سلم . فقائل المثل إذاً في ذهنه الغزاة الذين
يتركون القبيلة ليغيروا ويغنموا . ويتوقع منهم إذا
طال غيابهم أن يكون كسبهم بقدر غيابهم وطوله .



وهذا هو أصل المعنى ، ولكنه استفيد منه لكل غياب حضر صاحبه منه .

والناس - في ذلك الزمن - كانوا يتوقعون لكل غياب فائدة ، وينتظرون مردوداً . وهم لا يعرفون في تلك الأيام السفر للمتعة والسياحة ، ولو وجد أحد بهذه الصفة فهذا نادرٌ ، لأن الرحلة تحتاج إلى مال . والمسافر يوفر منه ما يكفي رحلة للهجرة أو للتجارة . لهذا كان في ذهنهم أن كل مسافر سيعود بغنيمة .

وغنائم زمننا - يا بني - إذا لم تكن شهادة يتحصل عليها ، أو صحة عاد بها بعد سقم ، أو رحلة تجارة فاوض من أجلها ، أو ابرم عقوداً ، فهي الهدايا للأهل والأصحاب . والهدايا - يا بني - مفاتيح القلوب ، مهما صغرت ، لأن المهم فيها ليس حجمها أو قيمتها - كما يقول المثل الانجليزي - ولكن في التفكير الذي يكمن وراءها ، وتذكر القريب أو الصاحب أو الصديق في الغربة ، وحساب فرحته في العودة . وإذا لم يأت بهدية فإن



أهله يقولون له «أنت الهدية»، لأن عودته سالماً أكبر هدية لهم .

وإذا كان المثل إذا ألقى فهو دليل الاهتمام، فإن في الهدايا مثلاً قد يؤكد أهمية المثل وهو: «الهدية على قدر مهديها»، وهو مثل صحيح وصادق، فلا يتوقع من محدود الدّخل أن يبيع ما وراءه وما دونه ليهدي شخصاً ذا مقام هدية تتناسب مع مقامه . المهم في مناسبتها للمهدى له، ويستدل المهدى له على عقل المهدي وتفكيره بهديته، ولهذا تأنّ وفكر عندما تهدي، ولمن تهدي، لأنّ الهدية من القادر أحياناً محرّجة لغير القادر الذي سوف يحمل الهمّ كيف يردّ لك الهدية . وفرق - يا بني - بين الهدية والعطية . ولا أود أن أطيل عليك في أمر الهدايا، فهذا ميدان واسع، وحقل خصب، ولكل أمة فيه رأي وفلسفة، وفي كل لغة قول، ولكن يحسن أن أذكر هنا ما يقوله الانجليز، وهو قول حكيم، والحكمة ضالة المؤمن أين وجدها التقطها . ويسعى إلى الحكمة ولو في الصين، هذا عندما كانت الصين

أبعد بلد في العالم يعرفه المسلمون . يقول المثل «لا تنظر وتتمعن في ثنانيا^(١) الحصان إذا أهدي لك» : أي لا تحاول أن تعرف هل هو صغير السن أو هرم ، فالهدية لا تقلب ولا تختبر ولا تفحص .

وقس على هذا - يا بني - لو جاءتك هدية من شخص ، وكان عندك مثلها ، فلا تقل إنها لن تفيدك ، وبودك لو أهدي لك ما أنت في حاجة إليه . وإذا أهدي لك هدية فوجدت أن بها خللاً يمنع من الاستفادة منها فلا تعدّها ، وتظاهر بأنّها صالحة ، فقد توقع مهديها في حرج أو مشكلة . واعمل مثل ما يعمل الانجليز في استقبالهم للهدايا ، إنهم يتظاهرون بأنّ هذه الهدية هي ما كانوا يتطلعون إلى احتيازه أو تملكه ، وأن المهدي وفق في اختياره .

على كل حال - كما ترى - استولى الانجليز في حديثنا هذا على بعض أقوالنا!

(١) معرفة عمر الحيوان تأتي عن طريق النظر إلى ثناياه ، وهي أسنانه الأمامية ، وهذا يقتضي أن تقلب شفّتيه ، لتستطيع الرؤية بامعان إلى ثناياه .



[٣٣]

أَيُّ بُنَيَّ !

منذ القدم والعرب يحث الأب منهم ابنه أن لا يقول : كان أبي ، وإنما يقول : ها أنذا . لأن الاعتزاز بالأب - مع الخيانة والتدني في المنزلة - ادعاء عيبه على المفاخر أكثر من نفعه له . والعامّة لهم مثل أخذوه من بيئتهم ، وصاغوه بتعبيرهم ، وعلى طريقتهم في طرق ما يفيد حكمة ، أو يأتي برأي سديد . يقول مثلهم ، المبني أيضاً مثل سابقه على شرط :

« من قال أبوي فلان قل له ومن أنت ^(١) »

كأنك تنبّه إلى شيء نسيه ، أو لا يدري أنك متنبّه له . وقد لا يفيد سؤالك إذا كان أبوه في القمة ، وهو معه فيها بكده وعمله ، وبمحافظة على ما وصله أبوه ، أو وصل إليه هو . المهم ألا يغفل عن موقعه هو في حماسه بالافتخار بوالده ، فقد يكون

(١) الجهمان ٨ / ٢٠٩ .



موقع والده المرتفع لم ينفعه هو لانحداره، وربما جرّ
لسمعته السيئة معه والده الذي بنى سمعةً تعب على
بنائها، فأضاعها ابنه، أو عجز عن المحافظة على
مستواها الذي كانت عليه عندما مات والده.

والمثل لا يعني أنك لا تفاخر بأبيك، ولا تذكر
فضله، لأن هذا برّ أنت مطالب به في حياة والدك،
وبعد وفاته. ومن قطع صلته بماضيه أثبت من
حاضره ومستقبله. فالتعلق بالجذور أمر فيه جذل
يورث جيلاً بعد جيل. وبعض الذين لا ماضي مجيد
لآبائهم، يحاولون أن يضخموا ما كان لهم من أمر
صغير، حتى يكون لهم مكان في مجتمع يهتم ما كان
عليه الآباء من اتصاف بالنجاح، أو سمعة في
الأمانة، أو الصدق، أو النخوة أو الشجاعة، أو
الغنى، أو أي فضيلة يذكرها الابن أو الحفيد رافعاً
رأسه.

ولعلك تذكر بيت الشعر الذي يقول:

إن الفتى من يقول ها أنذا

ليس الفتى من يقول كان أبي



فالناس لا يهمهم ما كان أبوك إنما يهمهم من أنت، لأنهم سيتعاملون معك لا مع أبيك، خاصة إذا كان ميتا.

والسعي لأن يُبزَّ الابن أباه، مهما كان صيته حسناً وعالياً، أمر مطلوب، لأنه لا يتقاعس عن طلب المعالي إلا الخائب المتواني. قال رجل لابنه: مثل من تريد أن تكون - يا بني -؟ قال أريد أن أكون مثلك. قال: لن تكون مثلي، لأن الانسان يقصر في التشبه، وأنا حاولت أن أكون مثل علي ابن أبي طالب، وها أنذا لم أصل إلى شيء مما هو عليه، فإذا أردت أن تكون مثلي، فسوف لا تصل إلى ما وصلتُ إليه. ولكن انظر إلى أحدٍ ممن هو أحسن مني، واركض خلفه، واتسم بسماته. وحاول أن تجد وتجتهد فتكون مثله.

وهذا صحيح - يا بني - على المرء أن يسعى أن يكون في أحسن صورة رآها، وألا يقنع بما دون النجوم - كما يقول المثل -.

أَيُّ بُنْيَ !

يكفي ما قلناه في الأمثلة السابقة فيما فيه شرط ، وهو نموذج للكثير مما قيل على هذا النسق . وهو يوضح اتجاه الآباء والأجداد في صياغة الأمثال . ويقرب منه في الصياغة والاسلوب ما يأتي محصوراً بين نفي وإثبات ، مثل قولهم :

« ما عندنا لهم إلا المصِيب والمحبِّب^(١) »

والمصِيب والمحبِّب نوعان من أنواع الرصاص كان يستعمل في بنادق تلك الأيام . والمثل يعطي الزّمن الذي قيل فيه هذا المثل ، وأنه قيل بعد أن اخترعت البنادق ، ودخلت نجداً ، وتحارب الناس بها ، وفي وقت كانت هذه الذخيرة هي المستعملة ، ويستدل من لفظ المثل بأن هذين النوعين من الذخيرة هما أفضل الأنواع ، وأكثرها تأثيراً ، لهذا خوِّف بها العدو ، فهي دليل قوةٍ ساعدَ على الإصرار على عدم التهاون في حقوق القائلين بهذا المثل .

(١) الجهميان ٧ / ٩٨ .



فالمثل إذا يضرب للاصرار على أخذ الحق كاملاً دون تساهل ، ولو أدى هذا إلى استعمال أقصى وسائل القوة ، ولكم اليوم - يا بني - من أنواع الرصاص والقذائف والصواريخ ما يعطيكم ثروة تصوغون منها أمثالكم - إن أردتم - على نسق هذا المثل . فيمكن أن تقولوا ما عندنا لهم إلا طائفة الشبح ، أو صاروخ باتريوت . أو ما إليهما .

والمرء يتصور البيئة التي أوصت بهذا المثل ، فقد كانت بيئة تطاحن وعراك لا ينتهي ، بين البادية والبادية ، والحاضرة والحاضرة ، وبين الحاضرة والبادية ، وبين مدينة وأخرى ، وقرية وثانية ، وبين أهل الجزيرة بعضهم مع بعض ، ومع وافدين إليها من خارجها : كان للبرتغاليين دور في الخليج في وقت من الأوقات ، وقاومهم سكانها ، وكان لهم طموح على ساحل البحر الأحمر ، وأرادوا أن يتغلغلوا حتى يصلوا مكة ، ولكن الله خذلهم ، وردهم خائبين . وقامت معارك بين أبناء الجزيرة وجيوش الأتراك كان للمصعب والمحجّب وما هو



أقوى منه دور كبير في المعارك ، كُسِبَتْ فيه معارك ،
وُخِصَتْ معارك . ثم صار للانجليز دور بقوا بسببه
على أطراف الجزيرة زمنا ، حتى تخلصت منهم .



[٣٥]

أَيُّ بُنَيَّ !

هناك مثل آخر فيه هذا الحصر يتمثل في قولهم :

« ما يوجس النَّار إلا واطيها^(١) »

والنار جزء من حياة الناس اليومية ، لا يستغنون عنها ، وهي تخدمهم ويسيطرون عليها لمنافعهم ، فهي بين الرجال في و «جار» القهوة ، يصنعون عليها الشاي والقهوة ، ويتدفؤون عليها ، يأخذون منها جمرًا لبخورهم ، ويستعملونها استعمالاً قد لا يطرأ على بال ابن اليوم ، فهم يحمّون فيها المياسم جمع ميسم ، يسمون بها ابلهم وأغنامهم ، ويكونون بها مريضهم طلباً للعافية ، فهي دواء للجنبه ، ولعرق النساء مضمون . منظرها يؤنسهم ، إن جلسوا حولها ، وهي رابطة عقدتهم في الليل ، وفي الصباح الباكر ، وهي مصدر فرحة القادم إلى الحي أو القبيلة يراها من بعيد ، فتملؤه أملاً في ضيافة تريحه وتشبعه .

(١) الجهيمان ٥٧/٧ .

وهي للنساء أداة طبخ في «مواقدهن» ومطابخهن، يطبخن عليها أكل عائلتهن، وما تحتاجه ضيافتهن من شاي وقهوة، وما تحتاجه ربة البيت من غسيل وتنظيف. والنار مادة يومية مساعدة ومهمة. ولها ما لها من حطب ومكان، ومكانها عند الرجال والنساء في الأرض، في مستوى الاقدام. سواء كانت في الوجار أم خارجه.

وليست مثل ما هي اليوم عليه في وجودها في مكان مرتفع على مستوى وقفة الانسان، ولهذا فالانسان معرض أن تطأ قدمه النار خطأ أو نسيانا. والذي تطأ قدمه النار المتقدة هو الذي يحس بحرارتها، لا من شاهده يطؤها.

فالمثل إذاً صادق في البيئة التي قيل فيها، ويمثل هذه البيئة، ولابن اليوم أن يتمثل به، فتصوّر مدلوله ليس بعيداً عن الذهن.

وهو مثل - كما رأيت يا بني - يمكن ضربه لحالات كثيرة، يكون المتكلم بعيداً عن الشعور



الحقيقي للمخاطب، يستسهل أمراً يراه معاينه
صعباً، وهناك مثل يسير على نمط هذا، ويؤدي
غرضه، وهو قولهم:

« ليس من يذوق الضرب مثل من يعده^(١) »

لأن من يذوقه يحس بلسع العصا وألمه، وسوف
يحس بما قد يتركه من علامات على الجلد، قد
تسهره الليل، أما من يعده فلا يحس بشيء، وما
عليه إلا أن يحرك لسانه، ويهين ذهنه.

(١) «اللي ياكل الفرش موزي اللي يعده»، السباعي : ٧٦.

أي بُنيّ !

ويقولون أيضاً حصراً ، وأخذاً من البيئة :

« ما يعاف العود إلا المقرود^(١) »

ولمن لم يعيش في هذه البيئة فإن المثل قد يكون غامضاً غير مفهوم ، ولا يعرف القصد منه ، ولا مرماه ، ولكنه لابن البيئة واضح وجلي . والعود هو عود البخور أو النّد ، برائحته الزّكيّة ، ويؤتّى به ليعطر المكان ، أو ليكرّم به الضيف ، أو ليتحف به الصديق أو القريب ، فإذا شامت نفس من أريد أن يكرم برائحة العود ، واشمأزّ من دخانه ، فهو عديم الحظ والذوق ، فاسد الطبيعة ، والخسارة عليه كبيرة في فقدان هذا التّكريم ، والتمتع به ، لأنه حرم نفسه من شيء يتراكض الناس على التبخر به واقتنائه .

والعود - يا بني - يلعب دوراً مهماً في حياة الناس في الجزيرة العربية ، فرغم أنه من الأمور الغالية

(١) الجهيمان ٧/ ٢٢٦ .



ثمناً، وقد يعتبره من هو خارج الجزيرة من الأمور الكمالية إلا أن الناس هنا يحرصون عليه، ويعتبرونه من الضروريات. يستقبلون به الضيف، ويودعونه به، ويحرصون في أيام الجمع، قبل الذهاب إلى الصلاة، على التبخر به، لتكون رائحتهم جميلة، وليكملوا به زينتهم التي أمرهم الله أن يكملوها ويأخذوا بها عند كل صلاة، وفي رمضان يتسابقون على تبخير المساجد به، وهذا يساعد على بث رائحة زكية تتغلب على رائحة أنفاس الناس، وروائح أجسامهم، التي قد تؤثر على الجو، لكثرة المصلين، خاصة في رمضان، ولطول الوقت الذي يقضونه في المساجد. فيساعدهم الجو العابق بالرائحة الطيبة على الطاعة، وزيادة البر.

وقد تولد من عادة استعمال العود مثل آخر هو:

« ما بعد العود قعود^(١) »

قل هذا المثل على أثر اعتياد الناس تقديم

(١) الجهيمان ٧ / ٨٨ .

البخور واحرقه عند خروج الناس من الدعوة إذا دعوا إلى وليمة أو عرس ، أو حفلة «طهار» : ختان ، أو «ملكة» أو عقد زواج ، فأخذ الناس تقديم العود على أنه علامة أو إشارة لفض السامر ، وانصراف المدعوين . وأصبح المضيف لا يحضر العود إلا بعد أن يقترب الناس من أن ينهضوا ، لينصرفوا ، حتى لا يتهم بأنه عجل خروجهم ، وأرادهم على الانصراف قبل رغبتهم فيه^(١).

وهذا مثل يمثل جانباً من تصرف الناس في هذه الحياة ، فالإنسان لا يرفض الأمر الطيب إذا جاءه ، ولا يتفادى الخير إذا اعترض طريقه ، وإلا فإنه يخسر بدلاً من أن يربح ، ويصيبه الضرر بدلاً من النفع ، ويكون هذا علامة سوء الحظ الذي لا يريد أحد أن يتصف به ، أو يلصق به .

وهناك مثل عامي يسير على وتيرة واحدة مع هذا المثل :

« إذا عانقك الخير فعانقه »

(١) انظر ما سيأتي عن هذا المثل مفرداً في المثل رقم ٩٨ .



هذا المثل يرسم صورة يحملها المجاز في التعبير،
فإذا سار شخص في طريق، ووجد أن الخير يسير
بجانبه، فليماشه، ويسر بجانبه فلا يدعه، بل
يلتصق به التصاق المعانق المحب المغرم، لأن هذا
هو عين العقل، وهو ما تدعو إليه طبيعة الأشياء،
وإن خالف المرء ذلك، ونافر الخير، وازور عنه،
وتركه، وابتعد عن طريقة، فإنه «مقروء» سيء
الحظ، «عديم البخت».

وهذا يكشف لك - يا بني - مدى حرصهم على
أن تكون أفعالهم تسير مع طبيعة الأمور، ولا تجانب
العقل، وتحرص على النفع، وتنبأ عن الضرر.



[٢٧]

أَيُّ بُنَيٍّ !

ومن الأمثال ما يرسم صورة جميلة ناطقة، لو كانت في لوحة لنطقت من صدقها، وقوة تعبيرها، وانطباقها على ما قيلت عنه، أو فيه، مثل المثل الذي يقول:

« مثل القعس في الدبس ^(١) »

تصوروا القعس، وهو دويبة تشبه النملة الكبيرة، إلا أنها سوداء اللون، بأرجل طويلة مثل أرجل النملة، لو وقع القعس في دبس التمر، أو في عسل النحل كيف تكون حاله! إنه سوف يكون في حالة يرثى لها، يدخل يداً لتساعد الأخرى لتخرج من الدبس، فتلحق أختها بها، فتلصق مثلها في الدبس أو العسل، وتأتي الثالثة فتقع في الاشكال نفسه، وترى القعس يجاهد ليخرج، فلا يزيده هذا إلا تورطاً فيما هو فيه، ولا يبقى له بعد رجليه ويديه

(١) الجهيمان ٧/٨ .



إلا جسم يحركه ذات اليمين وذات الشمال كأنه خالط طين، أو رابّ قدر، حتى يلحق باخوانه الأرجل واليدين فيلتصق بالدبس مثلها، ثم تسكن حركته، وتستكين، ويسلم أمره لله.

ويمكن أن يستعار موقفه هذا ليمثل به لمن يقع في حيرة من الصعب الخروج له منها. وقد يوحى المثل بأن الشخص هو الذي أوقع نفسه فيها.

والقعس من موجودات البيئة التي كانت تُرى يومياً، وهو طول الوقت بين الناس، لأنهم طوال الوقت يجلسون على الأرض، وأحياناً يصعد على أرجلهم وأيديهم وأجسامهم، ويدخل في زادهم، خاصة التمر، وطالما أحسوا طعمه الحامض في فمهم، وهم يأكلون ثمرة محيلة. والقعس لعبة مسلية للأطفال، يمسكه الطفل من ذيله، فيلتوي عليه مع قدّه النحيل اللدن، ويثني جذعه، ويحاول أن يخلص نفسه با «لمهاتلة» والمنازعة وأحياناً يعض أصبع ماسكه، فلا يفيد هذا، لأن عضته لا تؤلم،



ومحاولاته لا تنفعه . وقد ضربوا بعضته الهينة مثلاً
فقالوا :

« مثل عضة القعس ما توجع » (أي لا تؤلم)

وكثيراً ما كان الأطفال يحاصرونه بأيديهم ،
ليغيروا طريقه ، فإذا سار في طريق ، ووصل إلى
نهايته ، سدّوه عليه ، وأعادوه حيث بدأ . ويقضون
وقتهم هكذا ، متعة لهم ، وأذى له . ويضطر أحياناً
إلى ركوب الصعب ، فيصعد على أيديهم ، ويقفز
منها إلى سواعدهم ، ولا يدري أن هذه هي قمة
لذّتهم .

والدبس ، وهو عسل التمر ، منظره لا ينسأه
الناس وبالذات الأطفال ، فليس هناك « جصة »
- وهي مخزن التمر - إلا ويسرب منها الدبس ،
ويتجمع في وعاء يلقي لذلك ، فيأتي الأطفال
يلحسونه ، ويلتقطونه بأناملهم الغضة . وإذا لم يُحَمَّ
من النمل والقعوسة ، فإنّ هذه لها منه نصيب وافر .
أمّا إذا وضع التمر على الخصف أو الحصير ، وسال
منه الدبس ، فلا حماية له من النمل والقعوسة ، ولا



حماية للنمل والقعوسة منه . وكثيراً ما استطعم الأطفال طعم القعس الذي حار وسط الدبس حتى قضى نحبه ، والأطفال في عجلة من أمرهم ، لا يأتي في بالهم أن يتأكدوا من أن ما يأخذونه من الدبس خال من النمل والقعوسة الميتة . ولا يتذكرون ذلك إلا عندما يستطعمون حموضتها ، وقد اختلطت بحلاوة الدبس ، وحينئذ يعتبرونه «حامض حلو» ، ويتمثلون بمثل يحلو لهم ، ولغيرهم ، ترداده ، وهو :

« دخل الدخيل وسلم »

وهذا مثل يأتي أيضاً من البيئة التي كان يسودها الخوف والفرع ، ويسيطر عليها عدم الأمان ، ولا تكاد تعرف الدعة والاطمئنان ، مما يحتاج معه الانسان فيها إلى من يحميه ويحيره ليسلم ، خاصة حين يتنقل بين المدن ، وفي الصحراء . فهو إذا وجد من يحيره ، ويحميه ، سلم واطمأن ونجا مما أخافه ، وأصبح له من الحقوق والحماية والرعاية ما للمجير ، ووراء المجير فخذة وعشيرته وقبيلته . وهي صورة صادقة للبيئة التي كان يعيش فيها الناس في زمن مضى .

وبعض الأمثال - يا بني - فيها صور ناطقة يصح لنا ويحق أن ننافس بها الصور الزيتية التي رسمها الأوروبيون في معابدهم وكنائسهم ، وصاروا يفاخروننا بها ، ويدعون أن عدم وجود أمثالها من الرسوم والصور نقص في حضارتنا فهذه الصور الفكرية التي ترسمها لغتنا بمجازها وبيانها مصدر فخر لنا أكثر من فخرهم بصورهم . ان كانت ريشتهم ترسم صورة لا تعطي أكثر مما يتخيله رسامهم ، فهذا تسلط على حرية التصور والتخيل . أما صورنا فتعطي الحرية لكل فرد أن يرسم في ذهنه ما يسمعه دون تسلط من القائل . لك الحرية - يا بني - في أن ترسم في ذهنك صورة قعس في دبس : صورته وقد أدخل قدما واحدة ، أو أدخل القدمين ، أو القدمين واليدين ، أو أدخل جسمه كله . ولك أن تتصوره وقد غطس في وعاء ، أو مشى فوق حصير ، ولك أن تتخيله وقد مُسك في أول الحصير أو في وسطه ، ولك أن تتصور الدبس بقعة بحجم الدينار ، أو بحجم الكف أو تبلغ متراً .



ولك أن تتصور هذا في غرفة، أو في ردهة أو في
السطح. حتى آلة تصوير الفيديو سوف تقيدك
بمنظر واحد، أما المثل فترك لك الأفق المتسع الذي
تختاره، تخلق فيه كيف شئت.

أَيُّ بُنَيَّ !

لننتقل إلى مثل آخر نختاره من البيئة أيضاً . وقد كان سائداً في زمن مضى ، وكان فيما مضى حياً على ألسنة الناس . أما الآن فقليل من الشباب من يتمثل به . كان للحمير أهمية بين المدن والقرى المتقاربة ، وداخل المدن ، وكادت أن تكون الوسيلة الوحيدة المتيسرة لكل أحد ، للنقل داخل المدن ، وللركوب . ومن أبرز أدوارها ما كان يجري في مكة شرفها الله في موسم بعينه من ذهاب «الركب» إليها إلى المدينة المنورة : تذهب مجموعات تقطع المسافة الطويلة بين المدينتين . ولا تسل عن العناية بعدة الحمار ليكون مركباً مريحاً ، ولا تسل عن العناية بالحمار نفسه ، وتجميله بالقص والحناء ، ولهذا كان له من الأمثال ما دلّ على أهميته ومشاركته حياة الناس حينئذ . يقول المثل :

« إذا تعاندو الحمارة يابخت الركاب ^(١) »

(١) محمد صادق دياب ٥٣ .



إنه مثل معبر، ويصدق على كل بضاعة يتعاند
تجارها، ويتنافسون في انزال السعر وتقليصه، كسباً
للزبون، وقطع الطريق على الحمار المنافس.
والصورة ناطقة: زبون يقف منتظراً، والحمار
يعرضون حميرهم للتأجير، ويبدأ في النزول في
السعر حتى يصل إلى آخر ما يمكن أن يصل إليه.
ولا تمتعض - يا بني - من أن يكون المثل عن الحمير،
فالمثل لا يعرف الانتقاء، هو كشیطان الشعر إذا
«حكر» «حكم»!

والمزاودة في السعر لأي بضاعة عادة تكون في
زيادته لا في إنقاصه. يأتي من ذلك طرائف أحياناً،
أحدها ما روي عما حدث في أحد أسواق مدينة من
مدن الأندلس: كان هناك كتاب حسن التجليد
معروضاً للبيع، وكان هناك رجلان يزاودان في
السعر عليه، أحدهما في أول السوق، والثاني في
آخره، والدلال رائح غاد بينهما، حتى تعدى السعر
الحد المعقول، فذهب أحد المزاودين وكان يعرف
قيمة الكتاب المعقولة، وحريصاً على شرائه، إلى

المزاود الآخر، وسأله عن أسباب مزاولته، ومغالاته في السعر، فقال: إني لا أعرف قيمة الكتاب، ولا أعرف عنه شيئاً، ولكنّ عندي فراغ في مكتبي بين كتابين على رف منها، ووجدت أن هذا المجلد خير ما يسد هذه الثغرة.

ولماذا نذهب بعيداً - يا بني - إن المناقصات العامة في الدولة وفي غيرها تسير على نمط ما يرمي إليه المثل، فالمتنافسون المتناقصون يحاولون أن يكسبوا الصفقة بانزال الأسعار، حتى بعد ما يسمى «فتح المظاريف»، فقد يُعطى اثنان أو أكثر المنافسة العلنية ليتناقصا أو يتناقصوا، والبخت والغبطة للجهة المعلنة عن المنافسة بلا شك، والمكسب في النهاية لها. كما يؤكد المثل.

وهناك مثل آخر يبعد بك عن محيط الحمير، ويرفعك دفعة واحدة إلى بيئة أجمل، وهي بيئة الضيافة والضيوف، يقول المثل:

« إذا تحاصم الضيفان فبخت المضيف ^(١) »

(١) الألمعي: ٢١. وفي الفصحى: «إذا تحاصم اللسان ظهرت السرقة».



وهو مثل يؤدي مؤدى المثل السابق كما رأيت، إلا أنه يخفي خلفه صورة كانت تحدث في الماضي، خاصة في البيئات التي تكثر فيها «الضيفات» والمضيفون والضيوف، ويتنوعون، وقد يأتي للمضيف نوعان أو أكثر من الضيوف، ويكون في اجتماعهم في مضيف واحد ما يثير بعض الحزازات نتيجة التنافس والتفاخر، فيحلف كل واحد ألا يقيم، فيرتاح المضيف من مصاريف باهظة أعفاه الله منها، وقد يكون أعفاه أيضاً مما هو أكبر، فمثل هذه المنافسات والمشادات قد تجر إلى قتل ومقتول، فتسيل دماء، وتبدأ ثارات الله وحده يعلم بم تنتهي إليه ومتى.

أرأيت أن مثل الحمير - على ما يبدو في ظاهره - قد يكون - يا بني - أسلم من المثل الثاني الذي تعتقد لأول وهلة أنه أنظف موضوعاً وأشرف للحديث. فليس فيه قتل ومقتول، ولكننا لا نضمن هذا، فقد يكون أحد الحمارة من الذين لا يلجمون أنفسهم، فيقدم على ما لا تحمد عقباه، على كل حال يبدو أن الضيف وزبون الحمارة كلاهما سالم.

بقي استدراك على المثل الثاني - يا بني - يحسن ذكره، فالمثل يتحمل جانباً آخر ليس في صالح المضيف! ماذا لو تخاصم الضيوف على طول المكث عند المضيف، اكراماً له؟ والمنطق في جانب الضيوف، ودعنا هنا نرسم معادلة الضيافة في ضوء العرف. ضيافة الضيف اكرام، واختيار الضيف للمضيف شرف يميزه به، فما دام جانب من الضيافة اكرام، وجانب شرف، فالمنطق يقتضي أنه كلما زاد الاكرام والشرف كان ذلك أتم وأكمل، فالضيافة تؤبد ليتأبد الاكرام ويتأبد الشرف!!

أَيُّ بُنَيَّ !

« قالوا ليش لحمتك مشغته قال الجزار معرفة ^(١) »

وهذا المثل يرتكز على مجرى نفسي في الانسان، لأنه يعتمد على أمر دقيق في صلة فرد من المجتمع بآخر عن طريق آصرة عائلية، وهذه العلاقة هي التي جلبت الخطأ، خلافاً لما هو متوقع حسب مجرى الطبيعة عند من ينظر إلى ظواهر الأمور. فالجزار يتجنى على عملائه، لأنهم أقرباء له، ويتوقع منهم أن ينجلوا فيترددوا عن أن يعترضوا على سوء اللحم التي اختارها لهم من الجزء الرخو من الذبيحة، حتى أصبح «الشفغ»، وهو «السلب» الذي يصاحب بعض أجزاء من اللحم، هو المسيطر على الكمية التي اشترت. وهذا المثل يفترض أن المشتري استحي، أو لم يتنبه عندما اشترى، وتبين له الأمر عندما وصل البيت، ولعل زوجته - وهي الحريصة على التدقيق في مثل أمور المؤونة،

(١) دياب ٥٤ .



ومتطلبات الطبخ - هي التي اكتشفت الخلل في
اللحمة .

لكن ماذا يحدث لو كان هذا القريب المشتري
شرساً، وتنبّه للحمة وسوئها وهو عند الجزار، لم
يبرح المكان بعد، ولاحظ ما لاحظ، وقارنه بما وفره
الجزار لزبائنه الأبعدين، هل كان الأمر يمرّ
بسلام، أو كان القريب يعود مرة أخرى إلى الجزار؟
ماذا يحدث لو لم يقبل المشتري اللحمة؟ ولنفرض أنه
اكتشفها بعد أن وصل إلى البيت، ونبهته زوجته إلى
ما لحقهم من ضيم، وعاد إلى الجزار، وناقشه
مناقشة ربما أدت إلى قطع صلة الرحم بينهما. ولكنّ
الجزار لن يعدم العذر الذي يمكن أن يقدمه للرجل،
فالذي يتعمد الخطأ عادة يكون قد هيا العذر أولاً؛
ألا ترى - يا بني - أنّ السارق الذكي، قبل أن يدخل
البيت يحتاط في معرفة طريق الهروب، واعداد
العذر فيما لو تعذّر عليه الافلات، فقبض عليه .

ومن يدري - يا بني - فقد يكون «الشّغت» قد
تسبّب في قطع العلاقات القائمة بين جزار وقريبه،



أو صديقه، لأن المعرفة قد لا تكون مبنية على صلة رحم، وإنما على صداقة، أو على ما هو أقل من الصداقة. ومع كل هذا فقد يكون في الأمر، مما يعذر عليه الجزار، مما لم يخطر على بالنا، فقد يكون القريب هذا يشتري اللحم بالدين، فلا يستطيع أن يعترض على سوءها، وإلا قيل له:

« طواف ويتنوق^(١) »

أي شحاذ ويتدلع أو يتشرط. وقد يكون الجزار أراد أن يفقده زبونا، لأنه ليس حريصاً على معاملته، فقد يكون من الذين لا يوفون الدين، أو يماطلون في الوفاء، ولأنه معرفة لا يستطيع الجزار أن يمتنع عن البيع عليه، ويجابهه بأسباب ذلك، وإنما يريد أنه أن يملّ فيبحث عن جزار آخر، ويكسب الجزار زبونا غيره.

على أي حال المثل قائم، ويصدق على حالات كثيرة، وإذا لم يصدق مستقبلاً على الجزار،

(١) أحياناً يأتي التعبير هكذا: «طواف ويتنوق».

فسيصدق على غيره ممن يمكن أن ينطبق عليه المثل .
ويمكنك استعماله فيما لو لم تجد المعاملة الحسنة مع
قريب لك ، أو صاحب . فإن أحضرت دهاناً قريباً
لك ، ليدهن جدار بيتك ، فلم تجده اعتنى ، فالمثل
بين يديك ، تمثل به ، وخذ منه الحكمة ، وإن وضع
لك قريبك المهندس تخطيطاً لم تجد أنه أعطاه الجهد
اللائق به ، فتمثل بهذا المثل ، وهكذا مع كل مثل
أدى إلى معاملة من النوع الذي ذكرنا .

وعلى ذكر الجزار - يا بني - يبدو أن هناك طبيعة
غير محمودة حول الجزارة ومهنتها ، وما يتصل بها من
أمور ، « فابن الجزار » الشاعر - وكان قد التحق ببلاط
أحد سلاطين المماليك على ما أظن - ساعده شعره
على أن يبتعد عن الجزارة والذبح ، وهي مهنة انتقل
منها لعدم نظافتها إلى مهنة لا تقبل إلا النظافة .
وبعد التحاقه ببلاط السلطان ، وبقائه فيه فترة
طويلة ، اشتاق معها إلى أن يزور زملاءه في المهنة
القديمة ، ويجدد العهد بهم ، فزارهم ، وجلس عند
أحدهم في دكانه ، يجاذبه أطراف الحديث عن



ذكرياتهما القديمة . وعندما أراد الانصراف فكر أن
يشترى لأهله لحمه من صديقه الجزار، فقال له
الجزار: قم واقطع لنفسك ما تريد . فأخذ يقطع
أسوأ ما في الذبيحة، فدهش منه صاحب الدكان،
وسأله عما إذا كان نسي الصنعة، فقال الشاعر: لا،
ولكني عندما وقفت أمام اللحم أدركتني لآمة الجزار
فنسيت أنني مشتر، وظننت أنني بائع، فاخترت أسوأ
ما أمامي .

لنترك - يا بني - هذا المثل مادام فيه رائحة لؤم،
فهو ليس أحسن وقعاً على الأذن من سابقه .

أَيُّ بُنَيَّ !

قد اقتربنا بالمثل السابق من ربة البيت ، فلنعطها من حقها ما هو أكثر ، لأنَّ لها أمثالاً لا بدَّ أنها نبعت منها ، فمحيطها يؤثر عليها كما يؤثر على الرجل ، ولها من العقل والتفكير ما يجعلها تصوغ تجاربها حكماً وأمثالاً يتمثل بها ، وفيها من الدقة والأحكام ما تسبق به غيرها في استنجاد الذهن بها عند اللزوم .

لا بدَّ أنها هي قائلة المثل الآتي :

« في الوجه مراهيه وفي القفا سلاية ^(١) »

وهذا وصف لإحدى النساء اللاتي عرفن بالنفاق ، فالواحدة منهنَّ في مقابلة امرأة أخرى تمدحها ، وتبدي لها من الابتسام والتودد ما يماثل المرأة المجلوة في صفائها ، وعندما تتحدث عنها في غيابها تسلقها بلسان حديد . فهي على هذا ذات وجهين ، وهي صفة غير حميدة ، ويُعاقب عليها المتصف بها في الآخرة عقاباً شديداً ، وفيها من

(١) السباعي : ٦١ .



الأحاديث المحذرة ما يوقف شعر الرأس تأثراً ورعباً.

وإذا أردت - يا بني - شيئاً عما قيل في الغيبة والنميمة، ونظرة الدّين إليها، ونظرة الحكماء والمفكرين، ونظرة المجريين والمتبصرين، ونظرة الكتاب والشعراء، فاقراً ما ورد عن الغيبة والنميمة في كتاب «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصبهاني^(١).

ففيه مثلاً عن النبي - ﷺ - أنه قال لمن تكلم عن غائب: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتهُ، وإن لم يكن فقد بهتُهُ». وقيل إن الغيبة، «مرعى اللثام وجهد العاجز». وقال رجل لابن سيرين: قد نلت منك، فاجعلني في حل. فقال: لا أحل ما حرم الله عليك. وقال المتوكل لأبي العيناء ما بقي أحد إلا اغتابك. فقال:

إذا رضيت عني كرام عشيرتي
فلا زال غضباناً علي لثامها

(١) الراغب الأصبهاني، ص ١٥٧، وما بعدها.



وقال المتنبي في هذا الاتجاه :

وإذا أتتك مدمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني كامل
وقيل من رمى الناس بما فيهم رموه بما ليس فيه .
وقيل بحثك عن عيوب الناس يدعو إلى بحثهم
عن عيوبك .
وقال الشاعر :

ومن دعا الناس إلى ذمه
ذمّوه بالحق وبالباطل
وقال الشطني :

لا تكشفن من مساوي الناس ماستروا
فيهتك الله سترًا عن مساويكما
ولا يكفي في الاثم أنك تغتاب الناس ، بل
يلحقك الاثم إذا استمعت للنميمة أو الغيبة ،
فتلحقك الملامة عندما تصغي ، لأنك تشجع
المغتتاب على فعله . قال عمرو بن عيد لرجل يستمع



إلى آخر بغتاب : ويلك ! نزه اذنك عن استماع
الخنأ، كما تنزه لسانك عن النطق به . وقال الشاعر
في هذا :

وسمعك صن عن سماع القبيح
كصون اللسان عن النطق به

وهناك - يا بني - من أوقف النميمة ، ورد الساعي
بها ، لعقله وطول تجربته : دخل رجل على عبدالملك
ابن مروان ، فقال : هل من خلوة . فأقبل عبدالملك
على أصحابه وقال : إذا شئتم . فقاموا . فقال له
عبدالملك : اسمع ! لا تمدحني في وجهي ، فاني
أعرف بنفسي منك ، ولا تكذبني فليس لكذب
رأي ، ولا تسعين بأحد إليّ . فقال الرجل :
أنصرف ؟ قال : إن شئت . فقام وانصرف .

ورفع رجل قصة إلى أنوشروان : أن رجلاً من
العامة دعاه إلى منزله ، فأطعمه طعام الخاصة . فوقع
في قصته : « قد حمدنا فعلك فيما تأتيه ، واذمنا
صاحبك لسوء اختياره لمن يواخيه » .



ووقع طاهر بن الحسين في رقعة متنصح : «قد سمعنا ما كره الله، فانصرف لا رحمك الله».

ونعود مرة أخرى إلى المثل الذي أبعدنا عنه فنجد عند التفكير أنّ النساء رغم أنّهن يكرهن هذه العادة القبيحة عند غيرهن إلا أنّهن مغرمات بها ضدّ الأخريات، فلا تكاد تجد مجلساً لهن دون أن يكون للغيبة نصيب منه. وليس هذا وقفاً على النساء، بل إن الرجال ليأتون من الغيبة ما تأتي النساء، ويبدو أنها جزء من طبيعة البشر، وإلا لما نهى عنها هذا النهي القوي، فالدين والحكماء والعقلاء لا يلتفتون التفاتة قوية للتهذيب والتشذيب إلا إذا كان الاغوجاج قوياً.

وهو مثل يصلح لكثير من المواقف التي يقابلها الانسان في الحياة وتتسم بالتناقض، وعدم الثبات.



[٤٧]

أَيُّ بُنَيٍّ !

ما دمنا قد دخلنا حمى ربّة البيت ، فلن نكتفي
بمثل واحد ، لنثبت ما قلناه من أن مشاركتها في نتاج
الفكر لا تقل عن زوجها أو أخيها . فهناك مثل
يقول :

« قالوا يا جحا زوجة أبوك تحبك

قال ليه (هي) اتجننت ^(١) »

والمثل يصور ما يدور في أذهان الناس عن زوجة
الأب مع أبناء زوجها من امرأة أخرى . ولا
يستثنون من النساء إلا القليل النادر ، وإلا فكلهن
في نظر المثل يستن لأولاد أزواجهن من زوجات
أخريات . فزوجة الأب يتواتر عنها إيذاء ابن الزوج
أو ابنته من امرأة أخرى . فإن كانت زوجة الأب
ليس لها أولاد فأذاها لهم يأتي من حقدها لحرمانها
منهم . وإن كان لها أولاد ، فلأنهم يزاحمون

(١) دياب : ٣٦ ، السباعي : ٦٦ .

أولادها، في عطف أبيهم، وحنانه، وماعنده من خير لعائلته. ويثقلون عليها بخدمتهم، ورعاية شؤونهم. هذا خلاف ما تفكر فيه من أنهم سوف يشاركونها وأولادها في ميراث والدهم عند وفاته. ويتمثل بهذا المثل عند التعبير عن الاستحالة، لأن امرأة الأب، فيما هو متواتر عنها من بغض لابن زوجها، إذا أحبته فهذا، لاستحالته، لا بد أن وراءه سبب غير عادي، ولا بد أنه أقوى الأسباب غير العادية، وهو الجنون.

وهو مثل - كما ترى - يا بني - مأخوذ من البيئة، ويمثل جانباً منها. وكان الآباء كثيراً ما يتزوجون زوجات بعد زوجاتهم الأول، ولعل كثرة ذلك في ذلك الزمن ناتج عن كثرة الأمراض، وموت الزوجات. أو موتهن في أوقات الولادة وتعسرها. وهذا لم يكن قليلاً، في زمن كانت وسائل الصحة والمستشفيات لا تعرف. وما وجد من وسيلة صحية، يمكن أن تساعد الولادة، لا تذهب النساء إليها، لأن هذا يعتبر عيباً. وتعيث المولدات أحياناً



بالنساء لجهل المولدات بأصول التوليد، خاصة عندما يكون هناك مشكلة، وتعسرت الولادة.

وزمننا لا يخلو من شيء من هذا القبيل، ولكن النسبة أقل، ولعلها لا تشكل مشكلة يمكن أن توحى بمثل.

ولما يتصور - يا بني - من قسوة زوجة الأب أحياناً، وردت في أمثالهم - كما رأيت - ووردت في أقوالهم، مثل:

« عطاء مرت أبو » (أي زوجة الأب)

وعطاؤها يكون مغشوشاً، أو ناقصاً، أو فيه ظاهراً مالا يحمد باطنا.

« عطف مرت أبو »

أي أن عطفها رياء ونفاق، وتبدي العطف أمام زوجها، فإذا غاب سامت البنت العذاب، وأرتها - كما يقولون - نجوم الليل في وضح النهار.

ووردت في قصصهم، ومن أبرز ما ورد في القصص الشعبي، قصة «القطيعة»، ويمكنك أن

تقرأها في كتاب «أساطير شعبية» للأستاذ عبد الكريم الجهمان^(١)، وتأتي بصور مختلفة ولكنها تلتقي في المنحنيات الرئيسية من أغراض القصة. وملخصها أن هناك رجلاً ماتت زوجته وله منها ابنة، ثم تزوج أخرى، وجاءه منها بنتان. وقد بدأت تظهر قسوة الزوجة الثانية لابنة زوجها بعد أن رزقت بالبنتين. أرتها أنواع العذاب والاحتقار، واستعدت والدها عليها. وصارت تلقي عليها اللوم في كل خطأ، وتوكل إليها أعمال البيت من طحن وتنظيف وغسل وكنس.

وفي يوم من الأيام صاد والدها ثلاث قطا من البرية، وأحضر لكل واحدة من بناته واحدة منهن. وفي غفلة من الجميع، وفي مكان لا يسمع فيه الحديث تكلمت القطاة مع زينب، وهذا هو الاسم الذي أعطاه الأستاذ عبد الكريم لابنة يتيمة الأم، وأخبرتها أن لها أولاداً سوف يموتون جوعاً وعطشاً،

(١) أساطير شعبية ٣١/١٠، وهي السبحونة أو السبحونة رقم

(٢) قارن قصة القطية بقصة «ساندريلا» في أدب الغرب.



وأنها إن أطلقتها فسوف لا تنسى لها معروفها، و تكفلت أن تتلقى عنها ضرب والدها عندما يعلم أنها أفلتتها فيضربها. وسوف يأتي يوم ترد فيه لها الجميل. وقد رقت زينب لحالها، وأطلقتها، وضربها والدها بتحريش وتحريض من امرأته وبنتيها. ولكنها لم تحس بالضرب.

وكان في بلدتهم ملك ليس له إلا ولد واحد، وكان حريصاً على أن يزوجه بأجل بنت في بلده، ولأجل هذا أقام دعوة واحتفالاً لجميع العائلات اللاتي لهن بنات في سن الزواج. وكانت عائلة زينب ممن حرص على حضور هذه الحفلة. إلا إن امرأة أبيها رأت حرمانها من هذا الشرف. وكلفتها بطحن الحب. ورضيت زينب بذلك لعدم طموحها إلى غير ذلك، فلا مظهرها يساعدها، ولا ملابسها تليق. ولكن «القضية»، بعد أن ذهبت امرأة أبيها وبنتاها إلى الحفلة، جاءتها، وأقنعتها بالذهاب متخفية بملابس جميلة سوف تحضرها. وفعلاً أحضرتها لها، وأعدتها وجملتها، وأحضرت لها عربة



ملكية، وأوصلتها إلى الحفلة، وكانت محط الأنظار. أما أختاها وأمهما فقد انزوين دون أن يتنبه لوجودهن أحد. وعندما رأينها لم يعرفنها، وأعجبنا بها مثل الآخرين. ولما رأها الملك وابنه قررا أنها أنسب واحدة بين الموجودين، لتكون زوجة لولي العهد.

وبعد انتهاء الحفل، وفي وسط الازدحام، أضاعت زينب إحدى فردي حذاءها، ولم يكن لديها وقت للبحث عنها، لأن عليها أن تعود بسرعة إلى البيت، وتخلع ملابسها الجميلة، وتلبس أسماها البالية. أما الطحن فقد تكفلت به القطية. وتبين أنه لا أحد يعرفها ممن حضروا الحفل، ولم يجدوا أي أثر يمكن أن يدل عليها. ولهذا فرح الملك وابنه عندما وجدوا أنها نسيت فردة الحذاء. ووكلوا أمر البحث عن صاحبة الحذاء إلى امرأة دلالة، تدخل البيوت دون أن يلفت دخولها الأنظار.

فبدأت الدلالة طوافها بالبيوت كالمعتاد، وبطريقة غير مفتعلة كانت تقيس الحذاء على أقدام



الفتيات . واستمرت على ذلك أياماً ، دون أن تكلّ أو تمل ، ولم تجد قدماً في مقياس الحذاء . ولم يبق إلا كوخ صغير عند نهاية المدينة لا يتوقع أن صاحبة الحذاء فيه ، ولكنها لم تيأس ، ودخلت البيت ، وقامت بقياس الحذاء على الفتاتين ، ووجدت صعوبة في الاحتيال على زينب ، حيث إنهم لم يحضروها مع اخواتها . ولكن الدلالة نجحت في هدفها . ولدهشتها تبين أن الحذاء كأنه فصل تفصيلاً على قدمها .

وباختصار أخبرت الدلالة الملك ، وأرسل من يبيء العائلة لشرف المصاهرة ، وتم زواج زينب الطيبة التي لم تعامل امرأة أبيها وأختها إلا معاملة حسنة .

هذا - يا بني - هيكل القصة ، وإن أردت تفاصيلها ، وأبازيرها الشهية ، فارجع إلى كتاب الأستاذ عبدالكريم الجهيمان فهو روضة غناء ، وما هذه إلا زهرة واحدة فيه ، ولكنها زهرة فواحة . والأستاذ عبدالكريم الجهيمان رائد في هذا المجال لم



يسبق إليه بهذه الصفة، وقد بدأه وأتقنه . ومجوده
فيه مجهود مضمّن وشاق، ولم يكن لأحد غيره أن يقوم
بما قام به، فالكفاية اللازمة لهذا قد لا تتوفر لأحد
سواه .



[٤٦]

أَيُّ بُنَيَّ !

من الأمثلة الحكيمة قولهم :

« اقرأ ياسين وببيدك حجر^(١) »

يقال هذا المثل لمن لا يراد منه أن يتكل فقط ، ولكن مع الاتكال يسعى ، اتباعاً لقول رسول الله ﷺ - : « إعقلها وتوكل » لمن سأله أيعقل ناقتة أم يتوكل . ولعل المثل نحت من منظر يمثل عدوا مقبلاً على شخص ، هذا العدو حيّة كان أو عقرباً ، أو حيواناً شرساً . أو انساناً شريراً يريد الأذى به . فالمثل يحثه على ألا يكتفي بقراءة سورة ياسين ، يتعوذ بها من الشر المقبل ، وإنما يحتاط بسلاح آخر وهو الحجر ، فإذا لم يتوق شر العدو بالقراءة يصبح الحجر معداً لاتقاء الشرّ به ، لأن القراءة قد لا تكون من الرضا بحيث تقبل منه . وقد لا يكون ذهنه حاضراً لها ، فيردّها دون التأمل والتدبر المطلوب .

(١) العبودي ١٢١/١ .

وهذا يذكر بما قاله الشعبي ، وهو العالم الفكه
الساخر عندما مرَّ بآبل قد فشا فيها الجرب ، فقال
لصاحبها : أما تداوي إبلك . فقال : إن لنا عجوزاً
نتكل على دعائها . فقال : إجعل مع دعائها شيئاً من
القطران^(١) .

وهذا المثل - يا بني - يأتي كثيراً على ألسنة الناس
في بعض المناطق ، ويمثل مثل غيره البيئة التي أخذ
منها ، ويوحى بمدى إيمان من يخاطبهم صاحب
المثل بتأثير القرآن على ما قرىء له ، والتوجه ، إذا
حزب أمر ، إلى كلام الله تقرباً به إليه - سبحانه
وتعالى - والرسول - عليه الصلاة والسلام - خير من
يُبصر الناس بدينهم ، وما ينفعهم وما يضرهم ،
ولهذا هدى السائل إلى التزود بالأمرين : أن يعقل
ناقته وأن يتوكل على الله في حفظها ، فالتوكل له ثوابه
لأن فيه مظهر الايمان بالله الذي لا يحفظ إلا هو . أما
العقل ففيه مظهر أخذ جانب الحيطة والحكمة تجاه
أُمور الدنيا ، وما تحتاجه من حزم ، وحسن تدبير .

(٢) محاضرات الأدباء ٨ .



والعقال وحده لا يكفي ، فقد تقطعه الناقة ، وقد يحلّه معتد ، ولكن الله يحفظ من هذا وذاك ، إذا قبل توكل المرء عليه .

وكلمة «الحَجَر» توحى بأن العدو المحذر منه يكفي فيه في الغالب سلاح مثل الحجر . فإذا صح ظننا في أن يكون حية أو عقرباً أو كلباً فهذا منظر مألوف في بيئتنا في أي أرض في المملكة العربية السعودية ، وإذا كانت الحيات والعقارب اليوم قد انكفّت عن المدن والقرى التي دخلها العمران الحديث ، وتمهيد الطرق ، وشاع فيها استعمال المبيدات ، وأنواع وسائل مكافحة الحشرات ، وما إليها ، فإنها لا تزال على ضفافها في الضواحي ، وفي الصحراء القريبة ، ولا بد لأي طارق للصحراء أن يكون رأى منها شيئاً يعطيه صورة ما أوحى بالمثل لقائله .

وإذا كانت الحيات في بعض مناطق المملكة قليلاً ما ترى في الماضي في الشوارع الترابية أو في البيوت ، فإن العقارب كادت أن تكون مستأنسة من كثرتها ،

خاصة في المواسم التي تكثر فيها، وتتوالد في الشقوق، وفي زوايا البيوت المظلمة، والمخازن شبه المهجورة، ومنها تنطلق تعيث في البيوت. فلا يمر يوم - رغم حذر الناس ويقظتهم - دون أن تسمع بضحية لأحداها؛ يساعد على ذلك قلة لبس الناس للأحذية، لركة حاهم، ولأنهم يفضلون الخشونة، ويساعد عليه أيضاً عدم اهتمامهم بحمل سراج يبصرون به طريقهم، وعدم الاهتمام تعودوا عليه، لأن فيه صرفاً قليلاً منهم من يستطيع مقابله.

ومن المناظر المألوفة في الماضي - يا بني - أن ترى ملدوغاً يسعى إلى من يقرأ على رجله أو يده. أو يبحث عن خرزة العقرب، وهي حجر كريم يكون في حوزة بعض الناس، يُعتقد أنه يساعد على مص السم، أو إيقاف سريانه. وكثيرون ممن يعرفون الأمور يعتقدون أنها ناحية نفسية، وإذا صح أن هناك حجراً في يوم من الأيام أفاد فلأن فيه من الخواص الكيماوية ما ساعد على ذلك، فليس كل حجر يفيد. ويحرصون - يا بني - على أن يضعوا



ريالاً من الفضة على مكان اللدغة ويشعرون
براحة، وقد يكون للفضة مفعول مفيد. ونترك
الأمر - يا بني - للأطباء والكيماويين. والأفضل أن
نلجأ نحن من اللدغات إلى ما هو حديث، وهو
ربط نهاية العضو جيداً، حتى نعوق سير السم مع
الدم، ونُشرط مكان اللدغة، ونمص السم، بشرط
أن لا يقوم بذلك من في فمه أو شفته جرح، حتى
لا يتسرب منه السم إلى دم الصحيح، ونكون كأننا
جلبنا الداء عن طريق الدواء.

ويمكنك أن ترجع - يا بني - إلى بعض ما قلناه
عن أحد المتظاهرين بأنه ملدوغ في كتاب «أي
بني»^(١) وفيه بعض ما هو طريف. والمثل الثاني وهو
جزء من الحديث الشريف: «إعقلها وتوكل» له
صورة في الماضي، ولا تزال باقية في البادية، وهي
عقل يد البعير، حتى لا يترك مكانه ويبتعد أو
يضيع. والعادة أن البعير إذا برك تعقل واحدة من
يديه، ويكتفى بهذا. وهذا لا يمنعه من أن ينهض،

(١) أي بني، ج ١، ص ٢٥٤.



ويسير قليلاً ، ولكنه لا يتباعد كثيراً ، ويمكن صاحبه
تتبعه لبطء سيره . وأحياناً يعقل بيديه الاثنتين ،
وهذا يعوق سيره تماماً فيما لو أراد المسير . ونادراً ما
يعقل بأكثر من ذلك .

ولا أدري - يا بني - إذا كان هناك علاقة بين عقل
البعير والعقال الذي نلبسه . وإذا كان عقل البعير
يمسكه ويحكمه فالعقال الذي على الرأس يمسك
«الغتر» ويحكمها ، فلا يعبث بها الهواء . وفي زمن
مضى لا يستغرب أن يحل الأعرابي عقل البعير ،
ويضعه على رأسه ، ليمسك بغطاء رأسه أمام
الرياح والعواصف ، ثم عندما ينيخ جملة مرة
أخرى ينزعه ويعقل به البعير . وعقال البعير هذا
غالباً ما يكون من صوف مجدول ، أما ما نلبسه فهو
من صوف مبروم . ثم هل يا ترى للاثنتين ارتباط
بالعقل الذي يمنع صاحبه من كثرة الزلل . الله
أعلم ؛ لأنك أحياناً تقول لشخص : عقل فلان ، إذا
رأيت شخصاً يتصرف تصرفاً منافياً لقواعد العقل .
والعقل هنا يعني التهدة والتسكين ، والتهدة



والتسكين هما أحد هدي عقل يد الجمل . وأترك
هذا الجانب لك لتتبع كلمة عقل ومشتقاتها ، وما قد
توصلك إليه . وحبذا لو رجعت إلى المعاجم ، فقد
تجد فيها ما هو مفيد وطريف .

وإذا أردت أن تعرف مزيداً عن الجمل ففي
الجزء الأول من «أي بني»^(١) ما قد يفيدك ويسليك .

وقد تجد - يا بني - بين الناس من يخالف مبدأ
الاتكال والعمل ، ويقتصر على الاتكال ، كسلا ،
واعتماداً على مثل براق ، أعطته السجعة جاذبية
كاذبة . وهي سلاح للشيطان قوي ، يهدم به
المجتمعات إذا جاءت مدسوسة على السامع ،
فسحرتة ، وأنسته ما عليه من إعمال عقله ، مثل
خضراء الدمن . وهذا المثل يقول :

«أحط خدي على ايدي وأقول
هذا قضاء سيدي»

(١) أي بني ، ج - ١ ، ص ٥٠ .



التسليم لقضاء الله واجب، ومن صميم
العقيدة، ولكن الاستسلام للنوائب، وعدم العمل
على إزالة آثارها، تقاعس عن العمل، وتهاون في
صرف عافية الانسان عما خلقت له.

أَيُّ بُنَيَّ !

ننتقل إلى نوع آخر من أمثالهم التي تدل على بيئتهم ، وترسم صورة حياتهم في مجتمعاتهم . وهذا المجتمع له مظاهر تختلف عن عصرنا ، وقد لا يتصورها شباب اليوم ، وإن فعلوا فبصورة باهتة :

« الشَّقَّ أَوْسَعُ مِنَ الرَّقْعَةِ ^(١) »

وهو مثل يكاد - يا بني - يلمس كل انسان في ذلك الزمن ، فالناس في تلك الأيام أهل كد وكدح ، ويغلب على أكثرهم الفقر ، ويلبسون الثوب مدة طويلة ، قد تصل إلى عام . فيبلى الثوب في أماكن ، فيرقع . وأحياناً يكون التمزق من السعة بحيث لا تكفيه الرقعة المتوافرة ، فلا ينفع فيه الرتق ، ويبقى الخرق على ما هو عليه ، وهو مرادف للقول العربي الفصيح :

« اتَّسَعَ الْخَرَقُ عَلَى الرَّاقِعِ »

(١) العبودي ٦٩٢/٢ .

والمثل يؤتى به عندما يكون هناك أمر يحتاج إلى معالجة خلل ، وتكون الجهود قاصرة عن أن تأتي بالنتيجة المطلوبة .

والانسان في هذه الحياة معرض أن يكون في موقف يجد أن جهوده تقصر عن أن تتساوى مع ما يُنجح الأمر ، ويوصل إلى الهدف ، سواء كان ذلك في جلب نفع ، أو دفع ضرر ، فالطالب الذي لم يوفق في الامتحان في عدد كبير من المواد إما لمرض أصابه ، أو لظرف آخر تعرض له ، أو لإهمال لم يتغلب عليه إلا متأخراً ، إذا قيل له يمكنك أن تتدارك الأمر في الدور الثاني ، والقائل لا يدري عن عدد المواد التي ينوء بها كتفه ، وهي كثيرة ، فإن الشَّقَّ عنده أكبر من الرقعة . والتاجر الذي لحقه دين ، وظن آخرون أن بإمكانه ، لما لديه من مال قليل ، أن يقابل الدين ويدفعه ، فإن المثل بين يديه ليشرح لمن حوله أن الشَّقَّ أكبر من الرقعة ، وهكذا كل أمر مقابله أكبر من أن يفي به المجهود أو الامكانيات .



وليس بعيداً عن التعبير المثل الذي يقول :

« بالفخ أكبر من العصفور^(١) »

تصور - يا بني - مصيدة وضعتها لتصيد جربوعاً، فوجدت فيها ثعلباً شرساً. أو مصيدة لثعلب وجدت فيها ذئباً يسناً أضراسه، أو مصيدة لذئب ووجدت فيها أسداً. كيف ينجو من جاء مؤملاً أن يجد شيئاً صغيراً فوجد شيئاً كبيراً. لعل من وضع المصيدة، وأخذ منها المثل، ومما جاءت به من غنيمة سيئة، وكان نصبها فعلاً لعصفور، فوجد فيها حداة، خيبة الأمل عنده ستكون كبيرة، ومعها هم تخلص المصيدة من براثن الحداة ومنقارها، لا تخلص الحداة من المصيدة؛ يمكنك حينئذ أن تتصور ما يدور في ذهن الفلاح مثلاً الذي قال هذا القول.

فهذا المثل - كما رأيت، يا بني - يضرب للأمر يظن صغيراً، فيتبين أنه كبير جداً، ويأتي إليه

(١) العبودي ١/ ٢٤٨ .



قاصده مؤملاً باقبال ، فيفاجأ بها يضطره أن يتراجع
بخيبة . وذكرت لك - يا بني - الفلاح هنا ؛ لأن
نصب الفخاخ عنده أو عند أبنائه عمل يومي . ترى
هذا المنظر في مزارعهم ، إما لكسب وجلب منفعة ،
أو لدفع ضرر ، واتقاء شر ؛ أما لصيد طائر يؤكل
لحمه . أو ثعلب يتقى شره ؛ وشره أحياناً يسلط على
دجاج الفلاح ، يغير عليها ليلاً ، أو وقت القيلولة ،
وقت هدأة السواني ، وسكون الحركة . وللذئب
على الفلاح غارات - يا بني - تهاجم أغنامه وحميره .
وللجرذان صولة على محاصيله ، وعبث في عشته
وسكنه .

أَيُّ بُنَيَّ !

إذا كانت الأمثال كما هو مفهوم، حصيلة عقول ناضجة، ولا يتصور - في المعتاد - أن تأتي من ناقص عقل، فهناك أمثال تجبر «خاطر المجنون»، فتأتي عنه. بل وتبجله، وترفع مكانه، وتعلي قدره على العقلاء، أليس المثل الآتي يرمي إلى ذلك :

« **صَلَّ المَهْبُولُ عَلَى المَهْبُولِ** ^(١) »

وصله عليه أي سلطه عليه. والصل في الغالب يستعمل في العامية لإفراغ وعاء إفراغاً كاملاً، بحيث ينكس الوعاء المراد إفراغه فلا يبقى به شيء. والصورة تكاد تلمس لمساً من بيانها ووضوحها، وهي أيضاً جميلة. والخيل المنحدرة من مرتفع على العدو يقال لها بالعامية : «منصلة».

والمثل يؤدي معنى : «لا يفل الحديد إلا الحديد». وفيه ما يومي بأن حل مشكلة ما يجب أن يكون من نوعه، وبما هو من طبيعته. ولهذا

(١) العبودي ٧٣٣/٢ .

- يا بني - قال ابن عمر عندما لطمه أعرابي ، فقام إليه رجل فجلد بالأعرابي الأرض : ليس بعزيز من ليس في قومه سفیه^(١) . فابن عمر لم ينزل نفسه منزلة الأعرابي ، وكان من بين الجالسین من وجد أن بامكانه أن ينحدر إلى مستواه ، فجلد به الأعرابي ، وما فل الحديد إلا الحديد . وصلّ المهبول على المهبول .

والمجانين - يا بني - في زمن مضى كانوا يختلطون بالناس ، ويتحمل الناس أذاهم ، عندما يتعرضون لمضايقتهم . والمجنون أيضاً - بقدر جنونه - يعاني من الناس ، وقليل منهم من يرحمه ، وهو في كثير من الأحيان لا يرحم الناس ، ولا يرحم نفسه ، ولا يرحم أهله ، ولكنه - يا بني - لا يحاسب ؛ لأنه فقد الجوهرة التي تساعد على التمييز بين الصحيح والخطأ ، والمفيد من الضار ، والممكن من المستحيل ، والمقبول من المحذور .

واليوم الذين هم في قلة من عقل ، والذين هم في

(١) محاضرات الأدباء ٩٦ .



نقص من الادراك ، واهتزاز في الحالة النفسية ، لهم أطباء ، وعيادات ، ومستشفيات ، واخصائيون ، ولهم أدوية ، ويُجرى لهم فحوص ، ومراقبة تدون نتائجها أولاً بأول . وتتطور العناية بهم مع الوقت ، وتحسن الرعاية التي تعطى لهم . ولا ينال الناس منهم أذى في الغالب . ولا يشعر بحالهم إلا معالجوهم ، وأهلوهم . لطف الله بنا وبهم .

ولعلك كالعادة - يا بني - مشتاق إلى قصة في هذا المجال ، وهي قصة تنطبق تماماً على المثل الذي سقناه ، وكأنه لم يوضع إلا في ضوئها ، أو هي فصلت عليه :

خطف مجنون طفلاً ، وصعد به إلى أعلى منارة أحد المساجد ، وتجمع الناس تحت المنارة ، وكلما اقتربوا من بابها هددهم بأنه سوف يقذف بالطفل من أعلاها . فاحترار الناس ، وزاد عددهم مع مرور الوقت ، وهم لا يدرون ما يفعلون . والطفل في رعب ، وأهله في هلع ، وقلوبهم في وجيف ، وأعينهم مملأى بالدموع ، والناس في قلق ويأس ، وهرج

ومرج . وقد ركز الناس ، أعينهم عليه ، ومسكرا
أنفاسهم ، يدعون ربهم ، ويبتهلون إليه ، أن ينهي
الأمر بسلام .

وبينما هم كذلك ، إذ اخترق الصفوف فجأة
مجنون آخر ، وسفهمهم على وقوفهم دون أن يجدوا
حيلة في إنزال الطفل ، وإنقاذه من براثن هذا
المجنون ، فلما رأوه وكان بيده منشار كبير ، ظنوا أنهم
بلوا بمصيبة أخرى مع مصيبتهم . ثم أمرهم أن
يبتعدوا عن المنارة ، حتى يبرز فيراه المجنون الأول .
فلما ابتعدوا ، أصبح في الميدان وحده ، نادى
المجنون الذي على الأرض المجنون الذي في أعلى
المنارة ، وأراه المنشار ، وهدده إن لم ينزل الطفل سالماً
حالاً فإنه سوف ينشر المنارة ، ويسقطه إسقاطاً ؛
فدعر المجنون - خاطف الطفل - وأخذ يتوسل
للمجنون الثاني ، الذي على الأرض ، ويرجوه ألا
يفعل . وبدأ ينزل فعلاً ، ومعه الطفل . وانتهت
المحنة ، التي خيمت على الناس ، بحيلة مجنون على
مجنون . ألم يقل المثل : صل المجنون على المجنون ؟
لقد صدق المثل .



[٤٥]

أَيُّ بُنَيَّ !

من الأمثلة التي يمكن - يا بني - أن تعرف بيئتها
المثل الذي يقول :

« مثل رَضَاخ العَبَس يوم مابقي إلا وحده هَوْنٌ ^(١) »

«ورضَاخ العَبَس» هو الذي يكسّر نوى التمر .
و «هَوْنٌ» يعني «أقلع» أو اعتذر أو «بَطْلٌ» . وبهذه
المناسبة - يا بني - نوى التمر له أسماء محلية يختلف
بعضها عن بعض ، فهناك من يسميه «فَصِي» كما هو
في الحجاز ، وهناك من يسميه «عَبَسٌ» وهذا في
القصيم ، وهناك ما يسميه «فِصَم» في مناطق أخرى
من نجد ، وهناك من يسميه كما سمعت «عَجَم» كما
في الجنوب .

وتعرف من هذا المثل أنه أخذ من بيئة فيها نخل
وتمر ، وكان العَبَس في الزمن القديم له قيمة ، وله
أهمية اقتصادية ، فهو يباع علفاً للبهائم ، ويقال إنه

(١) الجهميان ٣١٥/٧ .

مما يكثر لبنها ويدره، وكانت بعض المجتمعات تقايض به، وتبيع وتشتري. أما الآن فقد فقد النوى هذه القيمة، ولم يعد أحد يهتم به؛ لأن مستوى الناس الاقتصادي اختلف، ولأن هناك من الأعلاف ما هو أقل كلفة، وأكثر نفعاً للحيوان، وعنده له من الشهية ما ليس عنده للنوى. وليس في الأعلاف الحديثة اجهاد على صاحب الحيوان، فهي تأتي جاهزة مهيأة، لا تحتاج إلى نار وغلي، ولا تكسير أو تنقية. ومن يعلم! فهذا النوى الذي لا يُعبأ به اليوم، ولا يلتفت إليه، قد يقوم حظه على قدميه، ويستوي على ساقيه، ويكتشف أن فيه دواءً لبعض الأمراض لا يوجد إلا فيه؛ حينئذ سيتغير حاله، ويرتفع مقامه، ويعلو سعره، ويطلب أينما كان، بل ربما تعز النخلة به عزاً يزيد عما هي عليه اليوم، فادع الله - يا بني - معي، أن يعلي شأنه، ويرفع قدره.

وهذا المثل - يا بني - يقوم كما قد تتوقع - على قصة، وهي أن رجلاً استأجر آخر، ليكسر له كيساً



كاملاً من العبس ، مقابل مبلغ من المال . والنوى - يا بني - عادة يكسر نصفين أو ثلاثة أجزاء أو أكثر؛ ليسهل طبخه غذاء للحيوان ، كما قلنا . ولعله كان ينويه علفاً لبقرة حلوب ، أو عنز على وشك الولادة . وبدأ العامل العمل ، وبذل جهداً مضنياً ، كما هو متصور ، وبعد أن كاد يكمله ، ولم يبق إلا ملء كف اليد ، أو أقل توقف عن العمل ، وأعلن أنه استخار الله في اكماله . وأقلع عن اتمامه ، وأعلن أنه تراجع عن الاتفاق ، وأن صاحبه في حل من دفع ما اتفقا عليه . فضاع عليه تعبهُ ، وكسب ذلك «المقاول» نوى مكسراً ، ودراهمه محفوظة في جيبه .

ألا تذكر هذه القصة - يا بني - بقصة الرجل الذي كان يحمل للناس ما يريدون نقله من مكان إلى مكان ، فإذا حمل حملاً - دون أن يتفق مع صاحب الحمل على أجره - ثم اختلفا على الأجرة بعد أن أوصل الحمل ، ثم تعذر الاتفاق بينهما على المبلغ : هذا يرفعه ، وهذا يخفضه ، فصمم الحامل على إعادة الحمل إلى مكانه الأول دون أجر ، ويكفيه أنه حرم



صاحب الحمل من الوصول إلى هدفه عن طريقه ،
وما درى أنه هو الذي تعب ذاهباً آيماً مجاناً ، وأن
صاحب الحمل سوف يحمله على ظهر آخر ،
وسوف يعي الدرس هذه المرة ، ويتفق مع الحامل
على الأجر سلفاً .

والمثل كما ترى - يا بني - يضرب للشخص يتعب
على أمر ، ويسير فيه بجهد إلى أمد ، ثم يتوقف قبل
بلوغ الهدف بقليل . وفي الحياة - يا بني - مواقف
كثيرة ، يصلح فيها الاستشهاد بمثل هذا المثل .
فاحفظه ينفعك - يا بني - وستسمع من أحد جملة
قريبة منه عندما يقول شخص لآخر : كَمَلْ
إحسانك أو معروفك ، فمعنى هذا أنه بدأ شيئاً
ويوشك أن يوقفه ويتراجع عنه ، فيضيع ما قدّم
بسبب ذلك .



[٤٦]

أَيُّ بُنَيَّ !

السيّل عنصر من عناصر الحياة المهمّة في البلاد
الرعوية، وبلادك منها. ولهذا كان السيّل مادة
للتّمثّل والأمثال. وهي أمثال تصوّر البيئة خير
تصوير. والسيّل له فوائد جمة على الفلاح أيضاً،
ولهذا فهو من المشاركين في أمثاله، إما قولاً أو تمثلاً.

وسأسوق لك أمثلة متعددة، تعطي جوانب من
نظرتهم إلى السيّل، وهي صور صادقة لحياتهم،
يمكنك أن تعيش معهم فيها لحظات :

يقولون :

« مثل السيّل دماره عماره ^(١) »

وهذا مثل يبين صورة من الصور التي كان آباؤك
وأجدادك يرونها تتكرر كل عام، حسب المواسم
وأمطارها. والمطر يجلب الخير، فالعشب ينبت

(١) الجهميان ٧ / ٣٢٤ .

عليه، والدواب ترعى العشب، والناس يأكلون الدواب، ويشربون لبنها، ويستخرجون منه ومنها السمن والأصواف. هذا فيما يخص ابن البادية. أما ابن الحاضرة فالفلاح يفيد المطر في بعض المواسم، وقد يضره في مواسم أخرى. فالمطر يملأ له البئر، فيجم ماؤها بعد أن غار، ويكثر بعد أن غاض أو كاد. ويغسل له التربة، ويأتيه بتربة خصبة جديدة. ولكن المطر يضره إذا جاء عند وقت استواء الثمرة، سواء كانت فاكهة أو خضرة أو قمحاً أو شعيراً أو ذرة أو دخناً. وقد يهدم له ساتراً من السواتر التي وضعها على حدود مزرعته، وقد يهدم له، ولساكن المدينة، بيتاً، ويخرب الطرقات.

ونظرة الناس - يا بني - إلى المطر عجيبة، فرغم أنه يأتي ببعض الأضرار، إلا أن الناس يفرحون به فرحة تنسيهم ما قد يأتي منه من ضرر، ويكون لهم من البشر والسرور ما يثب بينهم روح التسامح مما لم يكن قبل المطر. والأسعار ترخص، ولو اقتصر هذا الرخص على الحيوانات والسمن والأطعمة



لكان لهذا ما يفسره، ولكن ذلك يلمس بعض
الأمر التي لا تعيش على المطر، ولا دخل لها فيه،
مثل الثلاجات والأفران، وغيرها من أوعية البيت
المستوردة.

فالمطر - يا بني - كما رأيت رغم ما قد يأتي به مما
لا يحمد الناس، فإن هذا محاط بغلاف سميك من
المنافع التي لا تحصى. فجاء المثل صادقاً لما ضرب
له، وصالحاً لكل أمر يصغر ضرره عند كبر نفعه^(١).

(١) راجع المثل السابق رقم (٢٧)، وما قيل فيه مما يماثل هذا.

أي بُنيّ !

إليك مثلاً آخر عن السيل يقول :

« مثل السيل يحفر ويدفن ^(١) »

وهو مثل يضرب للعمل يأتي منه المتضاد ،
والسيل يحفر أرضاً ، ويردم أخرى ، يساوي بين
العالي والواطىء ، والمرتفع والمنحدر . وهو أمر يراه
الناس في الماضي أكثر مما يرونه الآن . ولا يعني هذا
أن عمل السيل يختلف ، أو أن طبيعته تغيرت ،
ولكن حياة الناس هي التي تغيرت ، ومحيطهم
تبدل ، ووسائل معيشتهم اختلفت . كان عند
الناس في الماضي وقت للتدبر والتبصر ، والتدقيق في
عمل العوامل الطبيعية ، ونتائجها . فكان وقتهم
يسمح لهم بأن يروا الحفر ودفن السيل لها ، لأن
الشوارع كانت ترابية ، ومع الوقت ومرور الناس
والدواب عليها يصبح فيها من الحفر ما يضايقهم .

(١) الجهمان ٧ / ٣٢٤ .



وبعض هذه الحفر كانوا يحفرونها، ليأخذوا منها الطين الذي يبنون به بيوتهم، أو يجددون به تربة زراعتهم، فيأتي السيل فيردمها، ويأتي لهم بتربة جديدة، ويزيح عن كاهلهم همّ وجودها. وكانت المدن صغيرة، والناس قرييون من الصحراء والبادية، والسيل وعمله فيها وما حولها واضح. وكان السيل يلمس معيشتهم مباشرة، يرون أثره إذا جاء، ويفقدونه إذا تأخر. أما اليوم فوقت الناس ركض وجري، ليس عندهم وقت للتدبر والتبصر، وشوارعهم مزفلته، ومدنهم كبرت واتسعت، فالسيل إذا جاء مرّ مرّ الكرام، وأكبر همّ عندهم ما يتركه من نقع وبقع في الشوارع، تضايق سير السيارات، والصحراء ابتعدت بما زحف عليها من عمران ومرافق مختلفة، واكتفى الناس بما في مدنهم من مرافق عما في الصحراء مما كانوا يحتاجون إليه، إلا قلة ممن له في الصحراء ذكريات، أو ورثوا بالسماع ما فيها من بهجة، وصفاء جو.



كان الناس في الماضي في حاجة ماسة إلى المطر، يقل الماء في مزارعهم فيذكرونه، وتحتاج مزارعهم إلى ما يغسل تربتها، ويجدها، فيتطلعون إليه، وتقل المياه في آبارهم في الصحراء والمدن فيستغيثون لينزل المطر. أما اليوم فالماء في البيوت لا ينضب إلا في النادر، ولأسباب فنية طارئة، فالآبار العميقة تعمل طوال العام، ومثلها التحلية. وحتى إذا استغاث الناس اليوم فليس كلهم يدركون الحاجة الحقيقة للمطر.

وهذا المثل مرادف للمثل الذي يقول :

« يشق ويخيط »

والمثل الذي يقول :

« يقطع ويوصل »

وكل من هذه الأمثلة نزح بيئته، وانعكاس محيطه، وتعبير عن حاجة، أو افصح عن مبتغى أوحث به معيشتهم وحياتهم، ولم يمدوا يدهم إلى بعيد ليتناولوه، وإنما كان قريباً منهم، أينما التفتوا وجدوا ما يوحى به إليهم.



[٤٨]

أَيُّ بُنَيَّ !

من الأمثلة عن السيل قولهم :

« مثل السيل^(١) ، ينفع في النهار وفي الليل »

ولعل عندك - يا بني - مثل ما عندي من الشعور بأن السجعة لعبت دوراً غير قليل في تكوين هذا المثل^(٢) . ولكن المثل - بغض النظر عن الصيغة للفظه - صادق فيما رمى إليه ، فالسيل نافع في الليل كما هو مفيد في النهار ، ولا يذكر الضرر الذي قد يأتي به إذا جاء ليلاً والناس نائمون غافلون ، ولم يحسبوا لمجيئه حساباً ، فيدهمهم في أماكن نومهم ، أو في أماكن عملهم وهم لم يحصنوها إستبعاداً لمجيئه .

ولعله يفيدك - يا بني - أن تعلم أنه جاء إلى مكة المكرمة في أوائل الستينات الهجرية سيل عظيم ،

(١) الجهمان ٧ / ٣٢٤ .

(٢) يعضد هذا الرأي ما نراه في بعض الأمثال مثل : «تيتي تيتي ، لا رحت ولا جيتي» ، دياب ٨٠ ، ويروى أحياناً هكذا : «تيتي تيتي زي ما رحتي زي ما جيتي» .



دخل مكة ليلة الأربعاء، ولهذا يسمى سيل الأربعاء، جاء فجأة، ولم يحسب الناس له حساباً. فجرف ما أمامه من الناس والجمال والسيارات، ودخل الحرم، ولم يبق بينه وبين الدخول إلى وسط الكعبة، على ما عليه بابها من الارتفاع، ومع سعة الحرم الشريف، إلا قليل، وبذل مجهود كبير، وجند عدد من الناس كثير، لتصريف المياه التي تجمعت في الحرم، ولتنظيف بلاطه وحصواته ورواقه، واعداده للمصلين.

وهذا مثل يضرب للشيء النافع في كل جوانبه، ولا يقتصر نفعه على جانب واحد. والأمور التي نفعها عام في حياة الماضين والمعاصرين تكاد لا تحصى. خذ مثلاً النخلة التي سبق أن تحدثنا عنها، وعن فوائدها؛ فكل شيء فيها مفيد، وكان يسد فراغاً في حياة المجتمع الماضي. شيء منه لأثاثه ورياشه، وشيء لبنائه وإعمارهِ، وشيء لراحته وضروراته. فالنخلة في هذا أخت السيل، بل لعلها



قد تنافسه في كثرة الميزات^(١)، وإن كانت معيشتها
على الماء الذي هو مصدره.

(١) انظر ، «أي بني» ، ج ٢ ، ص ٣١ .

أي بُنيّ !

مثل آخر عن السيل يقول :

« مثل السيل يتبع المطامن^(١) »

وكذلك :

« المويه تجري في الواطي^(٢) »

والحقيقية - يا بني - أن كل سائل يتبع المنحدرات، ويبحث عن السهل، سيراً على نظرية الأنابيب المستطرفة. فطبيعة السائل أن ينحدر، ولا يندفع إلى أعلى من مستواه إلا بقوة تدفعه؛ فالقوة تخرجه من طبيعته وتدخله في طبيعتها. وإن كنت زرت أسبانيا، أو قرأت مثلي عن إحدى أعاجيب أجدادك في أسبانيا، وما صنعوه في إحدى عمائرهم التي عمروها هناك، وجعلوا الماء يصعد منها إلى أعلى، ولم يكن هناك من الآلات أو الأنابيب أو

(١) الجهيمان ٣٢٥/٧ .

(٢) السباعي ٨٨ .



«المواسير» ما يساعدهم على ما فعلوا. إن هذا ليحير الزائرين هناك. حتى الأسباب اليوم ومهندسيهم لا يعرفون كيف تم هذا إلا بالحدس والتخمين. ويخشون أن ينقبوا، فيتسببوا في القضاء على هذا المظهر السياحي العجيب الجذاب. وفي الأسياح في بلاد عمان شيء من هذا، ولغرابة الأسياح، وصعوبة تنفيذها تدور حولها خرافة أن الذي بناها هم العفاريت بتسخير من النبي سليمان عليه السلام.

أما المثل - يا بني - فدقيق في انطباقه على بعض الأمور التي بحث الناس فيها عن السهل، أو الذي يسير مع طبيعة الأشياء. ويصلح للتعذير في بعض المواقف إذا ما اختار الانسان السهل من بين أمرين أحدهما صعب.

ولو لم يتبع السيل المطامن، ولو لم تكن هذه طبيعته، لما انحدرت الشلالات، ولما جرت الأنهار جريها اليوم، ولما امتلأت الآبار بمياه الأمطار، ففي اتباعه للمطامن والمنحدرات حياة، وأي حياة! للبشر والحيوان والنبات.



ألا تذكر بهذه المناسبة ما سبق أن قلناه في مثل سابق عن «ماء خرشد يعلو»^(١) إذا كان ذلك افتراء، وسيراً خلاف الواقع بنظرية مقتسرة، فهذا مثل طبيعي عملي، ويسير مع واقع الأمور، ويتماشى مع طبيعتها.

(١) المثل السابق رقم (١٩) .



[٥٠]

أَيُّ بُنَيَّ !

من السيل وطبيعته يُسْتَقَى مَثَلُ تَسِيلٍ مِنْهُ
الحكمة، وتنبض الحقيقة، فالمثل الآتي :

« لا تَرِدْ سِيلَ مَنْحِي ^(١) »

مثل صادق فيما نَبَّه إليه، وحذر منه، فمن يقف
في طريق سيل مندفع يغرقه . ومن تصدَّى له في أول
اندفاعه، بما يأتي مع ذلك من قوة وانجراف، غلبه
وغطّاه وأهلكه . ولم يأت هذا المثل دون تجربة كانت
حصيلة وقائع، لا بد أنه فقد فيها من هو غال عند
أهله، عزيز عليهم فراقه .

وليس هناك أشرس من شيءين - يا بني - إذا
تسلطا، ولم يكن في يد الإنسان زمامهما : الماء والنار ؛
فالماء يستهان به مثلما يستهان بالنار، فتكون النتيجة
نكبة كبرى، ومصيبة عظيمة . وقد يحلو منظر الماء
للسابح فيتوغل فيه، وتدرجياً يصبح المرء تحت

(١) الأملعي ١٩٣ .

سلطته وجبروته، فيلتهمه بسهولة. والنار قد تبدأ صغيرة، فتستشري، فيعجز عنها العدد الكبير من محاولي التغلب عليها.

والسيل - يا بني - يأتي «درو» أي دون مطر، تنشأ سحب على أرض، وتمطر مطراً غزيراً، فينحدر السيل مع سهول الأرض وانحدار وديانها، وكلما سار السيل زاد قوة واندفاعاً، فإذا كان هناك شيء في طريقه، أناس أو حيوانات، جرفهم جرفاً، وقضى على الجميع. وكم قضى وادي «وج» في الطائف على أناس من المصطافين كانوا «مقيلين» آمنين متمتعين بجوها البارد، فيأتي السيل له دوي، وصوت مخيف، فلا يتمكنون من الهرب من طريقه أو تفاديه، فهو أسرع منهم. وقد يتساهل بعضهم، ويظن أنه إذا احتوى بسطح السيارة حماه، وأنقذه، فيأتي بقوته، وعنفوانه، فيقلب السيارات رأساً على عقب. ويفعل الله ما يشاء.

وللسيل - يا بني - في الوديان ضحايا لا تعد ولا تحصى، يتأخر المطر سنوات عن منطقة ما، فيزحف



المزارعون بمزارعهم إلى حوض الوادي أو بطنه،
تدريجياً حتى يقتربوا من سد مجراه، يدفعهم الطمع
والغفلة؛ فتأتي الأمطار، وتتجمع ويجري الوادي،
ويسيل، فيجرف بيوتهم ومزارعهم، وكأنه يتقم
من هؤلاء المعتدين على حماه. ويعاني الفلاحون من
جفاء ذلك، ولكنهم لا يتوبون، وسرعان ما
يعودون إلى ما لم ينفعهم من درس. وهو أمر ليس في
بلادنا فقط، ولكنه في العالم أجمع، خاصة البلدان
التي تنمو.

يروى عن الشيخ صالح العثمان القاضي^(١)
- رحمه الله - وهو أحد القضاة المشهورين، في مدينة
عنيزة في القصيم، كان قاضياً على أول حكم الملك
عبدالعزیز، وكان مشهوراً بالذكاء، وسَبَر أغوار
الخصوم، ولازمه التوفيق في إصابة الأحكام
المدهشة، ولو جمعت أخباره مع الخصوم المحتالين،

(١) انظر ترجمته في «روضة الناظرين»، لمحمد بن عثمان الصالح
القاضي: ١٥٢/١، و«علماء نجد خلال ستة قرون» لعبد
الله بن عبدالرحمن البسام: ٣٦٧/٢٠.



وكيف غلبهم بذكائه، لكانت مثل أخبار شريح القاضي، أو إياس . لم يكن فقيهاً - رحمه الله - فقط، ولكنه كان نابهاً ألمعياً، واسع الصدر، كثير التحمل، رحب الجنب، وهي صفات معروفة في آل قاضي .

جاءه اثنان يختصمان في تداخل أرضيهما على جانبي وادي الرّمة، فخرج معهما الشيخ صالح، ورأى الأرضين، ولم يصدر حكمه، رغم وضوح الأمر له . ولكنه قال لهما: إنتظرا حتى يأتي خصمكما الثالث، الغائب الآن . فقالا إنه ليس لنا خصم، ولا نعرف متنازعا على هذه الأرض غيرنا . فقال لهما: إني أعرفه، وسوف يأتي - إن شاء الله - ويقول بفصيح لسانه، وصادق فعله، كلمته لكما .

ثم جاء الشتاء، وهطلت الأمطار، وسال وادي الرّمة، وهدر وأزبد، وجرف المزارع الزاحفة على الوادي، وفصل بين المزارع، وأوجد حدوداً جديدة، أوضح من الشمس لأي ناظر . ثم أحضرهما الشيخ صالح، وأراهما ما فصل به



خصمهما الثالث، الذي تجاهلاه في سنين الجذب،
وأخذا يزحفان تدريجياً حتى تداخلت مزرعتاهما.
وكان الطمع البشري قد أنساها ما أتى الخطر،
ومهوى الخطل، حتى أيقظهما ما رأيا الآن. ولم
يحكم الشيخ صالح لهما. فقد حكم بينهما السيل،
وجريان الوادي. والسيل من جند الله الذي لا يقهر
إلا بأذنه تعالى.

وهناك مثل آخر يمشي بحذاء هذا المثل، ويتّجه
اتجاهه، ويرمي إلى مثل هدفه، يردده العامة في
مواقف كثيرة يصلح لها.
يقولون :

« فلان يرد السيل بعباته »

هو مثل الذي يحاول أن يحجب ضوء الشمس
بمنخل، أيّ عباءة تقف في طريق سيل جارف؟
يقولون هذا المثل إذا رأوا انساناً يعترض على أمر
صوته لا يسمع لضجيج ما يقف أمامه، أو يريد أن
يصلح ما أفسده الدهر.

أي بُنيَّ !

من الصور التي كانت بارزة أيام آبائك - يا بني -
وأجدادك، صور «الحملات» أو «الحدرات» تجوب
أراضي المملكة جيئة وذهاباً. يقول المثل المأخوذ
منها:

« ما يعرف الساندات من الحادرات ^(١) »

فلان سند أو حدر، أو فلان مسند أو حادر،
كلمات كنت تسمعها عمن راح يمتار في جهة من
جهات المملكة، وآخر قد حمل الأحمال، وهو في
طريق العودة. وهي صورة كانت مألوفة في الماضي،
ولا تستغني عنها حياة الناس. فالجمال تقطع
الصحاري: عشرات الجمال أو مئاتها، وتتحرق
البراري، وتحيي السبل. تسير الليل والنهار، متنقلة
من مدينة إلى مدينة، ومن منطقة إلى منطقة، حاملة
موجودات جهة إلى جهة. وناقلة انتاج مدينة أو

(١) الجهيمان : ٢٢٨ / ٧



محتواها إلى مدينة أخرى، أو مساهمة في نقل ما يجلب من خارج المملكة، من موانئها إلى داخل أراضيها. فالجمال الساندة أو المسندة هي كذلك بالنسبة لأناس، وهي حادرة أو منحدرية بالنسبة لآخرين. قد تذهب الجمال ببضاعة وتعود ببضاعة. أما «التسديد» فأصله أن يتجه المرء إلى أرض مرتفعة، «والإحذار» أن يتجه إلى أرض منحدرية. ولكنه في اصطلاح آبائنا، وفي حالة نقل البضائع، يتعدى هذا المعنى اللغوي - يا بني - ويدخل حيز الاصطلاح الذي تعارفوا عليه.

والاحساء كانت مركزاً تجارياً في وقت مضى، وكانت مركزاً مزدهراً لقربه من ميناء «العقير» ميناء المملكة على الخليج، للبضائع الآتية من جنوب الخليج ومن البحرين، ومن الهند بجانب «أبو عينين» أو «الجيل» وهو الميناء الثاني للبضائع الآتية من شمال الخليج ومن الكويت على وجه الخصوص. وكانت الاحساء أيضاً تكسب أهميتها من وفرة التمر فيها، و«قلال» تمر الخلاص من

الاحساء مشهورة ومعروفة لكل بيت في المملكة، فلاحساء كانت مصدر خير وبركة، ولما قلت أهمية العقير، وقلت أهمية التمر، لكثرة الخيرات من الأطعمة الأخرى، وتوسع الناس في زراعة النخيل في المناطق المختلفة، ومنه «نوايع» يفاخر بها في كل منطقة، لم يحرم الله الاحساء ومنطقتها من الأهمية التي كانت لها، وعوضها عن الكنوز التي كانت فوق الأرض بالكنوز التي ظهرت تحت الأرض، ومن وقود الأجسام إلى وقود الآلات، واستخرج البترول، ولم يعم البترول المملكة وحدها، ولكنه عم بخيره العالم أجمع.

والأحساء في الماضي كانت إليه ساندات ومنه حادرات، وللساندين والحادرين عادات وتقاليد، ولهم قصص وهم يعبرون الصحراء^(١) وحكايات، ليتها تدون، وإن كان أغلب أبطالها قد انتقلوا إلى رحمة الله إن شاء الله. لهم قصص مع الطريق

(١) عن الصحراء، راجع «أي بني»، ج ٢، ص ١٦٣.



ومشقتة، ولهم قصص مع الخصب والجذب، وتأثيره على جماهم الساندة والحادرة، ولهم قصص مع الأمن والخوف. ولهم قصص مع الرياح والأمطار، ولهم قصص مع المياه وحلاوتها ومرارتها، ووجودها وعدمها، توفرها وشحها. لهم قصص مع أمراض الجمال، وما يصيبها من جرب وغيره^(١).

والمثل يعني أن المضروب له لا يفهم شيئاً، ولا يميز بين الأمور المتضادة رغم وضوحها، فتصور انساناً ينظر إلى آخر، فلا يدري أهو مقبل أم مدبر، وتصور أنت - يا بني - وأنت صاعد في مصعد من المصاعد، ومعك واحد من هؤلاء الذين لا يميزون - فيسألك: هل المصعد صاعد أم هابط؟ وانسان يشرب الماء ولا يدري أبارد هو أم فاتر، وآخر يلبس الثوب ولا يدري أبيض هو أم أسود، مدفء أم غير مدفء. يجوز - يا بني - أنني غاليت في الصورة، وتجنيت، ولكن مثلهم بالنسبة لهم إذا ضربوه ذهبوا به إلى ما ذهبت إليه الأمثلة التي سقتها لك.

(١) راجع نموذجاً لرحلة أحدهم في: «أي بني»، ج ١، ص



وهذا لا يعني - يا بني - أن بعض الأمثلة لا يكون فيها إجحاف ، فخذ مثلاً آخر يرمي إلى مرمى مثلنا هذا ، يقول :

« فلان لا يعرف كوعه من بوعه ^(١) »
أو :

« لا يعرف كوعه من كرسوعه »

هم يعنون بهذا أنه جاهل ، وجهله مفرط إلى الحد الذي يجعله لا يفرق بين مكانين في عضو واحد منه ، وهو اليد والذراع ، والحقيقة والواقع أن كثيراً من الناس لا يعرف هذا من هذا . ولعل السبب في هذا أن اللغة الفصحى تباعدت مع اللغة العربية عند بعض الناس . وأمر آخر : إن استعمال هذين اللفظين قد تمر سنين على المرء دون الحاجة إلى التحدث عنهما . ولعل الذي أوجب الملاحظة أن المثل غولي في تطبيقه على من هو معذور أو لا يعرف ، ولكن أصبح من المسلم به أنه يضرب علامة للجهل المطبق ، وإن كان الواقع يخالفه .

(١) الألمي ٢٤٠ .



وأكثر من هذا في البعد عن الحقيقة، مثل آخر،
أخذ من محيط غير محيطنا الحالي، محيط كانت تكثر
فيه الخيل، وتعيش بين الناس، ويعتبر كل جزء من
جسمها معروفاً لهم، لأهميتها، وأهمية ما يميز
بعضها عن بعض في اللون والشيءات .

يقول المثل :

« ما يعرف قطاته من لطاته ^(١) »

والقطاة هي مكان الردف من مؤخر ظهر
الحصان، واللطة بياض في جبهة الحصان . فهل
- يا بني - إذا جهل أحد منا هذا أصبح جاهلاً بكل
المعايير؟ لا، ولكن المثل مفصل لمن يريد أن يلبسه
آخر، تعبيراً مختصراً لما يجول في نفس القائل عمن
استعير ليقال فيه .

ومثل آخر - على هذا المنوال - يقول :

« لا يعرف الحوَّ من اللو »

(١) عقلاء المجانين ٢٥ .



أي لا يعرف الكلام الذي يفهم من الذي لا يفهم، و «لا يعرف قبيله من دبيره»، أي لا يدري فُتِل إلى فوق أو إلى أسفل^(١).

(١) مجالس ثعلب، ٣٧/١، وفي اللسان عن ثعلب «أي لا يعرف الكلام من الخفي».

أي بُنيّ !

والعناد أمر يتداخل مع التعنت في بعض جوانبه ، ولا يخلو منها مجتمع ، وقد شغلا الناس ، فالعناد فيه شعبة من البخل ، لأن صاحبه يظن بالتنازل عن رأيه المتعنت . والبخل وضع فيه الجاحظ كتاباً متكاملاً ، يعتبر من أشهر كتبه ، ومن أمتعها . فيه من الطرائف والغرائب ما يجعله سلوة للقارئ ؛ مع أدب رفيع ، وتعبير فائق . ويجتمع البخل والتعنت في المثل الآتي :

« ما يشيل الزباد بنصفه ^(١) »

وهو مثل يضرب لمن يُغلي خدمته ، ويصرّ على ما أبداه ، حتى لو كان في أعين الناس غير عادل ، ومتعنت . والزباد عطر كان معروفاً وشائعاً في زمن مضى ، ورغم وجوده حينئذ ، وارتفاع سعره ، إلا أن عطور باريس تعدّته ، وتركت خلفها ، ولعله

(١) الجهمان ٧ / ٢٢١ .



يدخل في بعض تركيبها . والمثل اختير عن الزباد ،
لصغر حجمه ، وخفة وزنه ، ومع هذا فمن طلب
منه حمله ، وإيصاله إلى البلاد الأخرى ، يشترط
نصف الزباد أجرة له . وهو شرط جائر في نظر من
وجد أن هذا يصلح مثلاً لمن يغالي في قيمة خدمته .
ومع هذا - يا بني - فإذا عرفت أنه ربما يعبر بالزباد
البحر بما فيه من أهوال ، أو الصحاري بما فيها من
مهالك ، وقطّاع طرق ، وجدت «له عذرا وأنت
تلوم» .

وكان الزباد - على ما أذكر - يا بني - يجلب إلى
عدن من الهند ، وإلى سواحل الخليج . ويقول عنه
صاحب لسان العرب المحيط : «والزَّبَاد : مثل
السَّنور الصغير ، يجلب من نواحي الهند ، وقد
يأنس ، فيُقتنى ويحتلب شيئاً شبيهاً بالزَّبَد ، يظهر
على حلمته بالعصر ، مثل ما يظهر على أنوف الغلمان
المراهقين ، فيجمع ، وله رائحة طيبة ، وهو يقع في
الطيب» .



لهذا كان - يا بني - ثَمَنُهُ مرتفعاً، لندرته، وصعوبة جمعه، ولعل ما قيل عن حيوانه أنه قد يأنس، يوحى بأنه متوحش، مما يضيف جهداً على من يحاول الاستفادة منه، خاصة وأن هذا الأمر يحتاج إلى صبر، وأن الموضع الذي يجمع منه موضع حساس ومهم، لأنه مخرج رزق أبنائه، وهو به ظنين، وله حَامٍ مستमित.

وهذا المثل كما ترى - يا بني - قيل على سبيل الانتقاد المتناهي والاستهزاء والتندر.

والشرط المتشدد قد لا يكون عندهم له جزاء أو عقاب، ولكنهم لا يرتاحون من تصرف صاحبه، لأن التآخي والتسامح سمة مجتمعهم الغالبة. ولأنه لا حيلة لهم بالمتعنت، المتشدد في شروطه، فلا طريق لهم إليه إلا عن طريق ضرب الأمثال، وهي أمثلة قاتلة، وهي سلاح نفسي، يخدمهم في هذا الأمر، وينفس عنهم، كما تنفس «النكت» عن المصريين - كما يعتقد كتابهم - ما يجدونه من حيف



في بعض أمورهم ، «يفرقع» الواحد منهم «نكتة»
تريحه ، وتنفس عنه ، وتريح غيره .

ومن الأمثلة - يا بني - التي أطلقها آبائك
وأجدادك في هذا المجال مثل يقطر أسي ، ويسيل
ألما ، وهو المثل الذي يقول :

« ما يدفن أبوه إلا بعرقه »

أي أجرة .

وسوف - يا بني - نفرده وحده ، لأنه يستحق
ذلك . ولك أن تحكم بعد أن تسمعه .



[٥٦]

أَيُّ بُنَيٍّ !

وإذا كان المثل السابق يوجب الاستهزاء،
ويجلب التندر والانتقاد، فهناك مثل يسير على طريق
مماثل له، ولكنّه يثير الرعب والاشمئزاز
والاستنكار، لأنه خروج تام عن خط الانسانية
وسبيلها، وما اعتاد الناس عليه من الانسان السوي
وحتى الحيوان يأنف منه في بعض أنواعه، ولم يطلب
غراب قابيل وهابيل ثمناً لدفن أخيه . يقول المثل :

« ما يدفن أبوه إلا باجرة^(١) »

وأحياناً يقال : ما يدفن أبوه إلا بعرقه . والعرقه
تعني الأجر . تصور - يا بني - إنساناً يصل به اللؤم
والبخل والتعنت والصفاقة، وقلة الحياء، والبعد
عن الخوف من الله، أن يطلب على دفنه لوالده
المتوفى أجراً . هل هذا مقابل تربيته، أو تغذيته، أو
كسائه . حتى لو لم يقم والده بذلك له، فالله خلق

(١) الجهميان ٧ / ٢٤٠ .



الانسان وخلق معه جبلة حب الوالد لابنه وحب الابن لأبيه، وحتى لو ظهر على سطح العلاقات ما قد يوهم غير هذا. إن الذي يعق والده مهما أظهر من رضائه عن نفسه على ما يفعل هو في داخله يتألم، بل يعصره الألم، هو شقي داخلياً، وإن غالت ظاهرياً، يتمنى أن لو يعيد عقارب الساعة، فيكون مع والده غير ذلك. هذا إذا كان طبيعياً، أما إذا كان مختل العقل، فكيف يطلب من ميزان به خلل أن يزن بصحة ودقة.

والمثل متناه في تصوير الموقف، وعميق فيما يمكن أن يضرب له، وغريب - يا بني - أن يفكر فيه في مجتمع مثل مجتمعنا، خاصة في الماضي، بما عرف فيه عن الناس من برّ بالوالدين، وتقوى الله فيما أوجب عليهم من طاعتهم ومراعاة حقوقهم، وعدم خدش شعورهم ولو بكلمة «أف» على بساطتها^(١).

ولكن البخل، واللؤم، ليسا من حصاد العقل المتزن، فلا عجب أن يقودا صاحبهما إلى أعماق

(١) ارجع إلى ما سبق عن الوالدين في: «أي بني»، ج ٣،



جحور ظلام النفس ، وأن يركساه إلى أسفل درجات الوحشية . ولهذا حاربها العقل في كل لغة ، ووسمتهم كلمات الأمثال والحكم بميسم حام ومؤلم . والأمثال عليهما ، والتحذير منهما متواترة في الكتب التي تبحث أمور الأخلاق والآداب .

ولا يمل الانسان التفكير في هذا المثل وجوانبه ، لأنه مثل يدل على انحراف في الجانب الانساني خطير . ولا يزال العجب يأخذ مأخذه عند التفكير كيف فكر فيه شخص من جيل مضى ، في مجتمع من مجتمعاتنا . خاصة - مع ما قلناه - عن ما هو معروف من بر الناس بأبائهم . ان الدفن لا يحتاج إلى مؤونة ، ليس هناك تابوت ، أو موكب جنازة من عربات وخيل ، وموسيقى ونائحون ، ما هناك إلا حفرة في أرض «مجانية» ، وكل مستعد أن يساعد في الحفر والدفن . ما الذي أوجب أن ترسم صورة مثل هذه في ذهن أي فرد من أفراد ذلك المجتمع ؟ لكن نعود ونقول إن المثل يضرب لا ليمثل حالة واقعة ، ولكن حالة مغالى فيها ، لتأتي بمظهر عام

يزيد في التأثير. أتذكر - يا بني - كيف يعمل رسام الصور المضحكة «الكاريكاتير» أو الرسوم الساخرة، إنه يُجَهِّم الملامح الرئيسية المميزة للشخصية، فقد تكون العينان هما مسقط تفكيره، وقد تكون الأذنان، وقد يكون الأنف أو الشفتان، وقد يكون الفم أو الرقبة أو الجسم، وهكذا حتى تبدو وكأنها ليست لإنسان.

أي إنسان لا يعمل معروفًا أو لا يؤدي واجبًا، أو لا يشارك في مناسبة إنسانية يصلح هذا المثل أن يقال عنه.



[٥٤]

أي بُنيّ !

سأحاول أن أتقل بك كالنحلة من زهرة من
الأمثال إلى زهرة، ومن صورة إلى صورة من صور
الماضي. وإن اضطررت أن أمشي على نسق واحد
في بعض الأحيان، فاني سوف أسرع إلى قطع هذه
الرتابة، حتى لا يصيبك الملل، وتذكر - يا بني - ما
أقوله وأكرره دائماً، عن عدونا اللدود «الملل»،
الذي يجعلك تملّ فلا تقرأ إلا مرغماً، وأنت - مثل
غيرك - إذا أرغمت أو قسرت على القراءة لم تستفد،
فيضيع الهدف الأساسي من عملنا، ويضيع وقتنا كما
يقول العامة: «خالي بلاش»، أي سدى، ويضيع
الجهد والتعب.

كان الناس - يا بني - في الماضي - خاصة الحكام
والتجار - إذا أرسلوا رسالة يقتصرون فيها على
السلام، والسؤال عن الأحوال، والأخبار عن
أحوالهم عموماً، وما يخص أحوالهم العائلية. ولو
قرأت أسلوهم في الكتابة للخطابات لغلبتك



الدهشة، إذا لم تأخذك نوبة من الضحك. وسوف أعطيك نموذجاً مما كان بعضهم يكتبه :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين على أمور الدنيا والدين .

حضرة جناب المكرم العزيز حميد المكارم والشيم فلان حفظه الله وأبقاه وجعل الجنة مثواه آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ومغفرته ومرضاته، وإن سألتكم عنا فنحن والله الحمد بخير وسرور، ما نسأل إلا عنكم، نسأل الله أن يجمعنا بكم عن قريب، على أسر الأحوال، انه قريب مجيب. ومن طرف كذا . . .

هذا ولا تقطعون عنا المكاتبة ترى الخط نصف المشاهدة. هذا ما لزم ومنا السلام على فلان وفلانه ومن يعز عليكم ومنا يسلمون فلان وفلانه. هذا ودمتم سالمين، والسلام. محبكم فلان .

هذا هو المعتاد أما المهم، وهو ما يخص أمور الحكم أو الجيوش أو التعليمات التي تحتاج إلى متابعة



وتنفيذ، أو ما يخص التجار وأسعار السلع وأحماها،
وحدراتها، وقوافلها، ففي الغالب يضعونه في
خطاب ثان ليس فيه دياجة، والبسمة فيه تختصر
إلى بسم الله فقط. ويسمى هذا الخطاب «ملحق» أو
ملحقا خيرا، وتكتب هذه الكلمة في أعلاه.
وإذا أشاروا إلى الملحق في الخطاب الأصلي تعمية
فإنهم يلحقون أحيانا ملحقا ثانياً يكون هو المهم،
وقد يلحقون ثالثاً. ولعل السبب يكمن في أنه إذا
اعترض «الطارش» أي «المسافر» حامل الخطاب
عدوّ فإنه يكتفي بما يبين له من الخطابات التي لا
تحمل أخباراً عن الأهداف، والأمور المهمة
المخفاة. ويوضع «الملحق» في مكان سري أمين، لا
يخطر على بال أحد مكانه، فيتفنون في اخفائه
وحفظه كل مرة في مكان مختلف عما اعتاد الناس أن
يتوقعوه فيه. ومع هذا فقد يعثر عليه مع التفتيش
الملح الجيد، لأن عقلية الناس متقاربة، وحيلهم
ليست بعيدة عن ذهن الانسان غير العادي،
فيحدث بعضهم ما دار في ذهن الآخر، خاصة

وأن المجال، الذي يمكن أن يخفي فيه الرسول الخطاب، ضيق ومحدود، فليس عنده إلا ناقتة، و«خرجه» ومزودته وملابسه وفراشه.

على أن محاولة حفظ الخطاب وصيانتة لا تتم خوفاً من الأعداء فقط، ولكن أحياناً خشية الأمطار مثلاً، فهي توضع في حرز مكين من جلد، وتوضع في قاع «المزودة» أو «الخرج». ولا تظن - يا بني - أن كل من يعترض طريق المسافر، أو القافلة، حين يرى الخطابات المقدمة دون ملحق، يشك في أن هناك ملحقاً. إنه لا يشك، لأن أكثر الناس عندما يرسل خطاباً يقتصر فيه على السلام والتحية، والأخبار العائلية اليومية البسيطة، فالناس ينتهزون فرصة سفر «الطارش»، فيكتبون معه حتى يطمئن المرسل إليه أن أهله أو أصحابه أحياء، وبصحة جيدة، أو ما قد يكون خلاف ذلك، فالأفضل أن يسمع الأخبار منهم في خطاب بدلاً من أن يسمعها من أفواه من قد لا ينقلون الخبر صحيحاً. والذين يكتبون يتوقعون ويؤمنون أن يعود رد خطابهم مع قادم آخر، وهكذا يتواصل الأمر.



ولم تكن - الأمور - يا بُنيَّ - عندهم - كما هي
عندنا اليوم - طوابع بريد أو دُمغاته، وبريداً
منتظماً، عادياً ومسجلاً، ومستعجلاً، وتلكساً،
وفاكسميلياً وتليفونياً. ورحم الله البرقية وأهل
البرقية، فهي على حداثتها أصبحت ذكرى، إلا
للهواة. إن القفزة - يا بني - شاسعة، والتطور بين
الأمس واليوم عظيم. وبدأ الحديد يزحف زحفاً
سريعاً بل يقفز قفزاً متوالياً، ومنظماً، على الحديد
فيمحو معالمه، ويطمس سماته، فلا يبقى له أثراً،
ولا يترك خبراً، إلا ما سوده القلم على الورق،
ونقشه على الصفحات، التي سوف تصبح تراثاً
منزويّاً.

إن هذه الخطابات التي كتبها آباؤنا - على
بساطتها - ثروة لا تقدر بثمن، فهي تحكي
تاريخهم: معاناتهم وإنجازاتهم، وتصور آلامهم
وأمالهم ونجاحهم وإخفاقهم. ترى هل نترك لمن
بعدنا ما يماثلها. إن عندنا من الوسائل ما لم يكن
عندهم. إننا نملك تسجيل حاضرنّا على مواد تظهر

الصورة بألوانها، وربما وأبعادها، وصوتها، ويخلق الله ما لا نعلم. ولكن وسائلنا تحتاج إلى عناية ورعاية، فهي تحتاج إلى غرف مهيأة، وصيانة مستديمة، وربما يأتي يوم نقابل مشكلة كونها أصبحت انجازاً قديماً لا يصلح للعمل مع آلات أحدث منها، كما حدث لأول «فيديو» اخترع، هل تذكره بحجمه الضخم، والتحذيرات التي تواكب تشغيله، وكثرة الخلل الذي يتعرض له، وضخامة أشرطته. وقد أصبحت لا تصلح لآلات «الفيديو» الحديثة، ولم يعد ذاك يصنع أو يُصلَح. ولكنَّ الحيلة أنقذت بعض أشرطته، فنقلت قبل فوات الأوان على أشرطة حديثة. وربما جاء وقت تعاد الخطوة، ويتفادى عيب التطوير.

ومن بيئة آبائنا ومراسلاتهم ومجتمعهم الذي وصفنا نحتوا مثلاً يقول:

« مضمون الخط بملحاقه ^(١) »

(١) الجهمان ٨ / ٦٩ .



وهذا يؤكد أن الخط ليس فيه ما هو مهم ، وأن
المهم هو في الملحق الذي مع الراكب الذي يحمل
الخطاب .



[٥٥]

أَيُّ بُنَيَّ !

إذا بذل أحد الناس مجهوداً ولم يأت بنتيجة،
وكان هذا متوقعاً، لأن طبيعة العمل لا تؤدي إلى
المطلوب، ولا تحقق الأمل، قيل عنه أنه :

« يخطط في ماء ويقبص في حجر^(١) »

فأنت - يا بني - مهما خططت في الماء فعملك
هدر، ولا نتيجة تأتي منه، وكأنك لم تفعل شيئاً.
وهذا أمر واضح، وتجربته سهلة. ويستحق ضارب
المثل الأول الاعجاب على هذه المقدرة في التصوير،
وأردفه بما أكده، فأنت لو «قبضت» أو «قرصت»
حجراً بأصبعيك، فلن يتأثر الصخر، وإنما ستتعب
أصابعك ويكل ساعدك ويدك .

والمثل - يا بني - يمكن أن يكون مأخوذاً من أي
بيئة، ففي كل بيئة ماء، وفي كل أرض حجر. وإذا
كان المثل في شقه الأول، قرر عدم الجدوى في

(١) الألمعي ١٨ .



التخطيط في الماء، فقد أكد الشق الثاني منه، وهو قرص الحجر، ما رمى إليه الأول من عدم الجدوى من العمل، وزاد ما قد يأتي من هذا العمل من ضرر.

سألت - يا بني - يوما صديقاً انتقل إلى رحمة الله، وقد ذهب إلى إنجلترا، وهو كبير السن، عن حصيلته من تعلم اللغة الانجليزية في تلك السنة - وكان مستمرا في الجهاد في تعلمها - فقال: إنما أنا أخطط في الماء. ففهمت أن هذا المثل ينطبق عليه، ومثل آخر ينطبق عليه أيضاً. أما المثل الآخر فهو:

« إحصد هوا غمر ماش »

وسبق أن مرّ بك ونحن نتحدث عن تأثير بيئة الفلاح على أمثاله وصياغتها. (المثل «٢» ص ١٥)

وغريب أمر البيئة وانتزاع الأمثال مما فيها، أو لعله ليس غريباً، ولكنه مدهش حقاً. فأنت رأيت الآن أن المثل الأول يمكن أن يأتي من أي بيئة. أما الثاني فمؤكد أنه من بيئة الفلاح أو بيئة تماثلها.



ولكنْ هناك أمثال قد تستطيع أن تحدد بيئتها، وقد لا تستطيع ذلك بدقة متناهية فمثلاً :

« من دارى عنك يا الي في الظلام تغمز »

هذا المثل بيئته في الحجاز . وهو ليس معروفاً مثلاً في نجد، مع أن الظلام موجود في كل مكان، والغمز معروف لكل الناس، ولا يقتصر على قوم دون قوم، ولكن اللهجة هناك حددت بيئته .

وماذا - يا بني - عن اللغة العربية الفصحى، وما فيها من أمثلة رضية صادقة . وليس هناك مثل سقناه من التراث الشعبي أو العامي إلا وهو في الفصحى بأصدق تعبير وأدقه . استمع إلى العربي الفصيح ماذا قال عن الذين يبذلون جهداً ضائعاً، لا مردود له، وهم يعرفون ذلك . يقول المثل :

« لا حياة لمن تنادي »

أرأيت - يا بني - لو ناديت ميتاً بأعلى صوتك، لبح صوتك، وتمزقت حباله، دون أن يسمعك، بله يحبك . وهذا مثل أيضاً - يا بني - لا بيئة له، أو على



الأصح كل بيئة يمكن أن تدعيه، فالحياة والموت ملازمان لكل انسان، ولا حي لا يموت إلا الله - سبحانه وتعالى . والمناداة تأتي من كل انسان له صوت، وحبال صوته قوية سليمة .

أما إذا أردت مثلاً يمكن أن تتأكد من المهنة التي استُقي منها وهي بيئة، بما لا يتطرق إليك حياله أي شك، فاستمع إلى هذا المثل :

« كانه يضرب في حديد بارد »

إنه بلا شك متسلسل إلينا بهدوء من مصنع الحداد، فالحداد عندما يريد أن يطرق الحديد، ويكيّفه، يحمّيه في النار القويّة، ويوقدها عليه بحطب جزل متتال وضعه على النار، حتى يصبح الحديد جمرة متقدة، فيخرجه إلى السندان، ويضربه بمرزبة مخصصة لذلك، ويشكله بالقالب الذي يريده . وبالتأكيد سوف تتعب يده، إذا كان الحديد بارداً، ويفت في عضده ويضيع جهده، ويكون كمن يخطط في الماء .

أَيُّ بُنَيَّ !

ولنتقل إلى مثل آخر :

بعض الناس يمتص خير بلد، ولكن نفعه لبلد آخر، ويستفيد من مجتمع، وفائدته لمجتمع آخر، يستفيد من هذا البلد ولا يفيد، ويفيد ذاك البلد وهو لم يستفد منه. ويشعر قوم أن شخصاً عاش بينهم، محسوباً عليهم، وفائدته ليست لهم، وإنما لآخرين، وعليهم غرمه، ولغيرهم غنمه. وعندما يجدون مثل هذا بينهم يبحثون عن مثل في مجتمعهم ينطبق عليه، ويكون له التأثير المتوقع من ضرب الأمثال، فيجدون مثلاً، كأنه قد فصل عليه، يقول :

« دجاجة تكاكي عندنا وتبيض بره^(١) »

عانى آباؤنا - يا بني - من مكاكة الدجاجة هذه، عندما تريد أن تبيض، لأنها لا تأتي - في الغالب - إلا وقت القيلولة، ولا أدري ما هو السبب. ولمكاكاتها عندما تريد أن تبيض صوت مميز، يعرفه الكبار

(١) السباعي ٣٤ .



والصغار، وهو صوت عال يبدأ بنغمة منفردة ممدودة، تتلوها كاكآت قصيرة متتالية، لها عدد تنتهي عنده، ثم تعود من جديد، ولو كنت أعرف السلم الموسيقي لرسمت لك موسيقاها ونغمتها، ولكن أحيلك على بعض المغنين وموسيقاهم، فهي عند بعضهم لا تختلف عن بعض كأكأة الدجاج، والدجاجة في هذا ترجح عليهم، لأن كأكأتها تأتي بيضة، أما هم فتأتي بصداع. وللدجاجة - يا بني - صوت مميز عندما تنهي وضع البيضة، يضع أحياناً وسط ضجيج الديك والأخريات، مشاركة لها في الشعور، وحمداً لله على انتهاء معاناة اختهن، أو لعله حنق على الديك الذي كان سبب المعاناة، وتوعداً له. وهو، خوفاً من جمعهن، يشاركهن الاحتجاج على نفسه. ويلج البيت بهذه الأصوات أو يلج الحوش والفناء. فيصحونائم القيلولة، وهو بين غضب لازعاجه، وفرح بيضة الدجاجة. أما المؤكد فإن النوم قد طار من عينيه، وفرّ من جفنيه، وذهب إلى غير رجعة.

ولا أريد - يا بني - أن أدخل معك بعمق إلى أمر الدجاج، وطريقة حياته، وإن كانت طريفه، وتستحق الغوص في غبّتها، لأننا كنا نراقبها، ونحن صغار، وندرسها بتتبع واصرار، لأنه لم يكن عندنا في القيلولة، والكبار نيام، إلا ألعاب محدودة، سرعان ما نملّها، فنلجأ إلى دراسة ما حولنا من «ذر» و«نمل» و«قعوسة»، أما «القعر» فلا يظهر إلا بالليل. وهناك «الذّبة» وطنينها - كما سبق أن حدثتك عنها^(١) وهي نوعان واحدة تبني عشها على الجدران، والأخرى داخل الخشب. وهناك العصافير، وسبق أيضاً أن حدثتك عنها^(٢)، والنخل وسبق أن حدثتك عنه^(٣)، والقلبان^(٤) والحمير المراحة في ظل بيت، وكم «صقلت» رمحت، وكم آذت مثل ما أوديت^(٥).

(١) «أي بني»، ٨٧/٢، ط ١.

(٢) «أي بني»، ١٥٣/١، ط ٣.

(٣) «أي بني»، ٨١/٢.

(٤) «أي بني»، ٢٣/٣.

(٥) انظر: «أي بني»، ٤٩/٢ ط ١ و ٢٩٤/٢، ٢٩٧، ٣٠٠،

٣٠٣، ط ١ و ٧٧/١، ٧٩ ط ٣.



والدجاج - يا بني - له نصيب وافر من مراقبتنا ونحن صغار، نعرف هل الدجاجة تبيض أو «جازية» أي في أجازة لا تبيض، وقد أخذت راحة في تلك الفترة، ونعرف عندما «نعسها» نفحصها متى سوف تبيض. والديك نراقبه، ونراه عندما يعثر على حبة قمح أو ذرة أو غيرها، ينادي «صاحبة البخت» من زوجاته المتعددات، ليتحفها بها، ويطرده بحزم وإباء الأخريات. والمناداة هذه لها نغمة خاصة، نعرفها، وتعرفها الزوجات، ونراقبهن، وقد أتين على صوته، فيطرده غير «المبخوات»، ويسمح «للمبخوته» بأن تقترب، وتلتقط الحبة، وهو يحجل حولها فرحاً، كأنه جاء برأس كليب. وربما أذن بعدها أذانا يسمعه القريب والبعيد.

وهناك نغمة أخرى يصوت بها للتحذير، تختلف تماماً عن سابقتها، إذا رأى القط، ولعل الذي يكيّفها هو حبال صوته المشدودة من الخوف والرعب. وإذا رأى طيراً، يدور في الجو، ظنه



حدأة، فأصدر صوتاً محدّراً ومنبّهاً. وهو دائماً متنبّه، ويسبق زوجاته إلى مواطن البحث عن الرزق، وينبش أمامهن بمخالبه. ولكل ديك طريقته في الأذان يتفق فيها مع الآخرين في عمومها، ويختص هو بما يميزه فيها عن غيره. وكلما طالت مدّة الصوت بالأذان في المقطع الأخير دلّ هذا على طيب الديك وأصالته وقوته، فيرتفع سعره. ويكثر المزاودون عليه عند جلبه للبيع.

والديك - يا بني - قد يكون «أفرقاً»، أي أن عرفه مبتعد جانب منه عن الآخر، وبينهما فاصل ظاهر. وهذا النوع هو المفضل عند الأولاد، خاصة إذا كان أبيضاً، رغم أن الأحمر جميل وملون بألوان عديدة وزاهية. أما إذا كان الديك «ألدماً»، أي ملتصق جانبي العرف، فهو ينزل إلى الدرجة الثانية عند خبراء الديوك، وتنزل معه قيمته. وقد لا ينفعه حسن صوته، لأن صوته قد لا يظهر وقت البيع.

والديك والدجاج عند المساء «يسرّون»، فيصعدون على مرتفع، يكونون عليه في مأمن من



القط، عدوهم اللدود، المتربص المتوحش. وبقون على المرتفع حتى الصباح، وغالباً ما يكون هذا «المسرى» خشبة تقرب من السقف، يستطيعون الصعود إليها مباشرة، أو عن طريق وسيلة أخرى. وهم يختارون المكان المريح لهم، مالم يعودوا على غيره، فإنهم يعتادون. والعادة تحكمهم في أنهم عند غروب الشمس يذهبون إلى «مسراهم» بأنفسهم بانتظام لا يختل. ويؤذن الديك وسط الليل، وعند الفجر، وفي أثناء النهار. ولا يسيطر على نفسه، إذا سمع ديكاً آخر يؤذن، فيؤذن معه، إما تجاوباً، أو تحدياً ومفاخرة بأن أذانه أجمل من أذان الآخر. أو إعلامه بأن في العرين أسداً. والغريب - يا بني - أنه لا يفرق بين الأذان الطبيعي من ديك مثله، والأذان المتصنع من إنسان يريد أن يستدرجه إلى الأذان. والأطفال كثيراً ما يلهون ويعبثون معه بذلك^(١).

(١) راجع ما مر في: «أي بني» ج ٣ / ٣٠ ط ١.

وتعرف الأطفال - يا بني - وعدم تحرّيمهم أحياناً لما يتماشى مع الدّين، ولأبليس في هذا المجال دور يلعب به عليهم، فيخرجهم من حيز الرحمة إلى حيز القسوة، وهذا يعجبهم ويطربهم. ويملي عليهم - يا بني - «مناقدة» الديكة، أو مقاتلتها. فيختارون اثنين ينزلونهما إلى الحلبة، متتهزين عداوة الديك للديك، وعدم قبوله إياه قربه، أو قرب محيطه؛ ويلتقيان وقد «كوشا» برأسيهما، وجمعا الريش عليهما، ووقفاً وقفة تحفز، وسرعان ما ينقضا بمخالبهما أحدهما على الآخر، فيدمي أحدهما عدوه، حتى «يُعسّب» أي ينسحب متخاذلاً. ولا تسأل عن فرحة صاحب الديك المنتصر، وانكسار صاحب الديك المهزوم. وفي أثناء هذا العراك تجدهم «ينطرون» الطريق، أي يراقبونه، لأنه لو جاء أحد من الكبار، لَضَرَبَهُم وشَرَدَهُم، وربما أخبر ذويهم بما يفعلونه بهذه «البهائم» العجباء.

وليس هذا فقط ما يفعلونه مما يدخل في جانب الاثم، ولكنهم يعلمونها قتال أي أحد، فيأتي أحد



المدرّبين الصغار، ويلف على كفه قماشاً أحمر، يوهّم الديك فيه أنّه ديك آخر، وأنّ هذا «عُرفه»، ويحرك يده بحركة عدائية، تشبه حركة الديك العدائية لديك آخر، فينقض عليها، ويبعد هذا يده ثم يعيدها، ثم تدريجياً يغيّرّها بخركة بيضاء، مع الإبقاء على الحركة نفسها، حتّى يصبح الديك قابلاً للهجوم على أي شيء يتحرك أمامه. ولا يعرف أهل البيت أنّ أولادهم قد أفسدوا أخلاق الديك إلا عندما يبدأ بمهاجمة عراقبيهم، وأقدامهم، وهم يمشون، ممّا يضطرهم أحياناً إلى ذبحه، والتخلص منه، فيندم الولد ولات حين مندم.

هذا كله - يا بني - ينطبق على الديك البلدي، والدجاج البلدي، أمّا المجلوب من الخارج فهو لا يؤذّن، وإن أذّن فصوته قصير وقبيح. ويكاد لا يمت إلى أذان الديك البلدي بصلة. وعلى كل حال فالديك الأفرنجي كاب كالح، ولا يصلح إلا متوفاً مطبوخاً موضوعاً على السفرة. ومما يلاحظ عليه أنّه ليس عنده غيرة على دجاجاته، فتجد في الحظيرة



الواحدة عدداً من الديوك، لا يهتم أحدها بالآخر،
بينما لو وجد ديك آخر مع الديك البلدي في حظيرة
واحدة لتخلّص أحدهما من الآخر^(١).

وزيادة في الفائدة - يا بني - أحيلك على ديوان
الشاعر الأستاذ عبدالمحسن الناصر الصالح^(٢)،
فيه قصيدة نبطية عن الديك وعدوّه القط، فيها
صور رائعة، ولولا خشيتي من الاطالة لسردتها لك
هنا واكتفي بمطلعها وبعض أبيات منها:

لي ديك زين توقيته يؤعّى النائم تصويته
لولا طيبه مأ شريته بريال وقرش الدّلال

يوم الله قدّر ما كاني صيف ديكى بلاذاني
فحص مسبوه وعجلاني قلبه من صيفه يجتالي

(١) يقول أحد الأمثال في الجنوب، وهو مثل صادق حقاً:

«سفين في غمد ما يمكن»، الألمعي، ١٠٧.

(٢) الديوان، ص ٦٤.



يوم اطلع راسه وحنوكه وإلى أن الكيسه مفكوكه
على اثم الفرجه متكوكه بأثم البزّون الحبالي

حدا زوجاته حسّت به لكن موته مادريت به
قالت لاخته رَجُلْكَ وشْ به يرقص كنه فيه هُبالي
قالت يلعب لعب العَرَضه أوينفض بشته فيه أَرْضه
والا الرئيس يقضي فرضه لا والله طاح الرجالي
جت لَه قالت لا باس وراك نيم بالسّاس
يا خواتي ماله راس وين رويسه واعزالي
صاحن من ذافنه فنه واعقلهن قالت غطنه
وادعن للميت بالجنه عمره شمس فيه زالي

قال سَلِيم يا باباه شَبّ البندق في علباه
دام السرقة في مخباه تشهد عن لوم العذالي

بَالْتَرَا يا ديك سَلِيم تسرق وتقابل يادغيم
طخّيته والاه مخيم شروى شن الدلو البالي



ويكفي الديك فخراً - يا بني - ما ورد عنه من حديث . قال الرسول ﷺ : «ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى : «صوت الديك ، وصوت الذي يقرأ القرآن ، وصوت المستغفرين بالأسحار» . فإذا لم ترد أن يكون الديك خيراً منك فاقراً القرآن ، واستغفر بالأسحار»^(١) .

والديك كما رأيت - يا بني - هو القيم على الدجاج ، ولهذا - رغم أن المثل عن الدجاجة إلا أننا لم نر من اللائق أن نهمله ، وهو القيم ، وأعطيناه بعض الاعتبار ، بذكر شيء عن «ترجمة حياته» . ولعله من المناسب أن نعطي بعض الأمثلة المصاغة عنه ، وسوف نوجز بقدر الامكان ، فلا نكون أهملنا ، ولا نكون صرفنا أنوار المسرح عن الهدف الأصلي ، والممثل الرئيسي . يقول أحد الأمثال عن الديك :

« الديك الفصيح من البيضة يصيح »^(٢) »

(١) راجع «أيها الولد» للغزالي ، ص ١١٤ ، وتعليق الأستاذ علي محي الدين علي القره داغي ، محقق الكتاب ، ومخرج الحديث .

(٢) دياب ٣٤ .



وهو مثل يضرب للأمر يظهر نفسه ، رغم
احتجاجة عن العين .

والمثل الآخر يقول :

« قالوا للديك صبح ، قال :

كل شيء في وقته مليح^(١) »

وإليك قصة من التراث نختم بها هذا الحديث :

قال بشر بن حجر : انقطع إلى أبي علقمة غلام
يخدمه ، فأراد أبو علقمة البكور في حاجة ، فقال :
يا غلام ، « أَصْقَعَتِ العتاريف ؟ » ، فقال له الغلام :
« زقفيلم » . قال أبو علقمة : وما « زقفيلم ؟ » قال :
وما « العتاريف ؟ » ، قال : « الديوك » . قال : وأنا
قلت : « لم يصح منها شيء »^(٢) .

(٣) دياب ٦٦ .

(٢) معجم الأدباء ، ٢٠٧ / ١٢ ، أخبار الظراف ، ١٤٥ .

أَيُّ بُنَيَّ !

مثل جديد نقتطفه من محيط مكة المكرمة ، يقترب
من حقلٍ مَثَلٍ سقناه بعد ذلك عن «أم شوشة
والمنقوشة»^(١) :

« احتارت المقيّنة في الوجه الغلس^(٢) »

والمقيّنة هي الماشطة ، والوجه الغلس هو الوجه
القبيح . والمطلوب من الماشطة أن تبذل كل
جهد لها ، وتستدعي كل كفايتها ومقدرتها .
وتستحضر جميع تجاربها ، فلا تترك حيلة ، ولا تغفل
أي وسيلة ، دون أن تستجمعها لتزين من سوف
تمشطها ، خاصة إذا كانت تعد العروس لزواجهن
ليلة «الدخلة» والوجه السطح الجميل ، والبشرة
الناعمة الصحية ، تساعد الماشطة في عملها . ولكن
ماذا تعمل «المقيّنة» إذا كان الله سبحانه وتعالى خلق

(١) انظر المثل رقم (٦٩) .

(٢) السباعي : ١١ ، ودياب : ٥٦ .



العروس ، ولم يهبها الجمال ، ولم يمنّ عليها بالملاحة
والحسن .

« وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ »

هذا المثل جاء دقيقاً فيما عبر عنه ، وصادقاً فيما
رسمه ، ورغم أنه بتعبير مكّاوي ، وملاحظة دقيقة
ممن صاغه ، إلا أنه عالمي يصدق على كل منطقة في
المملكة ، وفي كل مدينة فيها وقرية ، وفي كل ركن
من الجزيرة العربية ، بل في كل بقعة من العالم .
وكثير من معالم الماضي ماتت ودفنت ، وغمرها ماجدّ
في عصرنا الحديث ، فغطاها أو قضى عليها ، أو على
الأقل حجبها ، إلا أمر جمال العروس ، والعناية بها ،
فقد زاد هذا العصر من أهمية تجميلها هي ، وغيرها
من النساء في مناسباتهن المختلفة ، بل حتى في
زينتهن اليومية . وقامت دور تجميل عالمية عاشت
على المساحيق والمحاليل والزيوت والوصفات
المتعددة ، وأثّرت ، وامتّصت ثروات من الناس ، في
مواقعهم المختلفة . وهي مصيدة ناجحة ، لا يكاد
يفلت منها امرأة ، أو يقف أمامها جيب أو محفظة
نقود .



ولكن - رغم الاستعدادات الحديثة والتفنن -
يبقى المثل صادقاً، ومؤداه منطقي، فإذا لم يكن
الوجه جميلاً، أو قابلاً للتجميل، فإن المساحيق
تزيده قبحاً، ويذهب جهد الممثلة هباء، وتضيع
النقود دون مردود، ولا يبقى إلا نفاق اجتماعي يقوله
رجل أو امرأة، ذوا مصلحة يرجوان تحقيقها،
للقيحة الجميلة: ما أجملك، وحسن اختيارك
للمهاشطة!

هذا المثل يمكن استعارته لكثير مما نقابله في هذه
الحياة، مما يكون ذا طبيعة لم ينفع في تغييرها جهد
مبذول. فالناصح إذا لم يجد استعداداً عند من
بذلت له النصيحة يمكن لثالث أن يقول هذا المثل
للناصح، ليجعله يئس، ويقطع عن النصح، لأن
المنصوح ميؤوس من اصغائه. وقد يقوله مدرس
لآخر أخفق في أن يجعل والد أحد التلاميذ يفهم
أسباب تأخر ابنه في الدراسة، خاصة إذا كان الأب
جاهلاً أو مكابراً. ولعل للمثل صلة وثيقة
بالنصيحة، لأن مجيئه معها مناسب.



وفي جنوب المملكة يجري المثل هكذا :

« ما ينفع الدعلاك في الوجه الوسخ »^(١)

والدعلاك هو التنظيف، ولعل للكلمة صلة
بالدلك، وأن أحدهما تطور للآخر. وهذا المثل أعم
من المثل الأول لأنه لم يقصره على أحد، وإنما أطلقه
على كل وجه غير نظيف. ولكن المثل الأول أصدق
صورة، فالتنظيف عادة للوسخ! ولكن نظرات
الناس تختلف، فهناك ممن يصنعون الأمثال من يرى
غير هذا الرأي، ويخالفه تماماً، ويعتقد أن بذل
الجهد يأتي بنتيجة، وينجح في تغيير شيء من طبيعته
الأصلية إلى مظهر آخر تماماً. يقول أحد الأمثال
التي تسير على هذا النسق :

« لبس الخشبة تسير عجبه » أي «تصير»^(٢)

في الغالب أريد بالخشبة أن تحوّل إلى لعبة لطفلة
تمثل لها عروسة جميلة، فالخشبة التي ليس لها معالم

(١) الألمعي : ٢٢٢ .

(٢) السباعي : ٧٥ .



أصبحت شيئاً آخر له معنى بعيد في نظر هذه الطفلة
ومحول الخشبة، بل إن الخشبة قد تتحول إلى دولا ب
عجيب، أو منضدة مفيدة، أو صندوق مدهش،
أو إناء ثمين.

ويقول مثل آخر :

« لبس البوصة تصبح عروسة ^(١) »

والغريب أن الأمثلة الثلاثة كلها حول
العروس، واحدة تعني العروس من بني آدم،
والثتان الأخريتان تعني عرائس الدمى.

ومن الأمثلة التي لا تبعد في مرماها عن مثلنا
الأصلي في هذا الباب، وإن كان تفرعها مختلف
بعض الشيء، المثل الآتي :

« المليح مليح ولو قام من النوم ،

والقبيح قبيح ولو غسل وجهه كل يوم ^(٢) »

وهذا مثل صادق، فالصحة في الشباب،

(١) السباعي : ٧٩ .

(٢) دياب : ٢٥ .



والملاحظة فيه ، تقاوم آثار النوم التي تظهر على بعض من تقدم به السن ، أو من اعترته الأمراض . فهو يحتاج إلى وقت حتى تأخذ عيونه شكلها الطبيعي ، فتذهب منها دموع النوم ، وانكسار الجفون ، وتغضن الوجه ، والعبوسة التي تصاحب المستيقظ من نومه ، والحقيقة أن الشباب والصحة إحدى ركائز الجمال في الإنسان رجلاً كان أو امرأة . وإذا كان هناك في بعض سمات الوجه مالا يعتبر من موازين الجمال ومقوماته فإن الصحة تغطيه .

ويجربى على هذا النسق ، وإن كان يرمى إلى مرمى آخر ، ولكنه يدخل في حدود عدم تغيير الأصل ، مهما بذل من مجهود قول القائل :

« دلع الكبار زي الشقدف على الحمار^(١) »

الشقدف^(٢) للجمال ، وضُع ليتناسب مع ظهرها إن كان مفرداً ، أو على جنبها إن كان مجوزاً ، أما أن

(١) دياب : ٣٣ .

(٢) الهودج أو المحفة تستعمل لحمل النساء أو المرضى في السفر أو الحج .

يوضع على الحمار، فهذا خروج عن العرف،
ويوجب الضحك، بل قد يجلب الأذى، فلا الحمار
يتحمل، ولا ظهره مهياً، ولا جسمه معد للحبال
التي تحتاج إلى تثبيت الشقذف، وهو مركب مغطى
من خشب تركب فيه السيدات للحج، أو كبار
السن والأطفال. ولو وضع منه اثنان للمس
الأرض.

ويجري مثله تماماً المثل الذي يقول:

« الكبير لما يدّلع زي الخشب لما يتخلّع^(١) »

لنقترب من مثلنا الأصلي ونتصور امرأة عجوزاً
تحاول أن تتدلع على زوجها وتتدلّل، كما تتدلّل فتاة
صغيرة، مسموح لها بذلك، ومحجب منها أن تأتي
بأنواع الدلال، بل هو إحدى مظاهر القبول فيها.
حيئنذ تتبين لنا الصورة المقصودة.

وتحضرني - يا بني - بهذه المناسبة قصة قرأتها وأنا
صغير في أحد كتب الأطفال، ولعله الكتاب المسمى

(١) دياب : ٣٢ .



«بخرافات أيسوب». والقصة تصف منظرًا حدث في أحد البيوت. فالحمار كان يرى وهو خارج البيت القرد يقفز من رفّ إلى رفّ، ومن مكان إلى مكان، ومن مقعد إلى مقعد، ومن خوان إلى خوان، وصاحب البيت يضحك، ويعجب بهذه الحركات، ويشجع القرد على هذا، والتّماذي فيه. ويشبهه عليه. والقرد في خفته، وحذره، لم يوقع شيئاً من الأثاث، أو يكسر شيئاً من الأواني والأوعية، لمقدرته الطبيعية في هذا، وتدرّبه عليه، وداخل البيت يمكن أن يكون أحد المحيطات التي تقبله.

رأى الحمار هذا، وهو خارج البيت، فانتهاز أول فرصة فُتح فيها باب البيت، فدخل راكضاً، وقفز على أقرب مقعد فكسره، وثان فقلبه، وثالث ركله بقدميه فحطمه، فأخذ صاحب البيت عصا، ونزل عليه ضرباً فأخرجه. فاحتج على هذه المعاملة المتحيزة. هذا يضحك له، وهذا يجلد، ولم يدر عما بينهما من الفرق!



وهكذا يتوفر لكل متمثل المثل الذي يريده، مهياً لكل حالة، ولكل أمر ونقيضه. ومنبع المثل من المؤكد أنه حالات خاصة بعينها أوجبت صياغته في ضوء التجربة. وهكذا جميع الأمثال تقريباً، لو استقرأتها لوجدت الشيء وخلافه، إلا بعض ما تكون الحكمة فيه مانعة.



[٥٥]

أَيُّ بُنَيَّ !

وننتقل إلى مثل آخر :

هذا المثل - يا بني - يصور الحيرة ، والقلق ،
وشدة الضيق .

يقول هذا المثل :

« برد وحكة وقل ظفور^(١) »

البرد يقلق ويضايق ، والحكة تقلق وتضايق ،
فإذا اجتمع هذان العنصران ، وفقدت الآلة التي
تخفف من تأثير أذى أحدهما ، وهي الأظافر التي
ينزلها صاحبها على الموضع المزعج ، « ويجرف » بها
المكان المؤلم ، أصبح المرء في وضع لا يحسد عليه ،
وسأعطيك صورة كانت مألوفة في الماضي في
الشتاء . كانت حال أغلب الناس - قبل حكم الملك
عبدالعزیز ، وتوفر الامكانيات ، ووجود الوظائف ،
وازدهار التجارة والزراعة - رقيقة . وكان كثير منهم

(١) العبودي ٢٥٦/١ .



يحمل هم مجيء فصل الشتاء، لأنه يحتاج فيه إلى
مؤونة للأكل ولللباس ولوسائل التدفئة، وبعضهم
يلجأ إذا داهمه برد الشتاء إلى تجميع ما لديه من ثياب
أياً كان نوعها، فيلبسها كلها، يجعل أسوأها
أسفلها، حتى لا يطلع الناس على تمزقه أو
انكماشه، أو تساقط «أزاريره» «أزرته»، ويجعل
أقربها إلى القبول أعلاها. ومع ذلك فالأعلى سرعان
ما يتسخ، لأنه الأعلى، ولأن صاحبه يجلس فيه على
التراب، وعلى عتب الأبواب، وعلى الصفا، وعلى
الخشب، فلا يلبث أن يتمزق أيضاً من البلى، أو
من عارض يحدث له.

وقليل من الناس يتهياً له أن يلبس صوفاً،
وبعضهم يتخذ العباءة طوال الليل والنهار مدفاة
له، يتقي بها البرد، ينام فيها، ويمشي بها بين
الناس. وعباءات الناس ألوانها ونوعياتها مختلفة.
وكان المسيطر بين عامة الناس العباءة البرقاء، وفيها
خطان عريضان أبيض وأسود، ومن يقتنيها أو مثلاً
لها يعتبر حظيظاً، ويحافظ عليها كما يحافظ غيره على
كيس دراهمه.



فتصور - يا بني - شخصاً قد راكع فوق جسده كل هذه الملابس ، ووضع فوقها هذه العباءة ، وله أسابيع أو أشهر لم يغتسل ، وأصابته ظهره حكة بسبب ما تراكم عليه من الأوساخ ، أو بسبب القمل الراجع المتنامي في ثيابه وجسمه ، وأراد أن يطفىء صولة نار هذه الحكة بأظافر حدتها تتساوى مع شدتها . فإنه سوف يجد الوصول إلى الظهر صعباً جداً ، والبرد له بالمرصاد لو كشف جسمه ، أو خفف ثيابه ليحك . وفوق هذا إذا كانت أظافره من القصر بحيث لا تساعد على بلوغ مناه . إنها حالة مزرية ينطبق عليها المثل ، معبراً خير تعبير .

وتستطيع أن تتصور الحرقه المائلة لامرأة زوجها اسمه قبلان ، وتزوج في ليلة صيف متوهجه ، جوها يسبح في سمائه أرتال من «الناموس» البعوض ، والمرأة في سطح ليس فيه كلة «ناموسية» . وسئلت عما ضايقها ، وأقضى مضجعها ، فاختصرت الجواب بقولها :

« حرّ وبقّ وقبلان معرس »



هل هناك - يا بني - حالة من البؤس يمكن أن
تمنع الغمض عن عين امرأة إلا إذا تجمعت عليها
هذه الأمور: حر يلهب الجسم، وبعوض يشن
حرباً شعواء لا هوادة فيها، وزوج عند زوجة
عروس صغيرة. إنه مثل دقيق في وصف حالها
وأمثالها.



[٥٩]

أما المثل التالي - يا بني - فهو يلمس جانباً مهماً ،
وإليك بعض ما يمكن أن يقال فيه :

المجتمعات في كل مكان - يا بني - ملأى بالذين
يرون عيوب الناس ، ولا يرون عيوبهم ، يعميهم
الهُوى عن أن يروا عيوبهم مهما كبرت ، ويلحظون
عيوب الآخرين مهما صغرت ، يرون عيوب
الآخرين رغم بعدهم عنهم ، وجهلهم بأسباب هذه
العيوب ، مما قد يكونون معذورين عليه ، على حد
قول الشاعر : «لعل له عذراً وأنت تلوم» . ولا يرون
عيوب أنفسهم رغم قربها منهم ، ومعرفة أسبابها لو
تدبروها ، وهم الملمومون في وجودها ، وعدم بذلهم
الجهد لتلافيها ، ومحوها . وإن كانوا مرغمين عليها ،
فلا أقل من أن يعذروا الآخرين على ما قد يكونون
مرغمين عليه .

والمجتمعات تعاني - يا بني - من هؤلاء العمي
المبصرين ، فجاء من طفق به الكيل ، وبلغ السيل
عنده الزبى منهم ، فتلمس مثلاً ينطبق عليهم ،

ويتماشى مع حالتهم ، فلم يذهب بعيداً ، ووجد
المثل عنده حاضراً ، وجده في الجمل الذي يراه في
بيئته ليل نهار ، ويرى أن هذا الجمل يتفق معهم في
بعض صفاتهم فقال :

« الجمل ما يشوف سنامه ^(١) »

فالجمل رغم أن سنامه منه ، وفوق ظهره ، فهو
لا يلتفت ليراه ، مثله مثل هؤلاء الناس لا يرون
عيوبهم ، ولا يقفون ليتدبروها ، قبل أن يشذبوا
الناس ، ويسلقوهم بالسنة حداد .

ومن بيئة أخرى ، جاءت ملاحظة نتج عنها مثل
آخر يسير على الطريق نفسه ، فيعظ أولئك الذين
يبتلون الناس ، وخير لهم أن يلتفتوا لأنفسهم
ليعدلوا الميل الذي يلومون الناس عليه ، وقيموا
معوجّهم قبل معوجّ الآخرين ، ويكملوا نقصهم
قبل طلبهم من الآخرين أن يكملوا نقصهم .
ويقول المثل ، ولعله جاء من بيئة صيادين :

« الشبكة تعير (أو تعاب على) المنخل »

(١) السباعي : ٢٦ ، دياب : ١٢ ، الألمي : ٦١ .



أنها صورة فائقة، تصور - يا بني - شبكة خرج منها رجلان ويدان، ووقفت على قدميها - في صورة تحدّ - وقالت بلسان سليط، لمنخل يقف أمامها منخذلا: إنك لا تمسك الماء إذا وضع فيك. وتنتقصه لذلك، وتحط من قدره، وتكسر نفسه؛ ناسية أنها أسوأ منه فيما تنقصته به، فقد يمسك المنخل بعض ما يوضع فيه مما لا تستطيع أن تمسكه هي، فإن كان عنده مسامٌ فهي عندها شقوق. ولكنها الوقاحة التي تسيطر - يا بني - على بعض المتحدثين، أو المتصرفين.

ومثل آخر يتفق، مع المثليين اللذين مرّا، في الهدف:

« الي بيته من قزاز ما يرمي الناس بالحجر »

أجل كان على الرامي الناس بالحجر أن يتذكر ويتدبر أنه سوف يكون الخاسر، إذا التفت إليه الناس، وردّوا أذاه بمثله، ورموا بيته بالحجارة، وبيته من زجاج. ماذا تكون النتيجة، سوف يتكسر



البيت ، وسيتعرض هو لما التجأ للبيت عنه ، وهو
البعد عن التشرد ، فيخسر نفسه ، ويخسر بيته ، ألم
يكن أسلم له أن يعرف مواقع ضعفه ، فيراعي
الناس فيما هم فيه من ضعف حتى يراعوا مواطن
ضعفه .

وننتقل إلى مثل آخر :

الحج - يا بني - يجمع المسلمين من كل فج،
يؤدون فيه شعائرهم في هدي السنة المحمدية .
والمتوقع أن ينصرف الانسان فيه إلى ربه ، وينقطع
إلى ذلك ، خاصة إذا كانت حجته ذلك العام حجة
الفرض . ولكن يبدو أن هناك من يقوم بشيء آخر
من أمور الدنيا أوحى لأحد المشاهدين أن يسجله في
مثل ، يمكن أن يستفيد منه الناس في بعض ما
يعرض لهم في هذه الحياة . يقول المثل :

« حج وبيع سبح^(١) »

أو :

« حاج وبيع سبح^(٢) »

وهذا في الحجاز . أما أهل نجد فيقولون :

« حج بقضيان حاجة »

(١) دياب : ٦٠ .

(٢) الألمعي : ٦٥ .

ولا يختلف المثل هذا عن سابقه إلا في أنه لم يحدد العمل المشترك مع الحج، وهو بهذا أوسع، يدخل فيه لو أن أحداً من أهل نجد، ذهب وأدى فريضة الحج، وخطب لابنه زوجة في مكة، فهو بهذا قد قضى حاجتين، وأنجز غرضين، وقد يكون باع بغيره بثمان غال بعد أن وصل إلى مكة، ثم انتظر فيها إلى ما بعد الحج، ورخصت الجمال، فاشترى آخر، وصفا له حجه دون خسارة.

على أي أود منك - يا بني - أن تتأني، فلا تستعجل فتتهم بائع السبع أنه أفسد حجه بالتجارة، فقد لا يكون باعها أثناء أدائه حجه في المشاعر، ولكن قبل أن يدخل في الإحرام أو بعد أن انتهى الحج كلية، لأن بيع السبع مستمر طوال الموسم، بل لعل من حج لا يسارع في شراء السبع منذ وصوله، وإذا اشترى شيئاً منها حينئذ، فإنه يشتري واحدة يسبح بها، ويشتري هدايا السبع لمن يعزّ عليه في بلاده. عندما لا يبقى على سفره إلا القليل. ولا تظن أنه سوف يخاف من نفادها، فهي لا تنفذ لكثرة المخزون، وكثرة أنواعه.



وهناك مثل في هذا الجانب لا يبعد عن المثل السابق ، ومؤداه في النهاية هو مؤدى الأول . يقول المثل :

« على طريقك شل خشبة »

فالمطلوب ممن هو ذاهب لعمل رئيسي أوجب ذهابه ، أن يقوم بعمل فرعي ، لا يكلفه ولا يجهد ، فمجهوده وتعبه داخل ضمن المجهود الرئيسي المبذول .

وهذا المثل - يا بني - دقيق في تصوير حياة الناس ، وحرصهم على وقتهم ، والانتفاع بجهدهم ، وما يبذلون منه ، والاستفادة من كل مجال يمكن الاستفادة منه . فإذا كان هناك شخص مسافر على جمال ، وأحماله غير مكتملة ، أو ليس على جماله أحمال ، وإنما هو ذاهب لبلد آخر ليجلب منها جلباً ، فيمكنه دون مشقة أو عناء أن يساعد ، فيحمل شيئاً قليلاً مفيداً لآخر ، وهو غير ضارّ به أو بإبله .

وهذا مثل يردّه الناس كثيراً، لأن ما يقتضيه شائع في حياتهم، خاصة داخل البيوت، أو حولها، فهذا شخص يريد أن يذهب إلى المطبخ تقول له: على طريقك إحمل الصينية والفناجين المنتهى منها إلى المطبخ، أو ذاهب للصلاة تقول له: على طريقك اعط الجيران صحنهم الذي أطعمونا فيه أمس تمراً. أو وأنت ذاهب إلى عملك خذ هذا الخطاب إلقه على طريقك في صندوق البريد. أو أن رأيت فلانا على طريقك (أي في طريقك) فقل له كذا، أو اجعله يتصل بي، أو يمرّ بي.

أما أنت - يا بني - ففي زمنك يمكنك أن تقول لزميل ذهب ليستعير له كتاباً من المكتبة استعري لي معك هذا الكتاب، أو رد هذا الكتاب إلى المكتبة. أو: وأنت ذاهب لتصوير بعض أوراق المحاضرات احسب حسابي في نسخة مماثلة، وسأدفع لك حقّها. وقد تطلب منه، وهو مسافر إلى بلد آخر، أن يبحث لك عن شيء، فيأتي لك بالمعلومات المطلوبة، أو بالحاجة التي سبق أن طلبتها.



وهكذا - يا بني - كل أمر تُكلف به شخصاً دون أن يقتضيه الأمر الخروج عن الهدف الرئيسي الذي ذهب من أجله ، فأنت تردفه بقولك : «على طريقك شل خشبة» . وهذا القول فيه تلطيف للازعاج الذي قد تسببه له ، وأنت تدري بأن فيه إزعاجاً وتعاميت ، أو لا تدري .

وقد تجد أنت نفسك - يا بني - تستفيد من الذهاب لأمر ، ثم تجد أنك يمكن أن تستفيد من ذهابك لغرض آخر ، فقد تكون ذهبت إلى أحد المستشفيات لتكشف على صحتك ، ولم يكن في حسابك أن تعمل شيئاً لأسنانك ، ولكنك بعد أن وصلت هناك عاجلت أسنانك ، فتقول لأهلك أنك عملت هذا ، وتقول : قلت لنفسي : على طريقك شل خشبة . وهكذا .

ومثل آخر - يا بني - :

من الأمثلة التي تدل على استحالة وقوع شيء
رغم ادعاء من يدّعي أن ذلك ممكن ، وهو مثل
قديم ، وعلى هذا فهو مأخوذ من بيئة ماضية ، وإن
كانت اجزأؤه لا تزال توجد في حياتنا الحاضرة يقول
المثل :

« السما صرقوها قال : فين ودوها^(١) »

هذا مثل جميل ، وخفيف ظل ، ويطفح
بالسخرية ، ويقتسر الابتسامة منك - يا بني - قسرا .
وهو مثل يدحض بأدب قولاً كاذباً ، لأنه يلزم إلى
استحالة أن تُسرق السماء ، فهي أكبر من أن يقدر
أحد على سرقتها . وبدلاً من التكذيب المباشر الجارح
جاء المثل مجارياً للمدّعي ، ونّبّه إلى كذبه ، مؤكداً
أنه عجز عن الجواب على السؤال الموجه إليه ،
ومستفسراً عن إكمال ما حدث للسماء المسروقة .

(١) السباعي : ٤٢ ، دياب : ١٠٤ .



وعادة الشيء المسروق يكون أصغر من المكان الذي سوف يخبأ فيه ، دع عنك أن المكان يجب أن يكون خفياً ، تتعداه الأنظار ، وتتخطاه العيون ، ولا تدور حوله الشكوك ، أو تحدسه الظنون .

فهذا مثل يقول إنه من المستحيل أن يقع أمر ادّعى مدع وقوعه . والبرهان على استحالة جاء ضمن الادعاء نفسه .

ولهذا المثل شقيق يسير على نمطه ، ويأتي من محيطه يقول :

« شفت البغل في الابريق . قال له شفت أنا ودانه ^(١) »

وهذا مثل آخر رائع وظريف ، اتخذ أيضاً صيغة المتابعة للمدعى ، ومسايرته في دعواه . فالسامع لم يجبه المدعي ، ولم يُبَكِّته أو يؤنبه ، أو يكذبه صراحة ، بطريق مباشر قاس ، وإنما جراه وسائره ، فإذا كان المتكلم الأول قد قال ما هو مستحيل ، وهو دخول

(١) السباعي : ٤٥ .

البغل، بحجمه الضخم الكبير، في الابريق على صغره، وضيق فوهته، وضيق المدخل إليه، والخروج منه، فإن السامع ماشى القائل، وادّعى مثله أنه رأى منه أذنيه المنتصبين خارج فتحة الابريق، وهذا يعني متابعة المدعي في أن البغل في الابريق، ولكن طي هذا استهزاء ما بعده استهزاء.

ألا يذكرك - يا بني - هذا بالرجل الذي سأل عمر ابن قيس عن الحصاة يجدها في ثوبه، أو في خفّه، أو في جبهته من حصى المسجد. فقال: إرم بها. قال السائل: زعموا أنها تصيح حتى تردّ إلى المسجد. فقال عمر: دعها تصيح حتى ينشقّ حلقها. فقال الرجل: سبحان الله! ولها حلق! قال عمر: فمن أين تصيح؟^(١).

أرأيت - يا بني - كيف ساير عمر بن قيس السائل، وجاراه حتى أوصله إلى طريق مسدود، وبصره بقيمة سؤاله من عدمها، دون أن يجبهه من

(١) العقد الفريد : ٢ / ٢٢٥ .



أول الأمر بالحقيقة، التي توصل إليها بطريق طويل، ولكن ليس فيه جرح، وإن كان لا يخلو من تحجیل في نهاية الأمر، وروح تهكم.

وادعاء المستحيل - يا بني - من أناس لا يزنون الأمر بميزان العقل، ويستهيئون بعقول الناس الذين يخاطبونهم، كثير، ويأخذ اتجاهات مختلفة، وإذا كان المثان السابقان قد رسما صورة في هذا الجانب، فهناك جوانب أخرى، فيها من الادعاء ما قد يثير العجب والسخرية، ويصلح للرواية في المجالس على سبيل التسلية، وسوف أضرب لك مثلاً لهذا:

اتفق شخصان على أن يعضد أحدهما الآخر في أي خبر يرويه، ويؤمن على كلامه، ويؤكد حدوث ما يقصه. وسار الأمر بينهما على هذا، حتى جاء يوم روى أحدهما رواية، لم يستطع الآخر أن يعضده فيها مباشرة، لما فيها من خروج عن المعقول، ودخول في حيز المستحيل، ومع هذا فقد اجتهد ألا يخذله، أو يتخلى عنه، وهو في هذا الموقف العجيب



أحوج إلى المساعدة، لأن ما قاله قمين أن يبعد عنه كل مستمع .

أتدري - يا بني - ماذا قال هذا الصديق الأخرق . قال في مجمع من القوم : لقد سمعت كلاباً تنبح في السماء، الليلة البارحة . فدهش السامعون، وأسقط في يد زميله، لأن الشق أكبر من الرقعة، ولو صدقه من بين جميع الحاضرين لسقط من أعينهم، وأنزلوه من مجالسهم، فاحتال للخروج من المأزق، وقال : أحياناً الرياح تحمل الصوت من الأرض إلى السماء، فيكاد يحلف السامع أن الصوت آت من السماء، وغمز بعينه لصاحبه أن أمّن على كلامي، وفاء بالعهد، فأمن المفترى للكذبة على هذا التعليل . وأسرع زميله بفض الجلسة وانهاها . وخرجوا . فقال له : كان اتفاقنا على ما يجري في الأرض، وما يقص عما يجري فيها، ولا يصل إلى السماء، فلنبقه في حدودها، ولا نتعداه إلى أعلى .

قد يمر بذهنك - يا بني - خاطر، فتقول لماذا لم يحل الاتفاق مادام اكتشف أن زميله «فشار» «نتاش»



لم يحل الاتفاق لأنّه قد يكون مضطراً إلى الإبقاء على
هذا الاتفاق، لأن له فيه فائدة، فقد يكون من
الذين يدعون لأنفسهم دعاوى تبنيهم، لنقص
فيهم، فلا يستغني عن تصديق هذا له أمام
الاشهاد. وقد يكون له عليه سلطة من مال أو جاه،
لا يستغني عن خطب ودّه، وإبقاء عطفه.



[٦٦]

ومثل آخر :

ولتعرف - يا بني - مدى تأثير البيئة على صياغة
المثل ، أذكرك بالمثل الذي يقول :

« تبحث عن حتفها بظلفها »

هذا مثل قديم جداً ، وقد يكون مأخوذاً من
البادية ، أو من الحاضرة من بيئة تقتني الأغنام ،
وتحفظها في حوش البيت المترب . ويقال إن وراءه
قصة طريفة ، وهي أن رجلاً أراد أن يذكي عنزا
عنده ، فلم يجد مُدِيَّةً يذبحها بها ، والأرض كما
نعرف في الصحراء ، وفي أفنية البيوت القديمة ،
ترابية . ومن طبيعة العنز - قبل أن تربض - أن
تحرث الأرض ، وتنشها بيدها عدة مرات . ولعل
هذا غريزة فيها ، تواسي بها الأرض ، أو تبعد عن
مضجعها النواتيء أو الهوام . وقد فعلت عنز الرجل
هذا الفعل ، وبحثت الأرض بظلفها ، فخرجت من
الأرض من قوة النبش ، سكين مدفونة ، فَحُلَّ



الاشكال الذي كان وقع فيه الرجل ، وانفرجت
الأزمة التي واجهته . وكان في نبش العنز الأرض
حتفها ، ودنوَّ أجلها . فقد ذكاها بالسكين .

ولاحظ - يا بني - أن المثل - في الغالب - يأتي
مسجوعاً ، أو به حلية لفظية من نوع أو آخر ، كأن
يكون في الجملة اختصار بطريقة معينة ، أو تقديم
أو تأخير ، أو لعب على بعض الألفاظ وهكذا جاء
هذا المثل مسجوعاً .

وهذا المثل - يا بني - يضرب أيضاً للانسان يكون
في منجى ، فيقول قولاً سيئاً إليه ، أو يفعل فعلاً
يضرُّ به ، فيضيع عليه كسب كان سيأتيه ، أو يبقى
ضرراً كان سوف يتعداه ، فلا يفلت من هذا أو ذاك
بسبب من الأسباب التي هيأها بقوله أو فعله .
أرأيت لو أن طالباً أجاب سؤالاً في الامتحان فأجاد
الاجابه ، وأعجبته نفسه فزاد شيئاً ظناً أن إجابته
الأولى لم تكن هي المطلوبة ، فأفسدت عليه الزيادة
ما كان صالحاً في الاجابة الأولى .



وهب أن بائعاً أراد أن يروج لبضاعته، وكان المشتري على وشك أن ينهي الصفقة ويشتريها، فقال التاجر، قاصداً مدح بضاعته، كلمة أذرت المشتري، فعدل عن الشراء. وهب أن شخصاً أراد أن يشتري بيتاً، فسمع من البائع ما رغبه فيه، وسره عنه، ثم زاد البائع قولاً كان سبباً في نفور المشتري بدلاً من ترغيبه وجذبه. ولن تعدم حوادث تمر بك - يا بني - يمكن أن تطبق عليها المثل. ما عليك إلا أن تراقب الناس حولك، وسوف تجد هذا كثيراً.

قلنا إن هذا المثل مثل صحراوي، أو من المدينة، يعني أن هناك احتمالاً؛ ولكن دعنا ندخل مدينة حقاً، لنرى ماذا يقول أهلها في مثل هذا الموقف. لندخل مكة المكرمة - شرفها الله - فهي أعز مدينة علينا، وأقربها لنا، ونحن أقرب إلى معرفة ما بها، وما يأتي منها. ونستمع إلى مثل منها - شرفها الله - أو من مدينة مثلها، عندما كان البعوض فيها في الماضي جوقات موسيقية في الصباح وفي المساء. ينقضن فرادى أو جماعات على ضحاياهن،



انقضاض السهم من الرمية، أو الصقر على الضحية، يمتصن الدماء طربات، ويغنين بهجات. هذا الطرب، وهذا التغريد هو موحى المثل الذي يقول:

« زي الناموس يزنّ على قتله^(١) »

ولك أن تتصور - يا بني - ما كان يحدث، يأتي الانسان من عمله متعبا، يتطلع إلى نوم هادىء مريح، وأحلام مبهجة، تبني له قصوراً في الأحلام يعوض بها عن فقد بيوت اليقظة. فيطفئ السراج، وقد رأى البعوضة متحفزة عن بعد، حائمة متطلعة، فلا يلبث إلا دقائق، فتبدأ الغارة منها، ويسمع صوتها؛ فتأتي البعوضة، ولها طنين مثل طنين صاروخ «سكود»، ويستمع المضطجع إلى صوتها مقبلة أو حائمة أو منقضة، وأذنه راداره، فيهيء يده، وكأنها صاروخ «باتريوت»، لتكون مضرباً لا يخطئ. وهو في الظلام لا يراها، وهي في

(١) السباعي : ٣٩ .



الظلام تعرف مكانه، وتعرف العضو الذي سوف تختاره منه، والعرق الذي سوف تمص الدم منه، وتسحب خيره من مجراه. فتقع على هذا العضو المسكين، وتثبت أقدامها، لتساعدها على غرس زلومتها، ووضع الشحم اللازم لتسهيل دخولها في الجلد «الْمُتَمَسِّس» المتصلب من توقع الألم. وقد تكون رفيقة فلا يحس بها إلا بعد أن تبدأ المَصّ، فيبدأ الألم ثم يزيد ويزيد، وهي راتعة غارقة في بحر من اللذة، حتى إذا اطمأن أن النشوة قد خدرتها، وأنها ذهلت عن موقع الخطر حولها، والموت المحقق بها، أرسل عليها يده، وكأنها مرزبة، فتلصقها بالجلد، وتساويها به، ولا تحتاج إلى ضربة غيرها، ويتنفس المسكين الصعداء، ولكنه إذا لم يدخل في الناموسية «الكَلَّة» فستبقى الحرب بينه وبين البعوض طوال الليل، فلا «الناموس» ينتهي، ولا النوم يقترب، ولا السلام يحيم، ويستمر الانقضاض، والتحري والتوقي، والمصّ والضرب والموت. تربص وختل، ودماء تسيل، وفرقات



متتالية . إذاً كما رأيت - يا بني - فصوتها ، وزنيها ،
هما سبب قتلها ، لأنها دلا عليها . وعلى مكانها قرباً
وبُعداً ، وانعدام صوتها دليل على أنها وقعت
واستقرت ، يبدأ الألم ليتحدد مكانها ، فتنقض
الجيوش : اليد والأصابع ، للاحاطة بها ، ثم
الاطاحة بها . فهي بصوتها تدق مسماراً في نعشها ،
كما يقولون .

والمثل صورة صادقة لمن يدني حتفه بظلفه ، أو
موته بزلومته وصوته .

وهناك مثل آخر يكاد يكون مرادفاً في المعنى لمثلنا
هذا ، يقول هذا المثل :

« دبّور زنّ على خرابه ^(١) »

والدبور ، وهو شبيه بذكر النحل ، ولعله أكبر
قليلاً ، وسبق أن تحدثنا عن الذبّه ، وهو ذكرها .
والانسان إذا دخل الدبور منزله ، أو جاء قريباً من
منزله ، قتله ، لأنّ لسعته مؤلمة ، ومؤذية . وصوته هو
الذي دلّ عليه .

(١) دياب : ٣٣ . وقد يكون القصد خراب بيته أو عشه .

ومثل آخر :

ألم تسمع - يا بني - بالمثل الذي يقول :

« خيَّال الخيل قال حاضر بحاضر »

يريدون بذلك أن يُتبع المدّعي القول بالعمل ،
ففيه اختبار لمن يفاخر بشجاعته ومقدرته إذا كان
هناك شك في هذه الشجاعة والمقدرة . فإذا ادّعى
شخص بأنه خيَّال ماهر . وراكب خيل جيّد ، فهذه
الخيّل حاضرة ، فليركبها ، وليثبت قوله إنه فارس !
وبذلك يُقطع الشكّ باليقين ، وتظهر الحقيقة ، فإما
أن تكون له ، أو تكون عليه .

فهذا مثل يضرب للمدّعي أمراً يحتاج لتصديقه
إلى إثبات ، وله أمثلة مرادفة ، تؤدي المعنى نفسه ،
وتنادي بمثل هذا الاختبار ، فهناك مثل يقول :

« الماء يكذب الغطاس »

والماء قد يصدّقه إذا كان فعلاً يجيد السباحة



والغطس ، إجادة تامة ، تبرهن على ما ادّعه ، وقد يُغرقه إذا لم يكن كذلك .

وإذا كان المثل الأول مأخوذاً من بيئة حرب و قتال ، فإن بيئة هذا المثل قد تكون منطقة ساحلية ، أو فيها من المياه ما يجعل أخذ المثل من الماء ، وما يجري فيه سهلاً .

وهناك مثل آخر يجري على مثل مجرى المثل الأول ، وبيئته بيئة حرب و قتال أيضاً ، وهو واضح في هذا - يقول المثل :

« الجبان في الحرب يبان ^(١) »

وهذا اختبار متقن ، سوف يجلو الحقيقة ويظهرها ، ويقضي على ادعاء مدعي الشجاعة وهو جبان . وقد حدث - يا بني - موقف اختبار مثل هذا لأبي دلالة عندما ادّعى الشجاعة طمعاً ، وهو جبان ، وجاءه الاختبار ، وهو لم يتهيأ له ، أو يدرس أو يذاكر .

(١) الألمعي : ٦٢ .



وإليك قصته :

غضب المنصور أو المهدي على أبي دلالة لذنوب ارتكبه، فحلف ليخرجنه إلى الحرب، فاسمع روايته لما حدث :

حلف الخليفة ليخرجني في بعث حرب، فأخرجني مع روح ابن حاتم المهلب، لقتال الشراة، فلما التقى الجمعان، قلت لروح : «أما والله لو أن تحتي فرسك، ومعى سلاحك، لأثرت في عدوك اليوم أثراً ترتضيه». فضحك، وقال : «والله العظيم لأدفعن ذلك إليك، ولأخذنك بالوفاء بشرطك». ونزل عن فرسه، ونزع سلاحه، ودفعهما إليّ. ودعا بغيرهما، فاستبدل بهما.

فلما حصل ذلك في يدي، وزالت عني حلاوة الطمع، قلت له : «أيها الأمير، هذا مقام العائذ بك، وقد قلت بيتين، فاسمعهما». قال : هات . فأنشدته :

إني استجرتك أن أقدم في الوغى
لتطاعن وتنازل وضراب



فهب السيوف رأيتها مشهورة
فتركتها ومضيت في الهرب
ماذا تقول لما يجيء وما يرى
من ورادات الموت في الشباب
فقال: «دع عنك هذا، وستعلم».

وبرز رجل من الخوارج، يدعو للمبارزة،
فقال: «أخرج إليه يا أبا دلامة!» «فقلت: «أنشدك
الله أيها الأمير في دمي». قال: «والله لتخرجن».
فقلت: «أيها الأمير، فإنه أول يوم من الآخرة،
وآخر يوم من الدنيا، وأنا والله جائع، ما شبعت مني
جراحة من الجوع، فمر لي بشيء آكله، ثم
أخرج». فأمر لي برغيفين ودجاجة. فأخذت ذلك،
وبرزت عن الصف.

فلما رأني الشاري أقبل نحوي، عليه فرو، وقد
أصابه المطر فابتل. وأصابته الشمس فاقفعل
(تقبّص)، وعيناه تَقْدان. فأسرع إليّ. فقلت له:
«على رسلك يا هذا، كما أنت». فوقف. فقلت:
«أتقتل من لا يقاتلك؟ قال: «لا». قلت: «أتقتل

رجلاً على دينك؟» قال: «لا». قلت: «أفتستحل ذلك قبل أن تدعو من تقاتله إلى دينك؟» قال: «لا». فاذهب عني إلى لعنة الله». قلت: «لا أفعل، أو تسمع مني». قال: «قل»: قلت: «هل كانت بيننا قط عداوة أو ترّة، وتعرفني بحال تُحفظك عليّ، أو تعلم بين أهلي وأهلك وترا؟» قال: «لا والله». قلت: «ولا أنا والله لك إلا جميل الرأي. وإني لأهواك، وأنتحل مذهبك، وأدين دينك، وأريد السوء لمن أراد لك». قال: «يا هذا، جزاك الله خيراً، فانصرف». قلت: «إن معي زاداً أحب أن أكله معك، وأحب مواكلتك؛ لتتوكّد المودة بيننا، ويرى أهل العسكر هوانهم علينا». قال: «فأفعل».

فتقدّمتُ إليه حتى اختلفت أعناق دوابنا، وجمعنا أرجلنا على معارفها، والناس قد غلبوا ضحكاً، فلما استوفينا ودّعني. ثم قلت له: «إن هذا الجاهل إن أقمّت على طلب المبارزة ندبني إليك، فتتعبني وتتعب، فإن رأيت ألا تبرز اليوم، فافعل». قال: «قد فعلت». ثم انصرف وانصرفت. فقلت



لروح : «أما أنا فقد كفيتك قرني ، فقل لغيري أن
يكفيك قرنه كما كفيتك» . فأمسك .

وخرج آخر يدعو إلى البراز . فقال لي : «أخرج
إليه» . فقلت :

إني أعوذ بروح أن يقدمني
إلى البراز فتخزي بي بنو أسد
إن البراز إلى الاقران أعلمه
مما يفرق بين الروح والجسد
قد حالفتك المنايا إذ صمدت لها
وأصبحت لجميع الخلق بالرصد
إن المهلب حب الموت أورثكم
وما ورث اختيار الموت من أحد
لو أن لي مهجة أخرى لجدت بها
لكنها خلقت فرداً فلم أجد

وقد صدق المثل - يا بني - كما رأيت - مع أبي
دلامة ، فأظهر الاختبار أنه جبان . وأقر هو أن ما

(١) الأغاني : ٢٥٥ / ١٠ .



أظهره من شجاعة كان بسبب الطمع ، الذي
سرعان ما أدخله في مشكلة كبرى ، كادت تقضي
على حياته .

هذا ولا تنسى - يا بني - ما سبق أن تحدثنا عنه^(١)
عن مظهر شجاعة غير سليم ، رواه ابن قتيبة^(٢)
يدور حول أبي حية النميري ، وسيفه الذي ليس
بينه وبين الخشب فرق . ومحاصرته لعدو وهمي تبين
فيما بعد أنه كلب ، فقال دون أن يقرّ بأنه كان واحما :
« الحمد لله الذي مسخك كلباً ، وكفاني حرباً » .

(١) «أي بني» ٢/٣٠٢ ، ط ١ .

(٢) الحمقى والمغفلين : ١٨٩ .



[٦٤]

وإلى مثل آخر :

دعنا - يا بني - ندخل من ميدان الحروب ، وأمور
الشجاعة والجبين ، إلى داخل البيوت والقصور
والقلاع ، فهي أكثر حصانة ، وأدفاً حضناً . ولكن
قبل أن ندخلها يجب أن نوجد لها ، وقبل أن نوجد لها
يجب أن نوجد وسائل بنائها ، وقبل أن نوجد
الوسائل علينا أن نعرف كيف تصنع . وإحدى هذه
الوسائل في نجد في زمن أجدادك لصنع «اللبن» من
الطين ، أنهم يخلطونه بقليل من التبن ؛ ليزيد في
قوته ، ويسهل تماسكه ، ثم يلبنونه في قوالب ، ذات
حجم معين قد حدّده ، ثم يضعون ما لبنوه في
الشمس ، مدة معينة ، حسب فصول السنة ، حتى
يجف . ثم يبدؤون البناء به .

وتراهم - يا بني - وقد تهيؤوا للبناء ، يقف أحدهم
يبنى ، والثاني يناوله اللبن ، و «الشباعة» :
«اللياصة» ، يقول الباني للمناول «لبنة» فيناوله
الآخر ، الذي في مكان أدنى «اللبنة» ، فيضعها طالها

في مكانها من الجدار، ثم يقول مرة أخرى «طينة» فيناولها طينة رطبة نيئة، يلحم بها اللبن مع أخرى سابقة، إما بجانبها أو فوقها. ويستمر البناء هكذا: «لبن» «طينة» حتى يكمل الجدار.

وعندما يرتفع البناء عن الأرض، يربطون أخشاباً تساعدهم على البناء الأعلى، يشبه ما يسمى اليوم «بالسقالة». يأخذ البانون مكانهم منها، حسب ارتفاع البناء. وحسب ارتفاعه يتعدد المناولون من الأرض إلى السطح مثلاً. والسقالة هذه وسيلة لنقل اللبن من مشمسه في الأرض إلى أعلا. ولا بد - يا بني - أن نقل اللبن والطين من أسفل البناء إلى أعلاه يكون لهم مشكلة، ويمثل معضلة، من جراء المشقة التي يتعرض لها الناقل. هذه المعضلة أوحث لهم بمثل أخذوه من البيئة التي عاشوا فيها، وعملوا فيها. يقول المثل:

« ما لبنت فارقه^(١) (أي فاصعد به)

(١) الجهمان : ١٣٩ / ٧ .



أي تحمل ما كنت سبباً في وجوده وتشكيله
وتكوينه، فما دمت قد قمت بالتلبين، فقم بنقله إلى
أعلى، حيث هو مطلوب. وهو مثل يقال ليعبر عن
كثير مما يتعرض له الانسان في الحياة، مما يوجب
تحمل المسؤولية بجميع مراحلها. فأنت إذا تسببت
في إحراج شخص فعليك أن تخرجه من المأزق.
وأنت إذا بدأت أمراً لا يستطيعه قبيلك طلب منك
اتمامه. وأنت إذا أعملت آلة فيها عطب، وهناك
صاحبها من العبث بها، حتى لا يزيد الخلل فيها،
فلم تصغ لقوله، ونصحك بتركها فلم تستمع
لنصحه، ووقع المحذور من جراء فعلك، قال
لك: «ما لبنت فارقة». وهو قول في هذه الحالة لا
يخلو من تأنيب، في حين أن ما سبق هو عبارة عن
استعانة، وما سبقه هو تعديل ميل^(١).

وهناك مثل يسير على نمط هذا، ويرمي إلى ما
رمى إليه، وقد يوضح ما قد لا يكون سابقه قد
وضحه. وعلى كل فهو ينزح من بئر أخرى،

(١) راجع «أي بني»، ٢٩٦/١.



ويغرف من معين مغاير، ويأتي من مكان مختلف عن المكان الأول. وإذا كان الأول عناصره كلهم رجال، فالثاني فيه عنصر نسائي يقوم عليه المثل أصلاً.

يقول المثل :

« خبزك يا الرفلا كويله »

أي أنت يا هذه المرأة غير المتقنة لعملها، كلي هذا الخبز الذي لم تحسني خبزه. وهذا فيه عقاب، وقد يكون هذا العقاب شديداً، فقد يكون الخبز لم يندح اندياحاً كافياً، مما جعل النار لا تمضي فيه، فبقي عجينة نيئاً يؤلم البطن، مع طعم غير مساغ.

وهذا مثل وراءه صور من الماضي. منها أن المرأة يفاخر أهلها قبل زواجها بأنها تجيد الطبخ، وتتقن خبز التنور، والاتقان درجات - يا بني - فبعضهن سمعتهن تطبّق الآفاق، ويشتهرن بهذه القدرة. ففي هذا العمل مجال لإظهار الاستعداد الفطري، والعمل المكتسب بحسن التوجيه من الوالدة أو



المربية، وبالتمرين الجاد. ففي عجن العجينة كفاءة، وفي فترة التخمر حدّ معين ودقيق، وفي فرد العجينة واندياحها تميّز، وهذا من أصعب الخطوات في مجمل هذا العمل. ثم يأتي لصقها في التنور الذي يتلظى، تكفي رؤيته ليذكر بجهنم، ولا تصبر على القرب منه، والبقاء حوله إلا من عندها عزم متميز. ثم تأتي المدّة اللازمة لبقائه في التنور (الفرن) وهذه أيضاً خطوة تحتاج إلى خبرة ومران.

وقد اشتهرت نساء معينات، في كل بلد من بلدان نجد، وكان اتقانهن للخبز سبباً في الاقبال على الزواج منهن. ولا غرو - يا بني - فالخبز كان من الأمور المتميزة في طعام الأغنياء. وفي نجد لم يكن الخبز يباع في الأسواق، لأن هذا عمل معيب. وَخَبَزُ الخبز في البيت دليل الغنى، لأن الخبز تتبعه الزبدة، والزبدة تعني وجود بقرة في البيت، ووجود بقرة بالبيت يعني وجود مكان لها: فناءً وصفةً، ويعني هذا أن البيت كبير، ويعني أيضاً مقدرة مقتنيها على إطعامها، وهي غير مقتصدة في



طعامها، ولا قنوع بالشيء اليسير، وهذا كله يعني
أن البيت بيت غني. ولعلك تذكر - يا بني - ما
ذكرناه سابقاً في هذا المجال وهو مكمل لما في
هذا^(١).

لهذا كله تجد أن «الرّفالة» أو النقص في الكفاءة،
أمر منتقد أشد الانتقاد في هذا المجال، واستحق أن
يؤخذ من طينته مثل صادق، وصورة معبرة مثل هذا
المثل. وهو معزز للمثل الذي سبقه.

(١) «أي بني»، ١/ ١٦٧.



[٦٥]

وإليك مثل آخر :

« ما عقب العود قعود^(١) »

في هذا المثل صورة من صور البيئة، تبلور عن عادة معروفة في بعض المجتمعات السعودية. وعود البخور من الأمور التي تكمل الضيافة، فيها يستقبل الضيوف، وبها يودعون، وبين الاستقبال والتوديع تسبح في جو المكان سحب الدخان، العابق برائحة زكية تملأ المكان. فتزيل ما قد يكون في المكان من أثر رائحة رطوبة، أو هواء راكد، بسبب طول قفل المكان، أو خلوه من المستعملين له.

والعود، لأهميته، تختار له وسائل الحرق التي تتناسب مع قيمته المادية المرتفعة، والمعنوية المعتبرة. فالمباخر أنواع مختلفة، وألوان متعددة. تختار لها مواد المعادن اللامعة، أو المزخرفة، فتساهم بمنظرها في

(١) انظر الجهميان: ٨٨/٧ حيث ورد «ما بعد العود قعود»،

وانظر المثل السابق رقم (٣٦).



رفع مستوى الضيافة، وتناسب مع مقام الضيوف،
أو المناسبة التي استعمل البخور لها.

ولأن البخور يأتي في آخر وقت الضيافة اعتبر
كأنه إيدان للضيوف بالانصراف، فبعد أن يدار على
الجالسين قد يقول أحدهم بصفة مداعبة: «ما بعد
العود قعود»، أو ينهضون دون أن يقولوا ذلك.

وسبق لك - يا بني - أن قرأت كيف اتخذ كل
حاكم من الحكام المعتبرين شيئاً يدل به على أنه آن
الأوان للزائرين أن ينصرفوا، وعرفت ما تهدي إليه
السنة في هذا^(١).

أما في حفلات الزواج، ومآدب العرس، فلا
تعدم من ينادي في آخر الوقت قائلاً:

«بارك الله بمن زار وخفف»

وفي الغالب لا يكون القائل صاحب الدعوة،
وإنما أحد الذين على الأطراف في الدعوة.

(١) راجع: «محاضرات إدياء»: ٨٣.



والعود - يا بني - واحرقه ، لإِضفاء البهجة على الجالسين ، لا يزال عادة متبعة ، وهو في بعض المجتمعات يأتي على نطاق أضيق ، ويقتصر على أعواد النّد الرفيعة ، تغرز في مكان عال في الغرفة . وتأخذ وقتاً طويلاً وهي تحترق ببطء ، وبدخان قليل ، وبرائحة زكية .

وعود البخور أنواع : بعضه يباع بثمر عال فلا يقدر على شرائه إلا الموسرون . وبعضه يباع بثمر متوسط ، ومنه ما يباع بثمر بخس . ولا يخلو العود من وجود من يدخل عليه الغش بطرق ذكية ، ولكنها لا تخفى على العارفين . فبعض الذين يغشونه يستقون به بعض المواد التي تجعله لامعاً ، دليل صلابته ، وبعضهم يدهنه بأصباغ تقربه من الأنواع المطلوبة ، وبعضهم يدهنه ببعض العطور .

ولعله من المناسب هنا - يا بني - أن تذكر أن البخور يكثر احرقه في رمضان ، خاصة وقت التراويح والقيام أو التهجد . يتقرب الناس به إلى الله في جعل رائحة المسجد جميلة . وهو عمل مقدر

لأنّ المصلين في رمضان يكثرون ، ويطول بقاؤهم في المساجد ، مما يجعل الأنفاس تكثر ، فهذا يساعد على إزالة أي روائح قد تؤثر على راحة المصلين . ويغالي بعض الناس في كثرة ما يحرق ، حتى أنه أحياناً يخشى الضرر على رئات الناس . ولا تستغرب من هذا - يا بني - فهناك قصة تروى تؤكد هذا . يقال أن أحد الملازمين للمسجد ، تأثر صدره بما أوجب عرضه على أحد الأطباء في أحد المستشفيات ، وكان هذا الطبيب غير سعودي ، ولا يعرف هذا المريض ، ولا مقامه الديني ، فلما كشف عما بصدره ، التفت إليه ، وقال له : «بعد اليوم عليك أن توقف التدخين» ، فضحك المريض ومن حوله ، لأنه أبعد الناس عن التدخين ، أو إقراره . وتبين بعد المفاهمة أن الصدر تأثر من دخان عود البخور . ويبدو أن الصدر لا يفرق بين نوعين من الدخان إذا زادا عن الحد .

وطبعاً - يا بني - البخور هو من بقايا عادات الماضي الجميلة ، والمجتمع لا يزال محتفظاً بها ،



ولكنها أحياناً تنبّه الناس إلى اعتراض العصر الحديث عليها، والاعتراض أحياناً يأتي بطريقة صارخة مزعجة: في أحد الاحتفالات الكبرى - يا بني - بافتتاح إحدى المؤسسات المهمة، والتي تعتبر مفخرة من مفاخر انجازات الدولة في بلادنا، تقدم ضيف الشرف عند المدخل مجموعة من الموكلين بالمباخر، فلما دخلوا، وتوغلوا قليلاً في ردهة المبنى، لجت أجراس الانذارات معلنة وجود حريق وكان صوتها مفرعاً^(١).

(١) راجع المثل السابق : (٣٦) «ما يعاف العود إلا المقرود».

ومثل آخر :

مادمنا قد لمسنا أمر الزواج في المثل السابق، فهناك مثل يتصل أيضاً بالزواج، ويعطي - يا بني - صورة مما كان يتم فيه من بعض المظاهر التي لم تعد عامة، وقد توجد في بعض المجتمعات، التي لم تتأثر بها تأثرت به المدن الآن .

يقول المثل :

« تله بأم شوشة إلى أن تجيك المنقوشة ^(١) »

هناك امرأة اسمها البيّاعة أو الربعية، وهي هنا «أم شوشة» وهي التي تهيء العروس لزوجها، وهي الصلة بين الزوج والزوجة ليلة العرس، وبين الزوج والأهل في أول الأمر. وكلمة «بيّاعة» في بعض المناطق تعطي صورة عن العمل الذي تقوم به، فكأنها، وهي تزف العروس إلى عريسها، تبيعها عليه. فهي تمشي معه حتى تدخله الغرفة التي فيها

(١) الجهيمان : ٢٨١ / ٨ .



العروس . والأحرى أن تعتبر زافة العريس إلى عروسه ، وتبقى غير بعيد طوال الليل ، «تحت الطلب» ، وعندما تذهب العروس مؤقتاً في الصباح المبكر ، وتجلس مع أهلها بعض الوقت ، تجلس البياعة (الربعية) هذه تسلي العريس ، وتؤنسه ، وتسقيه القهوة ، وقد تقدّم له الفطور إلى أن تعود العروس . ودورها تفصيله يختلف من منطقة لأخرى ، إلا أنه في العموم لا يخرج عما ذكرنا .

أما «أم شوشة» وهي الربعية (البياعة) ، فغالباً هي امرأة كبيرة السن ، ومن غير المتوقع أن يكون شعرها مهنماً ، وإن كان لا يرى ، ولهذا سميت : «أم شوشة» ، ولعل للسجع - يا بني - دخل في تحميل المعنى ما لا يطيق . أما «المنقوشة» فهي العروس ، والنقش حقيقي ، لأن العروس تحلّي يديها ورجليها بأنواع النقوش ، بوسيلة الحنا ، وتتفنن المحنية في الأشكال والتعرجات والتزويقات . فهي بحق تصبح بعد هذا منقوشة . أما أن الزوج يتلهى بأم شوشة فصحيح ، لأنها تسليه بأحاديثها ، وبعضهن وهبن المقدرة على تسلية الجليس .

والمثل مفيد فهو يقال عند طلب الاكتفاء مؤقتاً بأمر حتى ينجز أو يحضر الشيء الرئيسي المنتظر. فأنت إذا دعوت ضيفاً، وقدمت له شيئاً بسيطاً خفيفاً حتى يتهيأ الأكل ويعد ويمد، تقول له: لتلهى بأم شوشة إلى أن تجي المنقوشة، وكل أمر على هذا المقياس يصلح له هذا المثل.

والمثل مقبول عند الناس، لأنه يذكر بليلة لا تنسى عند الرجال وعند النساء، فهي ليلة العمر كما يقول بعض الناس، وهي ليلة بهجة وسرور لكل المشاركين، ولهذا فالمثل قد يعيد ذكريات بعيدة، ويقرب حوادث طال عليها النسيان من الكبار، إلا ما قرب من زواج أبنائهم وأحفادهم.

على كل المثل قصير وصغير، ولكنه يكشف عن صورة كبيرة، ورسم واسع، ويكشف عن خفايا إحدى العادات القديمة في مجتمعنا وما كانت تسير عليه. ويمكن مقارنة زواج اليوم بالأمس عندما ترى كثيراً ممن يتزوجون يذهبون من صالة الحفل إلى الطائرة، ليتمتعوا بها أصبح معروفاً بأنه شهر العسل.



[٦٧]

وإلى مثل آخر :

ودعنا الآن - يا بني - نأتي لمرحلة تعتبر في أول وقتنا الحاضر - بعد أن بدأت الوسائل الحديثة تدخل مجتمعنا، ولم يكن هناك بد من أن يكون للأمثال نصيب منها - صورة اجتماعية تؤثر على حياة الناس . وسنضرب مثلاً واحداً على الأقل أو اثنين نبين كيف استفاد قائل المثل من الداخل الجديد إلى مجتمعه، وهو الموتر أو السيارة .

« الموتر قرنبع والسواق عليمي ^(١) »

مثل يضرب لتردي الأمر من جميع جوانبه، فالموتر هو السيارة في تعبير بعض الناس في بلادنا، وقرنبع يعني قديماً وبالياً ومتدهوراً، والسواق لا يزال في أول عهده بتعلم القيادة، فاجتمع النقص في الوسيلة، وفي العامل الفعال لها . وقد لبس المثل روح قائلي الأمثال، فأحسن قائله الصياغة، وجاء

(١) الجهميان : ٢٦٣/٨ .

بما سيجد فيه المجتمع تعبيراً يمثل مظهراً من مظاهر حياتهم اليومية . وهذا سوف يحل محل الجمل ، وراكب الجمل في المستقبل .

فهو يعبر عن عدم الثقة في الأمر ، ويشير إلى عدم كفاءته ، وما يحسن من اتخاذ الحذر في الاعتماد عليه . فجانب من المثل جاء نقصه في أن السيارة مستهلكة ، ومعروف سرعة خذلان المستهلك ، وجاء أيضاً من أن السائق ليس في المستوى الذي يطمأن إلى مهارته . ترى - والناس حديثوا عهد بالجمال في تلك الأيام - هل يأتي في ذهن السامع الحنين إلى الجمل ومدى الاعتماد عليه ؟

وسنورد هنا مثلاً آخر حديثاً ، يمكنك معه معرفة مجرى المثل ، وأنه مستقى من مواد البيئة الحديثة ، وهو أيضاً عن السائق ، يقول المثل :

« السَّوَّاقُ رَجُلٌ فِي الْقَبْرِ ، وَرَجُلٌ فِي الْحَبْسِ »^(١)

وهو مثل يَرى خطورة هذه المهنة ، فالسائق مع

(١) دياب : ٥٤ .



السرعة معرّض للموت صدماً، أو انقلاباً.
ومعرّض للسجن والدية إذا دهس شخصاً. ولعل
هذا المثل قيل قبل أربعين عاماً، عندما كانت
الشوارع ضيقة، والناس كثيرين، وهي بهم
مزدحمة.



[٦٨]

أَيُّ بُنَيَّ !

قد توضع الجملة، لسبب من الأسباب، بين قوسين حاصرين، فتفرد بذلك عما قبلها وما بعدها، أو تبرز، وإذا كان هذا متبعاً - يا بني - في الجمل، فنحن سوف نستعيـره لحديثنا، وما قد دوناه منه، فنجعله بين قوسين لأنه إذا صح استعارة الكلمات للمعنى في المجاز، فالقياس عليه مقبول. والقوسان هذان واردان في كثير من الأمور، تجدهما في الحقول الزراعية، لبيـنا الفاصل بين ملكين، وتراهـما في الجسور، ليريا البدء والانتهاء، وربما ليضيفا قوّة للتحمـل. وتراهـما في المباني لهذا السبب نفسه، وفي واجهاتها أحياناً لمتطلبات الجمال والحسن، وأحياناً لأن العرف يقتضيها، والذوق السائد في المجتمع يتطلبها.

وعلى هذا - يا بني - فهذا منهج مرتضى، وعمل مقبول، كما رأيت من بعض أمور الحياة. ولن نشذ نحن، بل سوف نقتدي، فنضع حديثنا عن



الأمثال ، وما جاء في ثنياه ، بين قوسين حاصرين .
وأرجو أنك لا تزال تذكر أن أول مَثَل وضعناه ،
وتحدثنا عنه ، وجرّنا إلى ما جرّنا إليه ، من انتقال من
مَثَل إلى مَثَل هو المَثَل القائل :

« مَحَشٍ مَجْرَدَةٌ »

وهذا جرّنا إلى مثل آخر ، يرمي إلى الهدف
نفسه ، وتذكر أن بعض ما جذبنا إلى هذا المثل هو
حب الناس استيفاء وظيفة كلّ مادة ، وحرصهم على
استنفاد كل ما يمكن أن تأتي به ، أو تجود به . ولم
يكن هذا في الأدوات الخاصة بالجماد ، بل كانوا
يطبقون المبدأ على أنفسهم ، فيستعيرون من هذه
المواد ما يشرحون به حرصهم على الوقت والجهد
والطاقة في أنفسهم . وجئنا على أثر ذلك بالمثل
القائل :

« مَا حَشَّ الْمَحَشَّ وَجَابَتِ الْمَجْرَدَةُ »

ثم أتبعناهما بثالث لنكمّل قواعد التعادل :

« حَقَّ قِرْقُوشٍ مِنْظِرُهُ »



وفيه من تأكيد عدم إضاعة الاستفادة من أي جانب يمكن الاستفادة منه . وفي أداة واحدة جمع القائل ثلاث وظائف ، كل منها لها من الأهمية ما يعطيها حق أداة واحدة تستقل بها .

والآن نأتي بمثل يغلق قوس الحاصرة الذي فتحناه ، وأرجو أن يكون ما بين الحاصرتين أو القوسين صيداً ثميناً لك ، تستفيد مما جاء به علماً وعظة ، ويعطيك صورة مما كان عليه مجتمع آبائك ، فتقتدي بما يستحق أن يُقتدى به ، وتبتعد عما لم يكن فيه قدوة حسنة ، وتحمد الله على أن أعطاك وسيلة الابتعاد عن القبيح ، والارادة القوية لذلك . وتحمد الله على ما وجدته مهياً في زمنك من وسائل حديثة ، أغنتك وأغنت أبناء جيلك عن الركض لاهثين خلف الرزق ، مع قلة المردود ، ومواجهة الصعوبات والعراقيل .

والمثل القائل للقوس هو :

« يَدِ تِسْفٍ وَيَدِ تِلْفٍ وَيَدِ تَعْلَفٍ الرَّحُولُ »



وهذا المثل يعطي صورة بديعة إذا عرفت
مراميه ، وما يؤدي الناس فيه من غرض . وهو أمر
استوجبته حياتهم ، ووسيلة معيشتهم . فالرحول ،
وهي الناقة ، هي وسيلة النقل المعتادة ، وهي مَبْجَلَةٌ
ومقدّرة ، من اقتناها فخر على من لم يكن له حظ في
اقتنائها ، أو كان أقصى قدرته حمار يكدّ ظهره .
وصاحب البعير يحمل على ناقته الحمل ، ويسافر
عليها ، ويحج عليها ، ويبادل بها ، ويتاجر بها ،
وينجبها ، ويحلبها ، ويذبحها فيستفيد من لحمها .
فهي بهذا رأس مال يعتمد عليه في أن يسند عليها
ظهره ، فتشدد منه أمام صعوبات الزمن .

لهذا كان اعتناء الرجل بناقته حفيا ، يعالجها إن
مرضت ، ويطلقها بالزفت إن جربت ، ويسقيها إن
عطشت ، ويعلفها إن جاعت . يخشى على ظهرها
عضة الشّداد ، وضغط البطان واللّبب . يوسع لها في
المكان ما وسعه ذلك ، ويبسط لها في المراح ما قدر
على ذلك . إن ساعدته الأيام ، وساعفته نقوده ،
«دندشها» ، وزينها وزوقها وجملها ، وجلاها كأنها
عروس تزف لعريس .

والمثل يحكي إحدى دقائق عنايته بها، وحده عليها. تصور - يا بني - أعرابياً، أو حضرياً فلاحاً، أو غيرهما، جالساً على الأرض، أمام ناقلته البارقة، وخلفه، عند تناول يده، عنصران من عناصر غذاء الابل برسيم وعرفج، كوم كل واحد منهما على حده، يأخذ من العرفج خصلة، ويغلفها بشيء من البرسيم، ثم يلقمها ذلك، ويتنظر حتى تبتلعها، ثم يلحق الأولى بالثانية، ثم الثالثة ورابعة. وهكذا حتى تنتهي من الأكل، وتكتفي من الغذاء، وهو صابر على أناتها في مضغها، وبطئها في تناول غذائها. ينظر إلى هدوئها، واللقمة في فمها «تعلوُّجها» يتلذذ بها يراه من تلذذها. ويجد في هذا فرصة له في التفكير في أمور الحياة، والتبصر فيها، على أنغام مضغ الأضراس، ورؤية «شقوق» ناقلته، وخدودها، تنتفخ تارة، ممتلئة، وتضمّر تارة أخرى، مفرغة. وقد ابتلعت ما هرست أضراسها. ثم يذهب بعد ذلك ويتركها تجتر ما أكلت. وهذا أمر تأخذ فيه وقتاً طويلاً، إذا ما تركت وشأنها فيه.



هذه الجلسة أمام الناقة ، وهذا العمل الذي أداه لها صاحبها ، يوجد صلة قوية بينه وبينها ؛ يشعر هو أنه أدى تجاهها ما يقوم ببعض ما تعطيه ، وما تقوم به هي نحوه من عمل فيه من العناء والتعب ما فيه . وتشعر هي بأن هناك من يعرف المعروف ، ويقر بالفضل ، ويحفظ الجميل ، وأن راعيها مخلوق شكور . ويصبح بين الاثنين ألفة وود ، حتى إن أحدهما ليناغي الثاني بلغة تصبح معروفة بين الاثنين : هذا بحدائه وندائه وغنائه ، وهي برغائها وحنينها ، والتفاتها ذي المعنى المعبر المفهوم له . ينام أحياناً وقد توسد ذراعها ، ويرتاح وقد استظل عن وهج الشمس بظل جسمها الفاره ، ويتدفأ شتاءً بوبرها ينسجه فراشاً وغطاءً ، وبحليبها غذاءً كاملاً .

مخلوق - يا بني - مع مخلوق ، بينهما لمسة حنان ، وإضاءة حب تصل بين قلبين من خميرتين مختلفتين . أما إذا انتقلنا بنظرتنا إلى زمنك الحديث ، ووسائل مواصلاته المصنوعة من حديد فالأمر مختلف . تجد

هناك منفعة بحته لا قلب لها، فالسيارة حديد قلبها لا يبعث حناناً، ولا يستقبل حناناً، ومع هذا فالسيارة تحتاج إلى غذاء، وزيتها ووقودها غذاء، وتحتاج إلى تمرىض وتطبيب، وصيانتها وما يوضع فيها من «قطع غيار» هو دواؤها وجراحها. أما القلوب فلا تلتقي، والارواح لا تتناغى بينها وبين صاحبها، ولكن هناك ذهن يشحذ عنده، وعقل يعمل لديه، وتكنولوجيا تتطور فيها. ولا يبقى من العوامل المشتركة إلا عامل واحد، هو عامل: خذ واعط. وهذا قائم في حياة البعير والسيارة.

هذا ما يخص نهاية المثل، أو آخره، ولكن المثل لم يقتصر على هذه الصورة المعبرة، ولم تكن هي وحدها هدفه، أو الغرض من سبكه وتأليفه، ولكن الهدف الأساسي أمر أهم: أمر يكون مبدأً أساسياً في مجتمعهم، وهو الحرص على الوقت، وعدم إضاعة أي جزء منه دون استفادة كاملة، وعدم اهدار الجهد فيما لا ينفع. فهذا الجالس أمام الناقة يعلفها لم يجلس واضعاً يده على خده في انتظار أن



تنهي مضغها للعلف ، وبلعها له ، وإنما شغل نفسه بعمل لازم ومهم ، وهو «سَفّ» الحصر أي نسجه ، و«لَفّ» الحبال . والحصر والحبال أدوات مهمة جداً له . وعلى هذا فهو في جلسته هذه يقوم بما لا يقل عن ثلاثة أعمال رئيسية ، وينهي بهذا واجبات لا يني ولا يتأوه ولا يشكو ولا يضيق من القيام بها ، بل لعله سعيد أن يكون حائزاً للمواد والأموال اللازمة لهذا العمل ؛ فالناقة ثروة ، وتوفر العلف لها نعمة من الله سابغة ، ووجود الخوص لعمل الحصر ، والليف لعمل الحبال منّة منه كبرى ، ومقدرته ، في ضوء صحته وعافيته وارادته فضل من الله عظيم .

نجعل هذا مسك الختام ، ولا أجمل من أن يختم الشيء بالاقرار لله بالفضل ، وشكره على نعمه التي لا تحصى ، تغمر الانسان وهي تحيط به ، يسهو عنها وينساها إلى أن يفقد واحدة منها ، فيسهر الليل ، ويقطع النهار يتأسف عليها ، ويندبها ، ويتمنى عودتها . وأحد هذه النعم العافية في البدن ، لو أصيب المرء بصداق مفاجيء تنبه إلى ما فقد من



نعمة الصحة والعافية، ولو التهبت أذنه، وأصيب
بصمم مؤقت لعرف طعم العافية والصحة. ولو
التهبت عينه، وحجب عن القراءة والكتابة،
لاستيقظ للنعمة التي كان فيها، وافتقدها واتجه إلى
الله ضارعاً مخلصاً بأن يرفع عنه هذا المرض النازل.
فالحمد لله - يا بني - على نعمه، والشكر على فضله
ومنته.



[١]

فهرس الموضوعات حسب ورودها

الصفحة	رقم المثل
أ - مقدمة	
١ - تمهيد	
٦ - الأمثال صور من الحياة	
١٠ - محشّ مجردة	(١)
١٢ - فلان حق قرقوش منظره	
١٣ - ما حشّ المحشّ وجابت المجردة	
١٥ - إحصد هوا غمّر ماش	(٢)
٢٠ - بشر النّخل بفلاح جديد	(٣)
٢٣ - مثل النّخلة العوجا بطاطها في غير حوضها	(٤)
٢٧ - تجرّ رشاك، وتدهن عشاك	(٥)
٢٨ - بقرة آل فلان لم تجد وقتاً لتلد	
٣٣ - صكّته الجيلان	(٦)
٣٧ - دخل الذّره	(٧)
٣٨ - الذلّه به طولة عمر	
٣٩ - راحت السّكرة وجت الفكره	
٤٠ - الغضب ريح تهبّ على سراج العقل فتطفئه	

- ٤٠- إذا قطعت راس بالجهل وش لون تركبه
 ٤٠- لقد وقعت الفاس بالراس
 ٤١- تعيد عقارب السّاعة
 ٤٥- دلو ماء ودلو طين (٨)
 ٤٩- الذّيب بالقلب (٩)
 ٥٥- عشان الورد ينسقي العليق (١٠)
 ٥٨- لأجل عين تكرم مدينة
 ٦٢- طارت الطيور بأرزاقها (١١)
 ٦٣- الطيور على أشباهها تقع
 ٦٣- فلان مثل الكحالي والآميه
 ٦٤- ما طار طير وأرتفع إلا كما طار وقع
 ٦٥- طير باليد ولا عشرة فوق الشجرة
 ٦٦- شبيه الشيء منجذب إليه
 ٦٧- كل قرين بالمقارن يقتدي
 ٦٨- مبذور على غير نجم (١٢)
 ٧٢- درب الكلب على الجزّار
 ٧٤- يبحث عن حتفه بظلفه
 ٧٥- مِتمرة مع القمع (١٣)
 ٧٦- مثل البنبره ما تحمل إلا مندّره
 ٨٠- ناصر يقهويه وأنا يزندن المسوقة (١٤)



- ٨٧- ما الشرهه على اللّٰي يبعل بالسّطوح الشرهه
على اللّٰي يدينه (١٥)
- ٩٨/ ١٠٠ - ما عنده إلا مفاتيح صفّة التّبن (١٦)
- ١٠١- ما معه إلا مفاتيح الحثا
١٠٢- ماء تحت تبّن
١٠٢- مثل التبنه على الجحام
١٠٣- دواء جمعة
١١٠- ما فاتك من الزرع إلا سبله (١٧)
- ١١٧- ما العمر بقتّه يحصد ويبرض (١٨)
- ١٢٠- الواحد ما يموت إلا مرّة
١٢٠- ما العمر بعزقه
١٢٣- ماء خرشد يعلو (١٩)
- ١٢٦- عنزه ولو طارت (٢٠)
- ١٢٨- من بغى لبن فيربط عنز
١٢٨- من غاب عن عنزه جابت تيس
١٣٢- من بغى حريو فييطخ (٢١)
- ١٣٣- ما حكّ جلدك مثل ظفرك، فتولّ أنت
جميع أمرك
١٣٦- من جاور الحدّاد يصبر على ناره (٢٢)
- ١٣٧- من قرّب حول النار طاله شرارها

- ١٣٨- من رَحَبَ غَدَى (٢٣)
- ١٤٣- إذا طلعت الجبل فتهقا (٢٤)
- ١٤٤- قَدَّرَ لِرَجْلِكَ قَبْلَ الْخَطْوِ مَوْقِعَهَا
- ١٤٧- من خَلَّى رُبْعَهُ فَهُوَ مِنْ خَبْثِ طَبْعِهِ (٢٥)
- ١٤٩- الظَّفَرُ مَا يَطْلُعُ مِنَ اللَّحْمِ
- ١٤٩- أنا وأخي على ابن عمِّي وأنا وابن عمي على
الغريب
- ١٥٢/١٥٣- من رافق المصلِّين صلَّى، ومن رافق
الضَّالِّين ضلَّ (٢٦)
- ١٥٥- إِبْعِدْ عَنِ الشَّرِّ وَغْنِيَّ لَهُ
- ١٥٦- إِخْتَرِ الرَّفِيقَ قَبْلَ الطَّرِيقِ
- ١٥٧- كَأَنَّكَ تَعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ
- ١٥٨/١٥٩- لو حسبنا العصافير ما زرعنا الدخن (٢٧)
- ١٦٠- لو حسبنا ما سافرنا
- ١٦٣- أَدْعِي عَلَى وَلَدِي، وَأَكْرَهُ مَنْ يَقُولُ: آمِينَ (٢٩)
- ١٦٩- قَلْبِي عَلَى وَلَدِي أَنْفَطَرَ، وَقَلْبُ وَلَدِي عَلَيَّ
حجر
- ١٧٠- عَيْنُ الْوَالِدِ بِالْوَلَدِ، وَعَيْنُ الْوَلَدِ بِالْسِنْدِ
- ١٧١- مَنْ رَدَّ مَا كَانَتْهُ شَرْد (٣٠)
- ١٧٣- مَا أَبْطَأَ مِنْ وَصَلِ



- ١٧٤- أفضل أن تتأخر عن أن لا تأتي
- ١٧٥- عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة
- ١٨٠- من طأوع المشراق والفيّ ما ساد (٣١)
- ١٨٦- من طوّل الغيبات جاب الغنائم (٣٢)
- ١٩١- من قال: أبوي فلان، قل له: من أنت؟ (٣٣)
- ١٩٤- ما عندنا لهم إلا المصيّب والمحّبب (٣٤)
- ١٩٧- ما يوجس النار إلا واطيها (٣٥)
- ١٩٩- ليس من يذوق الضرب مثل من يعدّه
- ٢٠٠- ما يعاف العود إلا المقرود (٣٦)
- ٢٠١- ما بعد العود قعود
- ٢٠٢- إذا عانقك الخير فعانقه
- ٢٠٤- مثل القعس في الدبس (٣٧)
- ٢٠٥- مثل عضّة القعس ما توجع
- ٢٠٧- دخل الدخيل وسلم
- ٢١٠- إذا تعاندو الحمارّة يا بخت الركاب (٣٨)
- ٢١٢- إذا تخاصم الضيفان فبخت المضيف
- ٢١٥- قالوا: ليش لحمتك مشغّته، قال: الجزّار
- معرفة (٣٩)
- ٢١٧- طواف ويتنوق
- ٢٢٠- في الوجه مرايه، وفي القفا سنلايه (٤٠)



- ٢٢٥- قالوا: يا جحا زوجة أبوك تحبك، قال: ليه
(٤١) (هي) اتجننت ؟
- ٢٢٧- عطاء مرت أبو
٢٢٧- عطف مرت أبو
٢٣٣- إقرأ ياسين وبيدك حجر (٤٢)
٢٣٩- أحطّ خدي علي إيدي، وأقول هذا قضاء
..... سيدي
- ٢٤١- الشقّ أوسع من الرقعة (٤٣)
٢٤١- اتسع الخرق على الراقع
٢٤٣- بالفخ أكبر من العصفور
٢٤٥- صلّ المهبول على المهبول (٤٤)
٢٤٩- مثل رضاخ العبس يوم ما بقى إلا وحده
..... هوّن
- (٤٥)
٢٥٣- مثل السيل عماه دماره (٤٦)
٢٥٦- مثل السيل يحفر ويدفن (٤٧)
٢٥٨- يشق ويخيط
٢٥٨- يقطع وياصل
٢٥٩- مثل السيل ينفع في النهار وفي الليل (٤٨)
٢٦٢- مثل السيل يتبع المطامن (٤٩)
٢٦٢- المويه تجري في الواطي



- ٢٦٥- لا ترد سيل منحي (٥٠)
- ٢٦٩- فلان يرد السيل بعباته
- ٢٧٠- ما يعرف الساندات من الحادرات (٥١)
- ٢٧٤- فلان لا يعرف كوعه من بوعه
- ٢٧٤- لا يعرف كوعه من كرسوعه
- ٢٧٥- ما يعرف قطاته من لطاته
- ٢٧٥- لا يعرف الحو من اللو
- ٢٧٦- لا يعرف قبيله من ديره
- ٢٧٧- ما يشيل الزباد بنصفه (٥٢)
- ٢٨٠- ما يدفن أبوه إلا بعرقه
- ٢٨١- ما يدفن أبوه إلا بأجره (٥٣)
- ٢٨٥ / ٢٩٠- مضمون الخط بملحاقه (٥٤)
- ٢٩٢- يخطط في ماء ويقبض في حجر (٥٥)
- ٢٩٤- من داري عنك يا اللي في الظلام تغمز
- ٢٩٤- لا حياة لمن تنادي
- ٢٩٥- كأنه يضرب في حديد بارد
- ٢٩٦- دجاجة تكاكي عندنا وتبيض برا (٥٦)
- ٣٠٦- الديك الفصيح من البيضة يصيح
- ٣٠٧- قالوا للديك: صيح، قال: كل شي في وقته
- مليح

- ٣٠٨- إحتارت المقيّنة في الوجه الغليس (٥٧)
- ٣٠٩- هل يصلح العطار ما أفسد الدهر
- ٣١١- ما ينفع الدعلاك في الوجه الوسخ
- ٣١١- لبس الخشبه تسير عجه
- ٣١٢- لبس البوصه تصبح عروسه
- ٣١٢- المليح مليح ولو قام من النوم، والقبيح قبيح ولو غسل وجهه كل يوم
- ٣١٣- دَلَع الكبار زي الشقدف على الحمار
- ٣١٤- الكبير لما يدلّع زي الخشب لما يتخلّع
- ٣١٧- برد وحِكة وقل ظفور (٥٨)
- ٣١٩- حرّ وبقّ وقبلان معرس
- ٣٢٢- الجمل ما يشوف سنامه (٥٩)
- ٣٢٢- الشبكه تعير (تعايب على) المنخل
- ٣٢٣- اللي بيته من قزاز ما يرمي الناس بالحجر
- ٣٢٥- حج وبيع سبح (٦٠)
- ٣٢٥- حاج وبيّاع سبح
- ٣٢٥- حجّ بقضيان حاجه
- ٣٢٧- على طريقك شل خشبه
- ٣٣٠- السما صرّقوها قال: فين ودّوها (٦١)
- ٣٣١- شفت البغل في الابريق قال له: شفت أنا ودانه



- ٣٣٦- تَبَحْثُ عَنْ حَتْفِهَا بِظَلْفِهَا (٦٢)
- ٣٣٩- زَيْي النَامُوسِ يَزَنُّ عَلَى قَتْلِهِ
٣٤١- دَبَّورُ يَزَنُ عَلَى خَرَابِهِ
٣٤٢- خَيَّالُ الْخَيْلِ ، قَالَ : حَاضِرٌ بِحَاضِرِ (٦٣)
- ٣٤٢- الْمَاءُ يَكْذِبُ الْغَطَّاسَ
٣٤٣- الْجَبَانُ فِي الْحَرْبِ بَيَانُ
٣٤٠ / ٣٥٠- مَا لَبَّيْتُ فَارِقَهُ (٦٤)
- ٣٥٢- خَبْرُكَ يَا الرِّفْلَا كَوَلِيهِ
٣٥٥- مَا عَقِبَ الْعُودَ قَعُودُ (٦٥)
- ٣٥٦- بَارَكَ اللَّهُ بِمَنْ زَارَ وَخَفَّفَ
٣٦٠- تَلَّهَ بِأَمِّ شَوْشِهِ إِلَى أَنْ تَجِيكَ الْمُنْقُوشَةُ (٦٦)
- ٣٦٣- الْمُوتَرُ قَرْنَبَعٌ ، وَالسَّوَّاقُ عَلِيمِي (٦٧)
- ٣٦٤- السَّوَّاقُ رَجُلٌ فِي الْقَبْرِ ، وَرَجُلٌ فِي الْحَبْسِ
٣٦٧- مَحْشٌ مَجْرَدُهُ
٣٦٧- مَا حَشَّ الْمَحْشَّ
٣٦٧- حَقٌّ ، قَرَقُوشٌ ، مَنْظَرُهُ
٣٦٦ / ٣٦٨- يَدٌ تَسِفُّ ، وَيَدٌ تَلِفُّ ، وَيَدٌ تَعْلَفُ
(٦٨) الرَّحُولُ

فهرس الموضوعات حسب حروف الهجاء

الصفحة

أ.

١٥٥	إبعد عن الشر وغني له
٢٤١	إتسع الخرق على الراقع
٣٠٨	إحتارت المقيّنه في الوجه الغلس
١٥	إحصد هوا غمرّ ماش
٢٣٩	أحط خدّى على إيدي ، وأقول هذا قضاء سيدي
١٥٦	إختر الرفيق قبل الطريق
١٦٣	أدعي على ولدي ، واكره من يقول : آمين
٢١٢	إذا تخاصم الضيفان فبخت المضيف
٢١٠	إذا تعاند الحمارة يابخت الرّكّاب
١٤٣	إذا طلعت الجبل فتهقّا
٢٠٢	إذا عانقك الخير فعانقه
٤٠	إذا قطعت رأس بالجهل وش لون تركبه
١٧٤	أفضل أن تتأخر عن أن لا تأتي
٢٣٣	اقرأ ياسين وبيدك حجر
٣٢٣	إلى بيته من قزاز ما يرمي الناس بالحجر
	أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على
١٤٩	الغريب



ب .

٣٥٦	بارك الله بمن زار وخفف
٣١٧	برد وحكه وقل ظفور
٢٠	بشر النخل بفلاح جديد
٢٨	بقرة آل فلان لم تجد وقتاً لتلد
٢٤٣	بالفخ أكبر من العصفور

ت .

٦٣٦	تبحث عن حتفها بظلفها
٢٧	تجر رشاك، وتدهن عشاك
٤١	تعيد عقارب الساعة
٣٦٠	تله بأم شوشه إلى أن تحيك المنقوشه

ج .

٣٤٣	الجبان في الحرب بيان
٣٢٢	الجمال ما يشوف سنامه

ح .

٣٢٥	حاج وبياع سبح
٣٢٥	حج بقضيان حاجه
٣٢٥	حج وبيع سبح
٣١٩	حرّ وبق وقبلان معرس
٣٦٧	حق، قرقوش، منظره

خ.

- ٣٥٢ خبزك يا الرفلا كوليهِ
٣٤٢ خيال الخيل، قال: حاضر بحاضر

د.

- ٣٤١ دبور يزن على خرابه
٢٩٦ دجاجة تكاكي عندنا، وتبيض برا
٢٠٧ دخل الدّخيل وسِلِم
٣٧ دخل الدّرة
٧٢ درب الكلب على الجزّار
٣١٣ دلّع الكبار زي الشقدف على الحمار
٤٥ دلو ماء ودلو طين
١٠٣ دواء جمعه
٣٠٦ الديك الفصيح من البيضة يصيح

ذ.

- ٣٨ الذّلة به طولة عمر
٤٩ الذّيب بالقلب

ر.

- ٣٩ راحت السّكره وجت الفكره

ز.

- ٣٣٩ زيّ الناموس يزنّ على قتله



س .

..... ٣٣٠ السما سرقوها ، قال : فين ودوها

..... ٣٦٤ السّواق رِجْل في القبر ، ورِجْل في الحبس

ش .

..... ٣٢٢ الشّبكه تعير (تعايب على) المنخل

..... ٦٦ شبيه الشيء منجذب إليه

..... ٣٣١ شفت البغل في الأبريق ، قال له : شفت أنا ودانه

..... ٢٤١ الشق أوسع من الرقعه

ص .

..... ٣٣ صكته الجيلان

..... ٢٤٥ صلّ المهبول على المهبول

ط .

..... ٦٢ طارت الطيور بأرزاقها

..... ٢١٧ طَوَّاف ويتنوق

..... ٦٥ طير باليد ولا عشرة فوق الشجرة

..... ٦٣ الطيور على أشباهها تقع

ظ .

..... ١٤٩ الظفر ما يطلع من اللحم

ع .

..... ٥٥ عشان الورد ينسقي العليق

- ١٧٥ عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة
- ٢٢٧ عطاء مرت أبو
- ٢٢٧ عطف مرت أبو
- ٣٢٧ على طريقك شل خشبه
- ١٢٦ عنزة ولو طارت
- ١٧٠ عين الوالد بالولد وعين الولد بالسند
- غ .
- ٤٠ الغضب ريح تهبّ على سراج العقل فتطفئه
- ف .
- ١٢ فلان حقّ، قرقوش، منظره
- ٢٧٥ فلان لا يعرف الحقّ من اللو
- ٢٧٦ فلان لا يعرف قبيله من دبيره
- ٢٧٥ فلان ما يعرف القطاة من اللطاة
- ٢٧٤ فلان ما يعرف كوعه من بوعه
- ٢٧٤ فلان ما يعرف كوعه من كرسوعه
- ٦٣ فلان مثل الكحالي والأمية
- ٢٦٩ فلان يرد السيل بعباته
- ٢٢٠ في الوجه مرايه، وفي القفا سلايه
- ق .
- ٣٠٧ قالوا للديك : صبح ، قال : كل شي في وقته مليح



- قالوا ليش لحمتك مشغته؟ قال : الجزّار معرفه ٢١٥
قالوا : يا جحا زوجة أبوك تحبك . قال : ليه (هي)
اتجننت؟ ٢٢٥
قدّر لرجلك قبل الخطو موقعها ١٤٤
قلبي على ولدي أنفطر ، وقلب ولدي عليّ حجر ١٦٩
ك .
كأنك تعطيه الذي أنت سائله ١٥٧
كأنه يضرب في حديد بارد ٢٩٥
الكبير لما يدلّع زيّ الخشب لما يتخلّع ٣١٤
كل قرين بالمقارن يقتدي ٦٧
ل .
لا ترد سيل منحى ١٦٥
لا حياة لمن تنادي ٢٩٤
لأجل عين تكرم مدينة ٥٨
لبّس البوصه تصبح عروسه ٣١٢
لبّس الخشبة تسير عجة ٣١١
لو حسبنا العصافير ما زرعنا الدخن ١٥٩
لو حسبنا ماسا فرنا ١٦٠
ليس من يذوق الضرب مثل من يعدّه ١٩٩

١٧٣		ما أبطأ من وصل
١٠٢		ماء تحت تبين
٣٤٢		الماء يكذب الغطاس
٢٠١		ما بعد العود قعود
١٢٣		ماء خرشد يعلو
٣٦٧	 ١٣ ،	ما حشّ المحشّ ، وجابت المجردة
١٣٣		ما حكّ جلدك مثل ظفرك
		ما الشرهه على الليّ يبعل بالسطوح ، الشرهه على
٨٧		اللي يدينه
٦٤		ما طار طير وارتفع ، إلا كما طار وقع
٣٥٥		ما عقب العود قعود
١٩٤		ما عندنا لهم إلا المصبّب والمحبّب
١٠٠		ما عنده إلا مفاتيح صفّة التبن
١١٠		ما فاتك من الزرع إلا سبله
٣٥٠		ما لبنت فارقه
١٢٠		ما العمر بعزّقه
١١٧		ما العمر بقتّه يحصد ويرض
١٠١		ما معه إلا مفاتيح الحثا
٢٨١		ما يدفن أبوه إلا بأجره



- ٢٨٠ ما يدفن أبوه إلا بعرقه
- ٢٧٧ ما يشيل الزباد بنصفه
- ٢٠٠ ما يعاف العود إلا المقرود
- ٢٧٠ ما يعرف الساندات من الحادرات
- ٣١١ ما ينفع الدعلاك في الوجه الوسخ
- ١٩٧ ما يوجس النار إلا واطيها
- ٦٨ مبذور على غير نجم
- ٧٥ متمره مع القمع
- ٣٦٧ ، ١٠ محش ، مجرد
- ٧٦ مثل البنبه ما تحمل إلا مندره
- ١٠٢ مثل التبنه على الجحام
- ٢٤٩ مثل رضاخ العبس يوم ما بقي إلا وحده هون
- ٢٥٣ مثل السيل عماره دماره
- ٢٦٢ مثل السيل يتبع المطامن
- ٢٥٦ مثل السيل يحفر ويدفن
- ٢٥٩ مثل السيل ينفع في النهار وفي الليل
- ٢٠٥ مثل عضه القعس ما توجع
- ٢٠٤ مثل القعس بالدبس
- ٢٣ مثل النخلة العوجا بطاطها في غير حوضها
- ٢٩٠ مضمون الخط بملحاقه



المليح مليح ولو قام من النوم، والقبيح قبيح ولو	
٣١٢	 غسل وجهه كل يوم
١٣٢	 من بغى جريو يبطن
١٢٨	 من بغى لبن فيربط عنز
١٣٦	 من جاور الحداد يصبر على ناره
١٤٧	 من خلّى ربه فهو من خبت طبعه
٢٩٤	 مِنْ دَارِي عَنْكَ يَا إِلِي فِي الظلام تغمز
١٥٣	 من رافق المصلّين صلّى ، ومن رافق الضالين ضلّ
١٣٨	 من رحّب غدى
١٧١	 من ردّ ما كأنه شرد
١٨٠	 من طاوع المشراق والفيّ ما ساد
١٨٦	 من طول الغيبات جاب الغنائم
١٢٨	 من غاب عن عنزه جابت تيس
١٩١	 من قال : أبوي فلان ، قل له : من أنت ؟
١٣٧	 من قرّب حول النار طاله شرارها
٣٦٣	 الموتر قرنبع ، والسواق عليمى
٢٦٢	 المويه تجري في الواطي

• ن •

٨٠	 ناصر يقهويه ، وأنا يزندنى المسوقه
----	---



هـ.

هل يصلح العطار ما أفسد الدهر ٣٠٩

و.

الواحد ما يموت إلا مرة ١٢٠

وقعت الفاس بالراس ٤٠

ي.

يبحث عن حتفه بظلفه ٧٤

يخطط في ماء ويقبص في حجر ٢٩٢

يد تسفّ، ويد تلفّ، ويد تelf الرحول ٢٦٨

يشقّ ويخيّط ٢٥٨

يقطع ويواصل ٢٥٨

[٣]

فهرس الاعلام

ما بين القوسين () ورد في المتن ، وما أُغفل منه القوسان فهو في الهامش .

.أ.

أبو حية النميري : (٣٤٨)

أبو دلالة : (٣٤٣) ، (٣٤٤) ، (٣٤٥) ، (٣٤٧)

أبو موسى الأشعري : ١٥٤

يحيى إبراهيم الألمعي : ٣٨ ، ٥١ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٤٦ ، ٦٨ ،

٧٢ ، ٧٤ ، ١٠١ ، ١١٤ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ،

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ،

٢١٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٤ ، ٢٩٢ ، ٣٠٤ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ،

٣٣١ ، ٣٤٣

أنس بن مالك : ١٦٠

أنوشروان : ٢٢٣

إياس : (٢٦٨)

.ب.

البخاري : ١٥٤ ، ١٦٠

عبدالله بن عبدالرحمن بن صالح البسام : ٢٦٧



ث.

ثعلب : ٢٧٦

ج.

عبدالكریم الجهمیان : ١٠ ، ٢٣ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ١٠٠ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٧١ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، (٢٢٨) ، (٢٣١) ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٩٠ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣

خ.

خرشد : (١٢٣) ، (٢٦٩)

د.

محمد صادق دیاب : ٢٥ ، ١٣٦ ، ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٤١ ، ٣٦٤

ر.

الراغب الأصبهانی : ٢٢١
روح بن حاتم المهلبی : (٣٤٤) ، (٣٤٧)

ز.

زینب : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١

سـ.

أحمد السباعي : ٢٤ ، ٣٩ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٢٦ ،
١٣٦ ، ١٤٩ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٩٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٦٢ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٢ ،
٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٩ .

شـ.

شريح : (٢٦٨)
الشعبي : (٢٣٤)
السنطي : (٢٢٢)

صـ.

عبدالمحسن بن ناصر الصّالح : (٢٠٤)

طـ.

طاهر بن الحسين : ٢٢٤

عـ.

عبدالسلام العجيلي : (١٠٤)
محمد بن ناصر العبودي : ١٥ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٣٣ ، ٣٧ ،
٤٥ ، ٤٩ ، ٦٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٣١٧ ،
عبدالله بن عمر : ٢٤٦
عمرو بن عيد : ٢٢٢

غـ.

الغزالي : ٣٠٥



فـ.

الفرزدق : ١٢٤

قـ.

قابيل : (٢٨١)

آل قاضي : (٢٦٨)

صالح العثمان القاضي : (٢٦٧)

محمد بن عثمان بن صالح بن عثمان القاضي : ٢٦٧ ،

٢٦٨ ، ٢٦٩

ابن قتيبة : (٣٤٨)

علي محي الدين القره داغي : ٣٠٥

عمر بن قيس : (٢٣٢)

مـ.

المتنبي : (٢٢٢)

عبد الملك بن مروان : ٢٢٣

مسلم : ١٥٤

المنصور : (٢٤٤)

المهدي : (٣٤٤)

المهلب : (٣٤٧)

هـ.

هاويل : (٢٨١)

[٤]

فهرس المراجع والمصادر

- ١ - أساطير شعبية من قلب جزيرة العرب
عبدالكريم الجهيمان
الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، دار أشبال
العرب، الرياض، المملكة العربية السعودية .
- ٢ - كتاب الأغاني
أبو الفرج الاصفهاني (علي بن الحسين بن محمد
القرشي)
الطبعة السادسة : ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م، دار
الثقافة، بيروت، لبنان .
- ٣ - الأمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب
عبدالكريم الجهيمان
الطبعة الأولى : ١٣٨٣هـ .
- ٤ - الأمثال الشعبية في المنطقة الجنوبية
يحيى إبراهيم الأملعي
الطبعة الأولى .
- ٥ - الأمثال الشعبية في مدن الحجاز
أحمد السباعي ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .



٦ - الأمثال العامية

محمد صادق دياب

الطبعة الأولى : ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٧ - الأمثال العامية في نجد

محمد بن ناصر العبودي

١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

٨ - أخبار الطراف والمتماجنين

أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي

شرح وتقديم : عبدالامير مهنا

الطبعة الأولى : ١٩٩٠م، دار الفكر اللبناني .

٩ - أيها الولد

محمد بن محمد أبو محمد الغزالي

تحقيق : علي محي الدين علي القره داغي

دار الاعتصام، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

١٠ - أخبار الحمقى والمغفلين

أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي

الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، دار

الآفاق الجديدة، بيروت .



١١- جريدة «الجزيرة»

عدد ٦٨٩٦، الجمعة، ٦ صفر، ١٩١٢م،
الرياض، المملكة العربية السعودية.

١٢- ديوان (شعر عامي)

عبدالمحسن الناصر الصالح
الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ.

١٣- روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث
السنين

محمد بن عثمان بن صالح بن عثمان القاضي
الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٤- كتاب العقد الفريد

أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
تحقيق: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم
الابيارى
الطبعة الثانية، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.

١٥- عقلاء المجانين

أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب
النيسابوري



تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني
زغلول

الطبعة الأولى : ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م
دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٦- علماء نجد خلال ستة قرون

عبدالله بن عبدالرحمن بن صالح البسام
الطبعة الأولى : ١٣٩٨هـ.

١٧- مجالس ثعلب

أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب
تحقيق : عبدالسلام محمد هارون
الطبعة السادسة : ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، دار
المعارف.

١٨- محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء البلغاء

الراغب الاصبهاني
هذّبه واختصره : إبراهيم زيدان
دار الآثار ، بيروت.

١٩- معجم الأدباء

أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي
دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.



٢٠- من حطب الليل

عبدالعزیز بن عبد اللہ الخویطر

الطبعة الأولى : ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م،

الرياض، المملكة العربية السعودية.

« تم بحمد الله »



obeikandi.com



obeikandi.com